Sebastian Fitzek

Das Paket

رواية

بيعت من أعماله
أكثر من **19 مليون** نسخة

سيباستيان فيتزيك

الطرد

ترجمة
بسمة الخولي

بيت الكتب

الطرد

Des PACKET

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم
مبادرة ترجم
Tarjim Initiative
هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission
Translation funded by the Tarjim Initiative

سيباستيان فيتزيك

SEPASTEIAN FITZEK

الطرد

DES PACKET

«... كل القصص، إن هي امتدت بما يكفي، تنتهي بالموت؛
وليس بقاصٍ صادقٍ ذاك الذي يُخفي عنك هذا المصير.»

— **إرنست همنغواي**

«يستحيل رصد شيء ما دون إحداث تغيير فيه.»

— مبدأ عدم اليقين لـ **هايزنبرغ**

مقدمة

لم يَدُر بخلد إيما، وهي تدفع باب غرفة نوم والديها، أن هذه ستكون المرة الأخيرة. لن يعود بإمكانها تسلّق سريرهما مجددًا، محتضنةً فيلها الدُمية، لتتكوّر بجوار أمها بعد منتصف الليل، وهي تحاول جاهدة ألا توقظ أباها الذي اعتاد أن يتقلب بعنف، ويتمتم بكلمات مبهمة أو يكز على أسنانه في أحلامه.

الليلة لم يكن يرفس أو يتمتم أو يكز على أسنانه؛ الليلة كان يئن فحسب.

— "بابا؟"

توغلت إيما داخل الغرفة من عتمة الرواق. كان ضوء البدر، الذي يخيم فوق برلين كشمس ليلية في هذا المساء الربيعي، ينسكب داخل الغرفة متلألئًا كالزئبق عبر الستائر المسدلة.

ضيقت إيما عينيها اللتين تتدلى فوقهما غرتها كستارة كستنائية، لتتبين معالم المكان: صندوق الخيزران عند أسفل السرير، والطاولات الزجاجية التي تحف السرير العريض، وخزانة الملابس ذات الأبواب الجرارة حيث اعتادت أن تختبئ.

إلى أن دخل آرثر حياتها وأفسد لعبة الغميضة.

همست إيما:

– "بابا؟"

ثم تحسست قدم والدها العارية البارزة من تحت اللحاف.

كانت إيما نفسها ترتدي جوربًا واحدًا، وحتى ذاك كان بالكاد معلقًا بقدمها. لقد فقدت الآخر وهي نائمة، في مكان ما بين قصر وحيد القرن المتلألئ ووادي العنكبوت الفضي الطائر الذي يخيفها أحيانًا في أحلامها.

لكن ليس بقدر ما يخيفني آرثر.

رغم أنه ظل يؤكد لها أنه ليس شريرًا. هل يمكنها الوثوق به؟

ضمت إيما الفيل إلى صدرها بقوة أكبر. شعر لسانها كأنه قطعة علكة جافة ملتصقة بسقف حلقها. بالكاد سمعت صوتها الرفيع، فحاولت مجددًا:

– "بابا، استيقظ."

وشدت إصبع قدمه.

وبينما سحب والدها قدمه، انقلب على جانبه مطلقًا أنينًا خافتًا، ورفع اللحاف للحظة فملأت رائحة نومه أنف إيما. كانت واثقة أنها لو كانت معصوبة العينين لميزت والدها من بين عشرات الرجال برائحته فقط؛ ذلك المزيج الترابي المألوف من التبغ وماء الكولونيا. رائحة تحبها.

تساءلت إيما للحظة إن كان الأجدر بها محاولة إيقاظ أمها. فماما كانت دائمًا موجودة لأجلها، أما بابا فكثير التذمر. في الغالب لم تكن إيما تفهم ما فعلته لتُصفق الأبواب بتلك القوة التي تهز أركان المنزل. لاحقًا كانت ماما تخبرها أن والدها لم يكن يعي حقًا ما يفعله، وتفسر لها أنه «سريع الغضب»، أو شيئًا من هذا القبيل، وأنه يندم بعد ذلك. في بعض الأحيان، وإن كان ذلك نادرًا، كان يعتذر. يأتي إلى غرفتها، يمسد وجنتها الملطخة بالدموع، يداعب شعرها ويقول إن كون المرء بالغًا ليس بالأمر السهل، بسبب المسؤوليات، وبسبب المشاكل التي عليه التعامل معها، وما

إلى ذلك. بالنسبة لإيما، كانت تلك اللحظات النادرة هي الأسعد في حياتها، وهي بالضبط ما تحتاج إليه الآن.

واليوم تحديدًا، سيعني لها ذلك الكثير.

خاصة وأنا خائفة هكذا.

— "بابا، أرجوك، أنا..."

كانت تتحرك نحو الطرف الآخر من السرير لتلمس رأسه حين تعثرت بقارورة زجاجية.

يا إلهي، لا...

في غمرة اضطرابها، نسيت أن ماما وبابا يضعان دائمًا زجاجة ماء بجوار السرير تحسبًا لعطش أحدهما ليلاً. حين انقلبت وتدحرجت فوق أرضية الباركيه، بدا الصوت في أذني إيما وكأن قطار بضائع يمر في غرفة النوم. كان الضجيج يصم الآذان، وكأن الظلام يضخم الأصوات.

أضيء النور.

في جانب والدتها.

صرخت إيما صرخة حادة حين وجدت نفسها فجأة وسط الضياء.

قالت والدتها التي بدت كقديسة تحت شعاع مصباح القراءة:

— "حبيبتي؟"

كقديسة بشعر أشعث وآثار الوسادة مطبوعة على وجهها.

فزع والد إيما وفتح عينيه هو الآخر.

صاح بصوت عالٍ:

— "ماذا بحق الجحيم...؟"

كانت عيناه تمسحان الغرفة محاولتين إدراك موقعه. من الواضح أنه استيقظ من كابوس، وربما ما زالت بقاياه عالقة في رأسه. اعتدل جالسًا.

قالت الأم:

– "ما الأمر يا صغيرتي؟"

قبل أن تجيب إيما، صرخ الأب مجددًا بصوت أعلى هذه المرة:

– "اللعنة!"

وبخته أمها:

– "توماس."

لوح بيده نحو إيما محافظًا على نبرته الحادة:

– "بحق السماء، كم مرة قلت لكِ..."

– "توماس!"

– "... أن تتركينا وشأننا في الليل!"

تلعثمت إيما وعيناها تفيضان بالدمع:

– "لكن... خزا... خزا... خزانتي..."

قطب والدها حاجبيه غاضبًا:

– "ليس مجددًا."

بدا أن محاولات والدتها لتهدئته لا تزيده إلا غضبًا.

قالت إيما رغم ذلك:

– "آرثر. الشبح. لقد عاد. في الخزانة. عليك أن تأتي، أرجوك! وإلا فقد يؤذيني."

كان تنفس والدها ثقيلاً، واسود وجهه، وارتجفت شفتاه، وبدا لثانية خاطفة شبيهًا بما تخيلت عليه آرثر: شيطان صغير متعرّق بكرش كبير ورأس أصلع.

– "لسنا مضطرين لفعل شيء. اخرجي يا إيما، فورًا، وإلا قد أوذيكِ. لا، بل سأوذيكِ فعلاً!"

سمعت صرخة أمها مجددًا وهي تترنح متراجعة إلى الخلف:

– "توماس!"

وقعت تلك الكلمات على إيما وقع الصاعقة. كانت أقسى من مضرب تنس الطاولة الذي ارتطم بوجهها خطأً الشهر الماضي أثناء اللعب. فاضت الدموع على وجهها. شعرت وكأن والدها قد صفعها؛ كانت وجنتا إيما تحترقان رغم أنه لم يرفع إصبعه حتى.

سمعت أمها تقول بقلق، وبصوت ناعم يكاد يكون متوسلاً:

— "لا يمكنك التحدث إلى ابنتك هكذا."

— "سأتحدث إليها كما يحلو لي. يجب أن تتعلم أخيرًا أنها لا تستطيع اقتحام الغرفة كل ليلة..."

— "إنها طفلة في السادسة."

— "وأنا رجل في الرابعة والأربعين، لكن يبدو أن احتياجاتي لا تساوي شيئًا في هذا البيت."

أسقطت إيما فيلها دون أن تدرك. استدارت نحو الباب وغادرت الغرفة وكأنها دُمية تُسحب بخيط.

— "توماس..."

قال الأب مقلدًا صوت زوجته:

— "هل ستتوقفين عن (توماس) هذه! لم أنم سوى نصف ساعة. إذا لم أكن في كامل تركيزي في المحكمة غدًا وخسرت هذه القضية، فسوف ينهار عملي، ويمكنك حينها توديع كل هذا: البيت، وسيارتك، والطفل."

— "أعرف..."

— "أنتِ لا تعرفين شيئًا. إيما تستنزفنا ماديًا بالفعل حتى كدنا نبيع البيت، لكنكِ أصريتِ على إنجاب طفل ثانٍ سيمنعني من النوم كليًا. بحق السماء، لعله لم يغب عن ذهنك أنني الوحيد الذي يجلب المال لهذه العائلة. وأنا أحتاج إلى نومي!"

رغم أن إيما قطعت نصف المسافة في الرواق، إلا أن صوت والدها لم ينخفض. وحدها أمها كانت تهمس:

— "هششش، توماس. حبيبي. اهدأ."

— "كيف، بحق الجحيم، يمكنني أن أهدأ هنا؟"

— "تعال، دعني، أرجوك. سأعتني بك الآن، حسنا؟"

— "تعتنين بي؟ منذ حملتِ مجددًا وأنتِ لا تعتنين إلا بـ..."

— "أعرف، أعرف. هذا خطئي. تعال، دعني..."

أغلقت إيما باب غرفتها، حاجبة أصوات والديها.

أو على الأقل تلك القادمة من غرفة النوم. لا تلك التي تدوي في رأسها.

اخرجي يا إيما، فورًا، وإلا...

مسحت الدموع عن عينيها وانتظرت أن يختفي الطنين من أذنيها، لكنه لم يختفِ. تمامًا كما لم يختفِ ضوء القمر الذي كان يسطع هنا بقوة أكبر مما كان عليه في غرفة والديها، ولن يعود أدراجه خارج النافذة. كانت ستائرها مصنوعة من الكتان الرقيق، بينما النجوم المضيئة الملتصقة بالسقف تتوهج هي الأخرى فوق سريرها.

سريري.

أرادت إيما أن تزحف إليه وتبكي تحت اللحاف، لكنها لم تستطع فعل ذلك قبل أن تتأكد من أن الشبح ليس في مخبئه. أن تتأكد أنه لن ينقض عليها وهي نائمة، وأنه قد رحل، كما يفعل كل مرة تأتي ماما لتلقي نظرة معها.

كانت خزانة المزارع القديمة شيئًا مسخًا بنقوش بدائية محفورة في أبوابها المصنوعة من السنديان، والتي تحاكي قهقهة ساحرة عجوز حين تُفتح.

مثل الآن.

أرجوك لا تكن هناك.

قالت إيما مخاطبة الفجوة السوداء أمام عينيها:

– "مرحبًا؟"

كانت الخزانة ضخمة لدرجة أن أغراضها لم تشغل سوى الجانب الأيسر. أما الجانب الآخر فكان يتسع لمناشف أمها ومفارش المائدة.

ولـ آرثر.

أجاب الشبح ذو الصوت العميق:

– "مرحبًا."

بدا صوته، كالعادة، وكأنه يضع يده على فمه. أو قطعة قماش.

أطلقت إيما صرخة قصيرة. لكن الغريب أنها لم تشعر بذلك الخوف العميق والشامل الذي انتابها سابقًا، حين سمعت خشخشة داخل الخزانة وذهبت لتلقي نظرة.

ربما الخوف مثل كيس حلوى الجيلي، فكرت في نفسها. لقد أنهيته بالكامل في غرفة والديّ.

– "هل ما زلت هناك؟"

– "بالطبع. هل ظننتِ أني سأتركُكِ وحدك؟"

تمنيتُ لو فعلت.

– "ماذا لو جاء بابا ليتفقد الأمر؟"

ضحك آرثر بخفوت:

– "كنت أعلم أنه لن يأتي."

– "كيف؟"

– "هل سبق له أن اعتنى بكِ؟"

ترددت إيما.

– "نعم."

لا. لا أعرف.

– "لكن ماما..."

– "أمكِ ضعيفة. لهذا أنا هنا."

نشقت إيما أنفها:

– "أنت؟"

صمت آرثر قليلاً، وازداد صوته عمقًا:

– "أخبريني... هل كنتِ تبكين؟"

أومأت إيما برأسها. لم تكن تعلم إن كان الشبح يستطيع رؤيتها، لكن عينيه ربما لا تحتاجان إلى ضوء. وربما لم يكن لديه عينان أصلاً. لم تكن متأكدة لأنها لم ترَ آرثر قط.

سأل:

– "ماذا حدث؟"

– "بابا غضب."

– "ماذا قال؟"

ابتلعت إيما ريقها. سماع الكلمات تتردد في رأسها كان شيئًا، وقولها بصوت عالٍ شيء آخر تمامًا. كان الأمر مؤلمًا. لكن آرثر أصر، وخوفًا من أن يغضب هو الآخر مثل والدها، رددتها:

– "قال... اخرجي وإلا سأوذيكِ."

– "أهو قال ذلك؟"

أومأت إيما مجددًا. وبدا أن آرثر قادر فعلاً على رؤيتها في الظلام، لأنه تفاعل مع إيماءتها. تمتم بصوت يعبر عن الاستهجان، ثم حدث شيء غير عادي بالمرة.

غادر آرثر مخبأه.

لأول مرة على الإطلاق.

أزاح الشبح، الذي كان أضخم بكثير مما تخيلت، عددًا من الشماعات جانبًا، وبينما هو يخرج، مسح على شعرها بأصابعه التي يغطيها القفاز.

– "تعالي يا إيما، اذهبي إلى السرير الآن واهدئي."

رفعت نظرها إليه وتجمدت.

بدلاً من الوجه، رأت صورة مشوهة لنفسها. وكأنها في غرفة رعب، تحدق في مرآة مثبتة على عمود أسود طويل.

استغرق الأمر وهلة قبل أن تدرك أن آرثر يرتدي خوذة دراجة نارية، وأنها تحدق في انعكاسها المشوه على زجاج خوذته.

وعدها وهو يتجه نحو الباب:

– "سأعود حالاً."

كان ثمة شيء مألوف في طريقة تحركه، لكن انتباهها كان مشتتًا تمامًا بالجسم الحاد في يده اليمنى.

ستمر سنوات قبل أن تدرك أن تلك كانت حقنة.

بإبرة طويلة تلمع كالفضة تحت ضوء القمر.

«الكذّاب لا يُصدَّق
وإن نطق بالصدق»

(مَثَل)

الفصل الأول

بعد ثمانية وعشرين عامًا

— "لا تفعلوا ذلك. كنت أكذب. أرجوكم لا..."

حاول الحضور، وهم رجال في أغلبهم، ألا يُبدوا أي تأثر وهم يشاهدون تلك المرأة ذات الشعر الأسود، شبه العارية، وهي تخضع للتعذيب.

— "بحق السماء، إنه خطأ. لقد اختلقت الأمر برمته. خطأ فادح... النجدة!"

تردد صدى صرخاتها في أرجاء الغرفة المعقمة ناصعة البياض؛ كانت كلماتها مفهومة بوضوح، ولن يتمكن أي ممن حضروا الواقعة أن يزعم لاحقًا أنه أساء فهمها.

لم تكن المرأة ترغب في هذا.

ورغم توسلاتها، غرز الرجل الملتحي، بوزنه الزائد قليلاً وأسنانه غير المنتظمة، الحقنة في ثنية ذراعها المثبتة بالأحزمة.

ورغم احتجاجاتها، لم يزيلوا الأقطاب الكهربائية الموصولة بجبينها وصدغيها، ولا حتى الطوق المحيط برأسها، والذي ذكرها بقرود المختبرات سيئة الحظ التي تُفتح جماجمها وتُغرس المسابر في أدمغتها.

وهو في الأساس مشهد لا يختلف كثيرًا عما كان على وشك أن يُمارس عليها الآن.

حين بدأ مفعول المهدئ ومرخي العضلات بالسريان، باشروا التنفس الاصطناعي اليدوي. ثم بدأ الرجال بتوجيه النبضات الكهربائية: 475 فولت، 17 مرة متتالية، حتى استحثوا نوبة صرع.

من زاوية كاميرا المراقبة المغلقة، استحال تمييز ما إذا كانت المرأة ذات الشعر الأسود تبدي مقاومة، أم أن أطرافها كانت تنتفض تشنجًا. كانت ظهور الشخصيات التي ترتدي المآزر والأقنعة تحجب الرؤية عن الجمهور. لكن الصراخ توقف. وفي النهاية توقف الفيلم أيضًا، وعادت الإضاءة الخافتة إلى القاعة.

بدأت الدكتورة إيما شتاين تعقيبها قائلة:

— "ما شاهدتموه للتو هو حالة مروعة..."

توقفت للحظة لتسحب الميكروفون أقرب قليلاً كي يتسنى لضيوف المؤتمر سماعها بوضوح أكبر. ندمت الآن لأنها رفضت المقعد الصغير الذي عرضه عليها الفني أثناء اختبار الصوت. في العادة كانت لتطلبه بنفسها، لكن الشاب الذي يرتدي بدلة العمل رمقها بابتسامة متعالية جعلتها ترفض الخيار العقلاني الذي كان سيمنحها بعض الطول. ونتيجة لذلك، اضطرت للوقوف على أطراف أصابعها خلف المنصة.

— "... حالة مروعة من الطب النفسي القسري، كنا نظن طويلاً أنها صارت في ذمة التاريخ."

مثل إيما، كان معظم الحاضرين أطباء نفسيين. وهو ما يعني أنها لم تكن بحاجة لتشرح لزملائها أن اعتراضها لم يكن موجهًا للعلاج بالصدمات الكهربائية؛ فتمرير الكهرباء عبر الدماغ البشري قد يبدو إجراءً وحشيًا من القرون الوسطى، لكنه يحقق نتائج واعدة في مكافحة الذُهان والاكتئاب. وعندما يُجرى تحت التخدير العام، لا يكون للعلاج أي آثار جانبية تذكر.

– "لقد تمكنا من تهريب هذه اللقطات التي سجلتها كاميرا مراقبة العمليات من عيادة (أورفيليو) في هامبورغ. المريضة التي شاهدتم مصيرها للتو أُدخلت المصحة في الثالث من مايو العام الماضي، وشُخِّصت بذهان فصامي، استنادًا فقط إلى ما قالته المرأة البالغة من العمر ثلاثة وأربعين عامًا عند دخولها. لكنها لم تكن تعاني من أي خطب على الإطلاق. تلك المريضة المزعومة زيفت أعراضها."

سأل شخص مجهول الملامح من مكان ما في الجهة اليسرى لوسط القاعة:

– "لماذا؟"

كاد الرجل يضطر للصراخ كي تفهمه في تلك المساحة التي تشبه المسرح. كانت الجمعية الألمانية للطب النفسي قد استأجرت لمؤتمرها السنوي القاعة الرئيسية في مركز المؤتمرات الدولي (ICC) في برلين. من الخارج، بدا المركز وكأنه محطة فضاء فضية دارت قادمة من اتساع الكون اللامتناهي لتستقر مباشرة تحت برج التلفزيون. ومع ذلك، حين تدخل هذا المبنى العائد للسبعينيات – والمحتمل تلوثه بمادة «الإسبستوس» (وهو أمر اختلف حوله الخبراء) – لن يخطر ببالك الخيال العلمي بقدر ما تذكرك الأجواء بفيلم كلاسيكي قديم. كان الكروم والزجاج والجلد الأسود هي العناصر الطاغية على التصميم الداخلي.

جالت إيما بنظرها عبر صفوف المقاعد المكتظة، لكنها عجزت عن تحديد موقع السائل، فتحدثت موجهة كلامها نحو الجهة التقريبية التي تخيلت وجوده فيها.

– "إليكم سؤال من عندي: ماذا تعني لكم تجربة روزنهان؟"

أومأ زميل أكبر سنًا، يجلس على كرسي متحرك عند طرف الصف الأول، إيماءة العارف.

– "أُجريت لأول مرة في نهاية الستينيات، بهدف اختبار مدى موثوقية التشخيصات النفسية."

كعادتها حين تتوتر، لفت إيما خصلة من شعرها الكثيف بلون خشب التيك حول سبابتها اليسرى. لم تتناول أي طعام قبل محاضرتها، خشية أن تشعر بالتعب أو الحاجة للتجشؤ. والآن كانت معدتها تقرقر بصوت عالٍ خشيت معه أن يلتقطه الميكروفون، مما قد يعزز النكات التي كانت مقتنعة بأنها تُتداول حول مؤخرتها الممتلئة. في نظرها، حقيقة أنها نحيفة في باقي جسدها لم تزد هذا العيب الجسدي إلا وضوحًا.

عصا مكنسة من الأعلى، وكرة هدم من الأسفل.

فكرت في ذلك مرة أخرى هذا الصباح فقط وهي تتفحص نفسها في مرآة الحمام.

بعد ثانية واحدة، كان فيليب قد عانقها من الخلف وأصر على أنها تملك أجمل جسد لمسه في حياته. وعندما تبادلا قبلة الوداع عند الباب الأمامي، جذبها نحوه وهمس في أذنها أنه بمجرد عودتها، سيحتاج بشكل عاجل إلى «علاج للعلاقات الزوجية» مع الطبيبة النفسية الأكثر إثارة في شارلوتنبورغ. شعرت أنه جاد، لكنها تعلم أيضًا أن زوجها ضليع في إلقاء المجاملات. ببساطة، الغزل محفور في DNA فيليب – وهو أمر اضطرت إيما للاعتياد عليه – ونادرًا ما كان يضيع فرصة لممارسته.

– "في تجربة روزنهان، التي سميت تيمناً بعالم النفس الأمريكي ديفيد روزنهان، قام ثمانية أشخاص بإدخال أنفسهم إلى مصحات نفسية بذرائع واهية. طلاب، ربات بيوت، فنانون، علماء نفس، وأطباء. رووا جميعهم القصة نفسها عند الدخول: أنهم يسمعون أصواتًا، أصواتًا غريبة ومريبة تردد كلمات مثل «فراغ»، «أجوف» أو «ارتطام»."

— "لن يفاجئكم أن تعلموا أن جميع المرضى المزيفين تم قبولهم، وشُخِّص معظمهم بالفصام أو الذهان الهوسي الاكتئابي."

— "ورغم أن الأشخاص كانوا أصحاء تمامًا وتصرفوا بشكل طبيعي للغاية بعد دخولهم، إلا أنهم خضعوا للعلاج في المؤسسات لأسابيع متصلة، ويُفترض أنهم تعاطوا ما مجموعه أكثر من ألفي حبة دواء."

رطبت إيما شفتيها برشفة ماء من الكوب الموضوع أمامها. كانت قد وضعت بعض أحمر الشفاه، رغم أن فيليب يفضل «المظهر الطبيعي». كانت تملك بالفعل بشرة ناعمة بشكل استثنائي، رغم أنها كانت تراها شاحبة للغاية، خاصة مع اللون الحاد لشعرها. لم تكن ترى ذلك «التباين البديع» الذي ظل فيليب يتغنى به.

— "إذا كنتم تظنون أن السبعينيات زمن ولى، وأن هذا حدث في قرن مختلف، أي في العصور الوسطى للعلوم النفسية، فدعوا هذا الفيديو يحطم أوهامكم. لقد صُور هذا العام الماضي. هذه الشابة كانت هي الأخرى تخضع لتجربة؛ لقد أعدنا تجربة روزنهان."

سرت همهمة في القاعة. كان الحاضرون قلقين من النتائج الفاضحة أقل من قلقهم من احتمالية أن يكونوا هم أنفسهم قد خضعوا للتجربة دون علمهم.

تابعت إيما بعد رشفة ماء أخرى:

— "لقد أرسلنا مرضى مزيفين إلى مؤسسات الطب النفسي، وحققنا مرة أخرى فيما يحدث عندما يتم إدخال أشخاص عاقلين تمامًا إلى منشأة مغلقة. والنتائج كانت صادمة."

— "شُخِّصت المرأة في الفيديو بالبارانويا الفصامية بناءً على جملة واحدة قالتها عند وصولها إلى العيادة. وبعد ذلك عولجت لأكثر من شهر. ليس بالأدوية والعلاج بالحوار فحسب، بل بالقوة الغاشمة أيضًا. كما رأيتم

وسمعتم بأنفسكم، كانت واضحة تمامًا في رفضها للعلاج بالصدمات الكهربائية. ولا عجب، فهي تتمتع بكامل قواها العقلية. ومع ذلك، عولجت قسرًا."

— "رغم أنها رفضت ذلك علانية. ورغم أنه بعد دخولها لم يلاحظ أحد أي شيء غير طبيعي في تصرفاتها، وأكدت للأطباء عدة مرات أن حالتها عادت لطبيعتها. لكنهم رفضوا الاستماع إليها، سواء الممرضين أو المرضى الآخرين. ولأن الأطباء لم يكونوا يمرون إلا بشكل متقطع، كان الأشخاص الذين قضت معهم كل وقتها في العيادة مقتنعين بأن هذه المرأة المحبوسة لا مبرر لوجودها هناك."

لاحظت إيما شخصًا في الثلث الأول من القاعة ينهض واقفًا. أعطت الفني الإشارة المتفق عليها لرفع الإضاءة قليلاً. ميزت عيناها رجلاً طويلاً نحيلاً ذا شعر خفيف، وانتظرت حتى شق مساعد مؤتمرات طويل الساقين طريقه بصعوبة عبر الصفوف ليصل إلى الرجل وناوله الميكروفون.

نفخ الرجل في الميكروفون قبل أن يقول:

— "شتاودر—ميرتنز، المستشفى الجامعي، كولونيا. مع كامل الاحترام يا دكتورة شتاين، تعرضين علينا فيديو رعب مشوشًا، نفضل ألا نعرف مصدره أو مورده، ثم تطلقين ادعاءات جامحة، لو قُدر لها أن تخرج للعلن لألحقت ضررًا بالغًا بمهنتنا."

قالت إيما:

— "هل لديك سؤال أيضًا؟"

أومأ الطبيب صاحب الاسم المركب:

— "هل لديكِ دليل آخر غير إفادة هذه المريضة المزيفة؟"

— "لقد اخترتها شخصيًا للتجربة."

— "هذا جيد وممتاز، لكن هل يمكنكِ التعهد بصحة ما تقول دون أدنى شك؟ أعني، كيف تعرفين أن هذا الشخص سليم عقليًا حقًا؟"

حتى من هذه المسافة، استطاعت إيما رؤية الابتسامة المتغطرسة ذاتها التي أزعجتها على وجه الفني.

— "إلام تلمح يا سيد شتاودر—ميرتنز؟"

— "إلى أن الشخص الذي يتطوع ليدخل وحدة أمنية لعدة أسابيع بذرائع كاذبة – كيف أصيغ ذلك بحذر؟ – لابد وأنه يتمتع بتركيبة نفسية غير عادية. من يستطيع أن يخبرك أن هذه السيدة المميزة لم تكن تعاني بالفعل من الأعراض التي عولجت منها في النهاية، والتي ربما لم تظهر عليها إلا أثناء إقامتها في المؤسسة؟"

قالت إيما:

— "أنا."

سأل الرجل بشيء من الزهو:

— "أوه، إذًا كنتِ معها طوال الوقت، أليس كذلك؟"

— "كنتُ كذلك."

تلاشت ابتسامته الواثقة:

— "أنتِ؟"

عندما أومأت إيما، صار التوتر ملموسًا في القاعة.

قالت إيما بصوت يرتجف من الانفعال، وأيضًا من الغضب بسبب الاستهجان الذي قوبلت به اكتشافاتها:

— "صحيح. أيها الزملاء الأعزاء، في الفيديو لم تروا سوى ظهر الحالة الخاضعة للاختبار وبشعر مصبوغ، لكن المرأة التي تم تخديرها أولاً ثم عولجت قسرًا بالصدمات الكهربائية رغمًا عن إرادتها المعلنة، تلك المرأة كانت... أنا."

الفصل الثاني

بعد ساعتين

قبضت إيما على مقبض حقيبتها ذات العجلات، وترددت للحظة قبل أن تلج الغرفة رقم 1904، لسبب بسيط هو أنها بالكاد كانت ترى شيئًا؛ فالإضاءة الشحيحة التي اخترقت الظلام كانت تنبعث من أضواء المدينة التي لا تُحصى، القابعة على بعد تسعة عشر طابقًا تحتها. كان فندق "لو زين" في شارع "تاونتزين شتراسه" أحدث قصور برلين المصنوعة من الكروم والزجاج، يضم أكثر من ثلاثمائة غرفة. إنه الأطول والأكثر فخامة مقارنة بأي فندق آخر في العاصمة. و — في نظر إيما على الأقل — زُيّن بذوق متواضع نسبيًا.

كان هذا، على أية حال، انطباعها الأول بمجرد عثورها على المفتاح الرئيسي بجوار الباب وتشغيل الإضاءة العلوية.

بدا التصميم الداخلي وكأن متدربًا قد أُمر باستغلال كل "كليشيه" ممكن عن الشرق الأقصى عند اختيار الأثاث.

في الردهة، التي يفصلها عن غرفة النوم المجاورة باب جرار رقيق مغطى بالورق، انتصب صندوق زفاف صيني. وامتد بساط من الخيزران من الباب وصولاً إلى سرير "فوتون" منخفض. بدت المصابيح بجوار الأريكة الأرضية كالفوانيس الملونة التي يحملها الصغار في يوم القديس مارتن في الموكب الذي تنظمه روضة أطفال حي "هيرشتراسه". في المقابل، وبشكل

أنيق ومفاجئ، امتدت صورة ضخمة بالأبيض والأسود للفنان آي ويوي من الأرض إلى السقف بين الأريكة وخزانة الملابس المثبتة. كانت إيما قد زارت مؤخرًا معرضًا لهذا الفنان الصيني الاستثنائي.

أشاحت بنظرها عن الرجل ذي اللحية الشعثاء، وعلقت معطفها في الخزانة، ثم أخرجت هاتفها من حقيبة يدها.

البريد الصوتي.

حاولت الاتصال به مرة من قبل، لكن فيليب لم يجب. لم يكن يجيب أبدًا أثناء المناوبة.

تنهدت واتجهت صوب النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف، وخلعت حذاءها المفتوح من الأمام، والذي بدونه ينكمش طولها ليضاهي طول مراهقة في الرابعة عشرة، وراحت تحدق في شارع "كورفورستيندام" بالأسفل. مسدت بطنها الذي لم يظهر عليه شيء بعد، وإن كان الوقت مبكرًا قليلاً لذلك. لكن كانت تواسيها فكرة أن شيئًا ما ينمو بداخلها، وهو أمر أكثر أهمية بكثير من أي ندوة أو تقدير مهني.

استغرق الأمر وقتًا قبل أن يظهر الخط الثاني على اختبار الحمل أخيرًا، قبل خمسة أسابيع. وكان هذا أيضًا السبب الذي جعل إيما لا تنام في سريرها الليلة، بل تبيت لأول مرة في حياتها في فندق بمدينتها الأم. فمنزلها الصغير في "تويفيلزي—آلي" كان حاليًا أشبه بورشة بناء لأنهم بدأوا في توسيع العلية لتكون غرفة للأطفال. رغم أن فيليب رأى أن البدء في بناء "العش" قبل نهاية الثلث الأول من حملها قد يكون حماسًا مفرطًا.

ولأنه كان يعمل في مدينة أخرى مجددًا، قبلت إيما عرض الإقامة الذي قدمته الجمعية الألمانية للطب النفسي لجميع المتحدثين الضيوف في المؤتمر الممتد ليومين — حتى أولئك الذين يعيشون في برلين — لأنه

يسمح لهم بتناول بعض المشروبات في الحفل المسائي بقاعة الفندق (وهو الحفل الذي تهربت منه إيما).

قالت في الرسالة الصوتية التي تركتها لفيليب:

– "انتهت المحاضرة تمامًا كما توقعتَ. لم يرجموني بالحجارة، لكن ذلك فقط لعدم توفر حجارة في متناول أيديهم."

ابتسمت.

تابعت قائلة:

– "لكنهم لم يصادروا غرفتي في الفندق، بطاقة المفتاح التي حصلت عليها مع وثائق المؤتمر لا تزال تعمل."

ختمت إيما رسالتها بقبلة، ثم أغلقت الخط. كانت تفتقده بشدة.

فكرت محاولةً تجميل الموقف في عين نفسها:

من الأفضل أن أكون وحيدة هنا في الفندق بدلاً من الوحدة في المنزل وسط علب الطلاء والجدران المهدومة.

دخلت إيما إلى الحمام، وبينما كانت تخلع بدلتها، بحثت عن مفتاح التحكم في الصوت للسماعة الموجودة في السقف المستعار، والتي تنقل صوت التلفاز.

دون جدوى.

وهو ما عنى أنها مضطرة للعودة إلى غرفة المعيشة وإطفاء التلفاز. هناك أيضًا استغرق الأمر وقتًا لتعثر على جهاز التحكم في درج الطاولة الجانبية، ولهذا السبب أصبحت الآن على دراية تامة بتحطم طائرة في غانا وانفجار بركان في تشيلي.

سمعت إيما الصوت الأنفي لمذيع الأخبار يبدأ خبرًا جديدًا:

– "... أصدرت الشرطة تحذيرًا بشأن قاتل متسلسل، الذي..."

وقطعته بضغطة زر.

عند عودتها للحمام، استغرق ضبط درجة الحرارة بعض الوقت.

كشخص يشعر بالبرد بسهولة، كانت إيما تعشق الماء الساخن، حتى الآن في عز الصيف، وقد كان يومًا من أيام يونيو باردًا وعاصفًا بشكل غير معتاد وبدرجة حرارة تقل عن العشرين. لذا ضبطت الماء على أربعين درجة — وهي عتبة الألم بالنسبة لها — وانتظرت الشعور بالوخز الذي ينتابها دائمًا حين يرتطم التيار الساخن بجلدها.

عادةً ما تشعر إيما بالحياة تدب في أوصالها لحظة أن يغلفها البخار ويدلك الماء الساخن جسدها. لكن التأثير اليوم كان أضعف، جزئيًا لأن القذارة التي رُميت بها بعد المحاضرة لم يكن من الممكن غسلها بالماء وصابون الفندق.

كانت هناك ردود فعل غاضبة على كشفها لحقيقة أن الناس، حتى في القرن الحادي والعشرين، معرضون لأن يصبحوا ألاعيب في أيدي أنصاف آلهة يرتدون الأبيض ويسيئون استخدام سلطتهم لمجرد تشخيصات خاطئة ومهملة. شُكك في صحة نتائج بحثها أكثر من مرة. حتى أن ناشر المجلة المتخصصة الشهيرة أعلن أنه سيجري مراجعة دقيقة قبل أن «يفكر» في نشر مقال عن عملها.

بالتأكيد، تجرأ بعض الزملاء على إبداء دعمهم بعد الحدث، لكن في عيون هؤلاء القلة، استطاعت قراءة اللوم غير المنطوق:

لماذا بحق السماء وضعتِ نفسك في خطر بهذه التجربة الغبية؟ ولماذا تخاطرين بمسيرتك المهنية وتفتعلين شجارًا مع الرؤوس الكبيرة التي تدير العيادات؟

وهو سؤال لن يطرحه فيليب أبدًا. فهو يفهم لماذا ناضلت إيما لسنوات لتحسين الوضع القانوني للمرضى الخاضعين للعلاج النفسي.

فبسبب مرضهم العقلي، غالبًا ما يُنظر إليهم بعين الريبة أكثر من المرضى الذين يشكون، على سبيل المثال، من علاج أسنان خاطئ.

وكان فيليب يدرك لماذا تسلك طرقًا غير عادية، وخطرة أحيانًا، للوصول إلى غايتها. ولا شك في أن ذلك يعود لكونهما متشابهين جدًا في هذا الجانب.

في عمله هو الآخر، كان فيليب يتجاوز حدودًا لا يجرؤ أي شخص طبيعي على عبورها بمحض إرادته. في الحقيقة، السيكوباتيون والقتلة المتسلسلون الذين يطاردهم بصفته كبير المحققين في قسم التنميط الجنائي، غالبًا ما لم يتركوا له خيارًا آخر.

بعض الأزواج يجمعهم حس الفكاهة، وآخرون لديهم هوايات متشابهة أو نفس النظرة السياسية. أما إيما وفيليب، فكانا يضحكان على نكات مختلفة تمامًا؛ هي لا تطيق كرة القدم وهو لا يشاركها حبها للمسرحيات الموسيقية، وبينما كانت في شبابها تتظاهر ضد الطاقة النووية وصناعة الفراء، كان هو عضوًا في رابطة الشباب المحافظين. ما شكل حجر الزاوية في علاقتهما كان التعاطف.

سمح لهما الحدس والخبرة بوضع أنفسهما داخل أرواح الآخرين وإخراج أسرار نفسياتهم إلى وضح النهار. وبينما فعلت إيما ذلك لتحرير المرضى الذين يزورون عيادتها الخاصة في "سافيني بلاتز" من مشاكلهم النفسية، استخدم فيليب قدراته الاستثنائية لرسم ملامح السلوك والشخصية. وبفضل تحليلاته، وُضع بعض أخطر المجرمين الذين عرفتهم ألمانيا خلف القضبان.

لكن مؤخرًا، تمنت إيما لو أن كليهما يتراجع خطوة إلى الوراء. كان يلاحقها باستمرار شعور بأن فيليب، في أوقات فراغهما الشحيحة أصلاً، يجد صعوبة متزايدة في تحقيق المسافة اللازمة للابتعاد عن عمله. وكانت

قلقة من أنهما في الطريق لإثبات مقولة "نيتشه" عن الهاوية: إذا أطلت النظر إليها وعميقًا بما يكفي، بدأت هي تحدق فيك.

بعض الوقت المستقطع، أو عطلة على الأقل. سيكون ذلك كافيًا.

آخر رحلة قاما بها سويًا كانت منذ زمن بعيد لدرجة أن ذكرياتها قد بهتت بالفعل.

رغت إيما شعرها بشامبو الفندق ولم يسعها إلا أن تأمل ألا تبدو مثل كلب "بودل" في الصباح التالي. قد يكون شعرها البني قويًا، لكنه يُصاب بالحساسية من المنتجات المقلدة. تطلب الأمر تجارب عديدة ودموعًا كثيرة حتى اكتشفت ما يجعل شعرها يلمع وما يحول رأسها إلى وسادة أريكة ممزقة.

شطفت إيما شعرها، وأزاحت ستارة الحمام جانبًا، وبينما كانت تتساءل لمَ لم يقم فندق باهظ كهذا بتركيب أبواب زجاجية جرارة، عجزت فجأة عن التفكير بأي فكرة واضحة أخرى.

ما شعرت به كان الخوف.

أول ما تبادر إلى ذهنها حين رأت الحروف كان: اهربي!

الحروف على مرآة الحمام.

بأحرف مكتوبة بعناية، وعبر الزجاج المغطى بالبخار، قُرئت العبارة:

اخرجي.

قبل فوات الأوان!

الفصل الثالث

– "نعم؟"

– "أعتذر عن الإزعاج. هل كل شيء على ما يرام؟"

بدت المرأة الروسية الطويلة والنحيلة الواقفة عند الباب قلقة بصدق. ومع ذلك، لم تبدُ المتحدثة – بلكنة غير متقنة – لإيما كشخص يضطرب بلا سبب من أجل الآخرين. بل بدت أقرب إلى عارضة أزياء تدرك تمام الإدراك جمالها، وتتعامل مع نفسها بوصفها مركز العالم. كانت ترتدي بدلة مصمَّمة بعناية تُبرز مفاتنها، وتفوح منها رائحة «شانيل»، وتستند برشاقة فوق حذاء ذي كعبٍ عالٍ باهظٍ بصورة مفرطة، كعبٍ كان سيُتيح حتى لإيما أن تنظر إلى الآخرين من علٍ.

قالت إيما بضيقٍ لأنها اضطُرت إلى فتح الباب:

– "مَن أنتِ؟"

كانت تقف الآن وجهًا لوجه أمام حسناء سلافية، بينما هي حافية القدمين، بشعر مبتل يقطر ماءً، ولا يسترها سوى كيمونو الفندق الذي ارتدته على عجل. كان القماش رقيقًا إلى حدٍّ يجعل كل منحنى من جسدها العاري – الذي كان أبعد ما يكون عن الكمال مقارنة بجسد المرأة الروسية – يُوشك أن يشفّ من تحته.

– "أعتذر. الجدران رقيقة للغاية."

أزاحت المرأة خصلة من شعرها الأشقر المستعار عن جبينها.

ثم تابعت قائلة:

– "سمعتُ صراخًا. فجئتُ أطمئن."

قالت إيما ببرود:

– "سمعتِ صراخًا؟"

في الواقع، كل ما تذكرته إيما هو شعورها بالإغماء؛ جزئيًا بسبب الرسالة المخيفة على المرآة، ومن المؤكد أيضًا أن حمام الماء كان ساخنًا أكثر مما ينبغي.

كلاهما سحب البساط من تحت قدميها بالفعل. في البداية أمكنها التمسك بحافة الحوض، لكنها ما لبثت أن انهارت على الأرضية المبلطة، ومنها حدقت في الكتابة:

اخرجي.

قبل فوات الأوان!

قالت المرأة الروسية:

– "سمعتُ بكاءً أيضًا."

ردت إيما:

– "لا بد أنكِ أخطأتِ السمع."

مع أنه كان من المحتمل تمامًا أن سقوطها صاحبه انهمار للدموع؛ فعيناها لا تزالان تحترقان. لقد أيقظت تلك الرسالة على المرآة أحلك ذكريات طفولتها.

الخزانة.

الأبواب التي تئن.

الرجل المختبئ خلفها مرتديًا خوذة دراجة نارية.

آرثر.

الشبح الذي قَضَت معه ليالي لا تُحصى؛ بدأ وحشًا، ثم صار صديقًا... إلى أن "شُفيت" في العاشرة من عمرها، رغم أن هذا المفهوم لا وجود حقيقيًا له في العلاج النفسي. بعد جلسات عديدة، نجح طبيب الأطفال النفسي الذي لجأت إليه إيما في طرد ذلك الشيطان؛ من خزانتها ومن رأسها في آنٍ واحد، وجعلها تدرك المسؤول الحقيقي عن تلك الهلاوس.

أبي.

منذ تلك الرحلة العلاجية — التي حرّضت شغفها الأول بمهنة العلاج النفسي — أدركت إيما أنه لم يكن هناك شبح قط. ولا آرثر. كان والدها فقط؛ ذاك الذي نبذته وخافته طوال حياتها، ومع ذلك تمنّت لو أحبّته حليفًا قريبًا. حليفًا لها وحدها. حاضرًا دائمًا. يمكنها الاحتماء به حتى في ظلمة الخزانة.

لكن والد إيما لم يكن صديقًا قط. لا في طفولتها، ولا أثناء دراستها، وبالتأكيد ليس الآن وهي طبيبة نفسية متزوجة. كان عمله دائمًا الأهم: ملفاته، وشهوده، وقضاياه. يغادر المنزل فجراً، ويعود متأخرًا للغاية عن موعد العشاء... أو لا يعود إطلاقًا.

وبرغم أنه تقاعد منذ مدة، فإنه بالكاد استطاع أن يرسل بطاقة تهنئة في عيد ميلادها. وحتى تلك البطاقة — تجزم إيما — كانت بإلحاح من «ماما»، التي يعيش معها الآن في مايوركا. عبارات مثل: «أفتقدكِ» أو «آمل أن نقضي وقتًا أطول هذا العام» لا وجود لها في قاموس رجل سريع الغضب مثله. كان الأرجح أن يكتب:

"اخرجي فورًا، وإلا سأؤذيكِ."

والآن، كُتب تهديد مشابه بخط عريض فوق مرآة حمامها في الفندق.

هل يمكن أن يكون هذا صدفة؟

بالطبع.

قبل أن تُطرق بابها، كانت إيما قد توصّلت بالفعل إلى تفسير منطقي للحادثة.

خدعة!

النزيل السابق لا بد أنّه خربش بأصابعه على المرآة الجافة ليرعب من يأتي بعده. وقد نجح.

نجح لدرجة جعلتها تصرخ حتى كادت توقظ الفندق كله. لا شك أن صاحب المزحة كان سيُصدم لو رأى عنف ردّ فعلها، لكنه لم يكن ليتخيل أن الكلمات ستوقظ صدمة قديمة دفينة.

في تلك الليلة، لم تكن كلمات والدها هي ما أفقدها صوابها، بل خروج آرثر لأول مرة من الخزانة: خوذة الدراجة النارية، الإبرة، صوته... كل شيء بدا حقيقيًا بصورة مرعبة.

ولا يزال يبدو كذلك أحيانًا في ذاكرتها.

سألتها المرأة:

— "هل أنتِ بخير؟"

حدقت في إيما بمزيج من القلق والصبر، ثم قالت شيئًا كان لطيفًا ومروعًا في آن، ولم تعرف إيما هل تضحك أم تبكي:

— "هل سبّب لكِ أحد النزلاء المتاعب؟"

يا إلهي.

بالطبع.

إنها مرافِقة لأحد النزلاء.

وهذا يفسر اكتمال زينتها. نصف المشاركين في المؤتمر يقيمون في «لو زين»؛ الفندق يعج برجال يسكنون غرفًا منفردة. كم منهم استدعى مرافقة لهذه الليلة؟ رجال منحطّون مثل شتاودر—ميرتنز بالتأكيد؛ ممن يغتنمون كل فرصة بعيدًا عن زوجاتهم وأسرهم.

– "هل تحتاجين مساعدة؟ أستطيع..."

– "لا، لا. هذا من لطفكِ، ولكن..."

هزت إيما رأسها.

... لكنها لم تكن مرافقة. إنها فقط طبيبة نفسية مرهقة.

كان لطيفًا أن ترغب المرأة في مساعدتها، ومفجعًا أن يبدو الأمر مألوفًا لديها إلى هذا الحد؛ مرافِقات يتعرضن للضرب، ويندفعن إلى البكاء على أرضيات حمّامات الفنادق.

ابتسمت إيما، لكنها لم تظن أن ابتسامتها كانت مقنعة. ورأت في عيني المرأة الداكنتين أن شكوكها لم تتبدد، فقررت إيما إخبارها بالحقيقة.

– "لا تقلقي. أنا وحدي هنا. لكنني ظننت أن أحدهم تسلل إلى الغرفة وراقبني خلسة أثناء استحمامي."

– "متطفل؟"

– "نعم، لكنها كانت مجرد مزحة سخيفة من النزيل السابق."

– "حسنًا."

ورغم أن المرافقة لم تبدُ مقتنعة، فإنها هزت كتفيها، وألقت نظرة على ساعة «رولكس» في معصمها، ثم غادرت وهي تنطق جملتها الأولى سليمة نحويًا:

– "احترسي، لا يصيبكِ سوء."

لا بد أنها سمعت هذه الجملة كثيرًا من زميلاتها.

شكرتها إيما وأغلقت الباب. ومن خلال العين السحرية رأت المرأة تشق طريقها عبر الرواق إلى اليمين.

كانت المصاعد في الجهة المعاكسة، مما يعني أن «موعدها» قريب للغاية.

بقلب يخفق بشدة، أحكمت إيما غلق الباب بكل الأقفال والمزاليج. وحينها فقط شعرت بمدى إنهاكها. أولًا المحاضرة، ثم المرآة، والآن الحوار مع المرافقة الروسية. كانت تحتاج إلى الاسترخاء. إلى النوم. خصوصًا في أحضان فيليب.

لماذا لم يستطع أن يكون هنا ليضحكا معًا على هذا الموقف العبثي؟

خطرت لها لوهلة فكرة الاتصال بأقرب صديقيها — سيلفي أو كونراد — لتُشتت ذهنها قليلًا، لكنها علمت أن كليهما في موعدٍ غرامي. ليس معًا بالطبع، فكونراد مثلي.

وحتى لو تمكنت من الوصول إلى أحدهما، ماذا ستقول؟

«أشعر ببعض القلق لأن مرآتي غطاها البخار»؟

لقد كانت بالفعل مغطاة بالبخار؛ اكتشفت هذا عندما عادت إلى الحمام لتنظيف أسنانها.

تلاشى البخار، وتلاشت معه رسالة المزحة.

وكأنها لم تكن موجودة قط.

الفصل الرابع

تسمرت إيما في مكانها.

لم يتبقَ من بخار الماء المتكاثف سوى خطوط خلفت حواف قبيحة على الزجاج الفضي. مسحت البقع بقطعة قماش دون تفكير، لكنها شعرت فورًا بالانزعاج لأنها لم تنفخ أنفاسها على المرآة لتعيد الرسالة إلى الحياة.

ثم شعرت بالانزعاج لأنها لم تعد واثقة من نفسها.

همست ورأسها مضغوط في المنشفة:

— "ما خطبك بحق السماء يا إيما؟"

لم أتخيل تلك الرسالة. كانت مجرد مزحة سخيفة. لا داعي للتوتر.

أطفأت إيما ضوء الحمام دون أن تلقي نظرة أخرى على المرآة. علقت الكيمونو في الخزانة واستبدلته ببيجاما. لكنها لم تستطع مقاومة دافع الارتياب الذي حثها على تفقد الخزانة بحثًا عن مخابئ سرية (لم يكن هناك أي منها). وبما أنها كانت واقفة بالفعل، ألقت نظرة خلف السرير، وفحصت الستائر، وجربت الأقفال مرة أخرى. كل ذلك تحت أنظار آي ويوي، الذي صُورت عيناه بطريقة تجعلهما تلاحقان إيما أينما تحركت في الغرفة.

كانت تدرك أن هذا كله نشاط إزاحة لتفريغ التوتر، لكنها شعرت بتحسن لاستسلامها لأعراض قلقها غير العقلاني.

عندما زحفت أخيرًا تحت أغطية السرير المنشاة حديثًا بعد «دورية التفتيش»، شعرت إيما بالثقل والإنهاك. حاولت لمرة أخيرة الاتصال بـ فيليب وتركت رسالة على بريده الصوتي تقول: «احلم بي عندما تستمع لهذا». ضبطت إيما المنبه وأغمضت عينيها.

وكما يحدث غالبًا حين تكون مفرطة التعب ولكن منهكة الأعصاب تمامًا، ملأت أضواء وظلال راقصة الظلام الذي أرادت أن تغرق فيه.

وبينما كانت تنجرف نحو النوم، سألت إيما نفسها وسط ذكرى ضبابية لمحاضرتها: لماذا قلتِ ذلك؟

لماذا قلتِ إنكِ كنتِ المريضة التي تُعذب في الفيديو؟

لم تكن تلك نيتها أبدًا، لقد تصرفت فقط بدافع الانفعال لأن شتاودر—ميرتنز، ذلك التيس العجوز النرجسي من كولونيا، قد ضايقها.

هل لديكِ دليل آخر غير إفادة هذه المريضة المزيفة؟

نعم، لدي.

والآن خرج السر للعلن. أساليب صادمة لا داعي لها.

تقلبت إيما على جنبها وحاولت طرد صور حشد الرجال المستمعين في مركز المؤتمرات. شعرت بوخز في أذنها لأنها نسيت نزع قرطيها اللؤلؤيين.

سألت نفسها: لماذا تفعلين أشياء كهذه دائمًا؟

وكما يحدث غالبًا في المنطقة الفاصلة بين اليقظة والحلم، تساءلت لمَ تطرح هذا السؤال وماذا تقصد بكلمة «دائمًا» حقًا، وبينما هي عالقة في هذه الحلقة التحليلية، حدث الأمر فجأة.

لقد نامت.

لفترة وجيزة.

لم تدم حتى دقيقتين.

إلى أن أيقظها الضجيج.

الطنين.

في الظلام.

قريبًا جدًا، بجوار سريرها مباشرة.

انقلبت إيما إلى الجانب الآخر، وفتحت عينيها ورأت ضوء هاتفها المحمول. كانت قد وضعته على الأرض لأن سلك الشحن لم يكن طويلاً بما يكفي ليصل من المقبس إلى الطاولة الجانبية. كان التقاط الهاتف من السجادة أمرًا شاقًا بعض الشيء.

المتصل غير معروف.

قالت، آملة أن يكون فيليب يتصل من هاتف مكتبي ما:

— "حبيبي؟"

— "السيدة دكتورة شتاين؟"

لم تسمع صوت هذا الرجل من قبل. امتزج انزعاجها بخيبة الأمل لعدم سماع صوت فيليب. من بحق الجحيم يتصل بها في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

تثاءبت قائلة:

— "آمل أن يكون الأمر مهمًا."

— "أعتذر بشدة على إزعاجك. معك السيد آيغنهارت من استقبال فندق لو زين."

على هاتفي المحمول؟

— "نعم؟"

— "أردنا فقط التأكد مما إذا كنتِ ستسجلين دخولك هذا المساء."

— "ماذا؟"

تحسست إيما عبثًا مفتاح المصباح الجانبي.

— "ماذا تعني بـ (تسجلين دخولك)؟ أنا نائمة بالفعل."

أو تحاول ذلك على الأقل.

— "إذًا لا بأس إن أعطينا الغرفة لشخص آخر؟"

ألا يسمعني جيدًا؟

— "لا، اسمعني. لقد سجلت دخولي بالفعل. غرفة 1904."

— "أوه، أرجو أن تتقبلي خالص اعتذاري، ولكن..."

بدا موظف الاستقبال مشوشًا.

سألت إيما:

— "لكن ماذا؟"

— "لكننا لا نملك غرفة بهذا الرقم."

ماذا؟

اعتدلت إيما جالسة في السرير وحدقت في الضوء الصغير الوامض في كاشف الدخان المثبت بالسقف.

— "هل تمزح معي؟"

— "لا يوجد لدينا رقم أربعة واحد في الفندق. إنه رقم يتشاءم منه أهل الشرق الأقصى، ولذلك..."

لم تسمع إيما بقية الجملة لأن هاتفها لم يعد في يدها.

بدلاً من ذلك، سمعت شيئًا غير ممكن الحدوث. بجوار أذنها مباشرة.

رجل يتنحنح.

وبينما انقبض حلقها من الخوف، شعرت بالضغط على فمها.

تذوقت طعم القماش.

وُخزت إيما بشيء ما، ثم شعرت بسائل بارد ينساب في ثنية ذراعها عبر موضع الوخز.

تنحنح الرجل مرة أخرى، وعندما تيقنت أنها تتجمد من الداخل، استشعرت الشفرات.

غير مرئية في الظلام، لكنها قريبة بشكل لا لبس فيه من وجهها لأنها كانت تهتز.

ززززززز.

سكين نحت كهربائي، أو منشار، أو مفتاح زجاجات كهربائي.

مستعد لطعنها، أو تشريطها، أو ثقبها.

سمعت صوت سحاب يُفتح.

أرادت أن تصرخ: أنا حامل! لكن لسان إيما وشفتيها خذلوها.

تسمرت عاجزة عن الصراخ أو الرفس أو التخبط.

لم تملك سوى الانتظار واكتشاف أين ستشعر بالألم أولاً.

والدعاء بأن ينتهي هذا الرعب قريباً.

ولم ينتهِ.

الفصل الخامس

بعد ستة أشهر

فتحت إيما عينيها، وتساءلت كم من الوقت ظل الشخص المقابل لها يراقبها وهي نائمة.

كان البروفيسور كونراد لوفت يجلس على كرسيه المعتاد، عاقدًا يديه أمام بطنه، ونظرته المفكرة تستقر على وجهها بعبء حزين.

سأل:

– "هل أنتِ بخير؟"

لم تفهم في البداية ما الذي يرمي إليه صديقها المقرب، لكنها لاحظت بعدها الطاولة الجانبية بجوار سريرها. كان عليها الأقراص التي أُعطيت لها في المصحة النفسية، حيث أودعها القاضي في الوحدة المغلقة.

تحسباً لأي طارئ.

تحسباً لشعورها بالألم فور استيقاظها.

مددت أطرافها تحت الأغطية وحاولت بكوعيها أن ترفع جسدها في سرير المستشفى. ولما خارت قواها، هوت مجددًا على الوسادة وفركت عينيها.

كانت قد نامت طوال رحلة الطريق، وهو أمر ليس بالمستغرب بالنظر لكل تلك الحبوب التي أُعطيت لها. الآثار الجانبية وحدها كانت كفيلة بإطاحة أقوى فيل، وفوق ذلك حُقنت بمهدئ.

بعد الاستيقاظ، استغرق الأمر بعض الوقت لتتعرف على محيطها. الغرفة التي قضت فيها ساعات طويلة في الماضي بدت غريبة، وإن لم تكن بغرابة الوحدة المغلقة التي لم تغادرها طوال الأسابيع القليلة الماضية.

ربما يعود هذا الشعور الغريب إلى أن كونراد جدد مكتبه مؤخرًا، لكن إيما شكت في ذلك.

لم تكن الغرفة هي التي تغيرت جذريًا، بل هي.

رائحة الطلاء وأرضية الجوز المدهونة بالزيت حديثًا لا تزال عالقة في الهواء، وبعض قطع الأثاث حُركت من أماكنها أثناء إعادة الديكور، لكن في المجمل، كل شيء كان كما في زيارتها الأولى قبل عشر سنوات تقريبًا. حينها، كانت تتهالك على الأريكة مرتدية حذاءً رياضيًا وبنطال جينز. اليوم، كانت ترتدي ثوب نوم على سرير مستشفى قابل للتعديل، في منتصف الغرفة تقريبًا. بزاوية مائلة قليلاً، تطل على مكتب كونراد والنافذة خلفه.

قالت:

— "أراهن أنني أول زبونة لك يتم إدخالها إلى هنا على سرير مستشفى."

ابتسم كونراد برفق:

— "كان لدي بعض الزبائن الذين تعذر نقلهم فذهبت إليهم. لكن في المصحة رفضتِ كل تواصل يا إيما. لم تكوني تتحدثين حتى مع الأطباء. لذا حصلت على إذن قضائي استثنائي."

— "شكرًا لك."

قالتها رغم أنه لم يعد هناك شيء في الحياة يستحق الامتنان. ولا حتى حقيقة أنه سُمح لها بمغادرة زنزانتها.

لقد رفضت استقبال كونراد في المؤسسة. لم تكن لتقبل أن يراها أحد بتلك الحال. مريضة ومحطمة هكذا. محبوسة كحيوان. الإذلال كان أكبر من أن يُحتمل.

هز كونراد رأسه، لكن عينيه لم تحمل أي استهجان:

– "لم تفقدي شيئًا من كبريائك يا عزيزتي إيما. تفضلين الذهاب بحرية إلى السجن على أن تسمحي لي بزيارتك. ومع ذلك، أنتِ الآن بحاجة لمساعدتي أكثر من أي وقت مضى."

أومأت إيما.

«كل شيء يعتمد على كيفية سير المحادثة مع محاميكِ.»

هكذا أخبروها. الأطباء النفسيون ورجال الشرطة، الذين لابد أنهم ينتظرون في الخارج لإعادتها.

هل يملك كونراد حقًا القدرة على تغيير قدرها؟ كاتم أسرارها العجوز، رغم أن كلمة «عجوز» وصف خاطئ لرجل رياضي، يكاد يكون مفتول العضلات، في الثامنة والخمسين. التقت به إيما في الفصل الدراسي الأول لدراستها الطبية؛ بدا اسمه مألوفًا بغرابة. لاحقًا فقط تذكرت السبب. والدها وكونراد لوفت كانا زميلين وتعاونا معًا في قضايا قرأت عنها إيما في الصحف.

لكن القضية التي جمعتها بـ كونراد لم تصل للصحف.

صديق إيما السابق، بينيديكت تانهاوس، كان قد أفرط في الشراب وضايقها في حانة قرب الجامعة. كونراد، الذي اعتاد تناول عشائه هناك، رأى الشاب يتحرش بها فتدخل بحزم. بعدها أعطى إيما بطاقته في حال

احتاجت لمساعدة قانونية، وهو ما حدث بالفعل إذ تبين أن حبيبها السابق مطارد عنيد.

كان بإمكان إيما طلب مساعدة والدها بالطبع، لكن ذلك كان سيعني استبدال رجل مسيء بآخر. ورغم أن والد إيما لم يعتدِ عليها جسديًا قط كما فعل بينيديكت، إلا أن مزاجه ونوبات غضبه الجامحة ازدادت سوءًا عبر السنين، وكانت سعيدة بتجنب التواصل معه منذ انتقلت لسكن الطلاب. كان لغزًا كاملًا بالنسبة لها كيف تمكنت والدتها من الصبر على العيش مع والدها.

توطدت صداقتهما خلال العملية الطويلة التي استصدر بها كونراد أمرًا قضائيًا ضد بينيديكت. في البداية ظنت إيما أن اهتمام كونراد بها مدفوع بأسباب أخرى، وفي الحقيقة شعرت بانجذاب كبير لسحره الأبوي، رغم فارق السن الكبير. وكما في الماضي، لا يزال كونراد يخفي ذقنه البارزة تحت لحية مشذبة بدقة، ويرتدي بدلة زرقاء داكنة مزدوجة الصدر مفصلة خصيصًا، مع حذاء «بودابست» محاك يدويًا. شعره المجعد بات أقصر قليلاً الآن، لكنه لا يزال يتدلى فوق جبهته العالية، وأدركت إيما تمامًا لماذا تتصل السيدات المسنات الثريات بهذا المحامي كثيرًا. لم يخطر ببالهن أنه رغم حبه للنساء، إلا أنهن لا مكان لهن في خيالاته العاطفية. كانت مثلية كونراد سرًا شاركه مع إيما منذ أصبحا صديقين.

لم تخبر حتى فيليب عن ميول كونراد، ولو لأسباب أنانية، كما اضطرت للاعتراف سرًا. فبسبب مظهره وجاذبيته، كان فيليب هدفًا دائمًا لتوددات نسائية لم يعد يلحظها حتى، مثل نادلة لطيفة تعرض عليه أفضل طاولة في المطعم، أو حصوله على أرق ابتسامة في طابور السوبر ماركت.

لهذا كان من الجيد لإيما أحيانًا أن يبدي زوجها غيرته، كلما اتصل كونراد مرة أخرى ليدعوها لتناول الغداء. فليدع فيليب يظن أن لها معجبين هي الأخرى.

حافظ كونراد على سرّه ليتجنب تشويه سمعته كمحامٍ فحل وصارم. وكان يظهر بانتظام في المناسبات الرسمية بصحبة طالبات قانون حسناوات.

قال لإيما مبررًا تكتمه:

— "أن أكون العازب الأبدي غير القادر على الارتباط، خير لي من أن أكون (الشاذ) في قاعة المحكمة."

وهكذا، كانت الأرامل المغامرات ذوات التسريحات المتقنة يُبدين خيبة أملهن حين يخبرهن كونراد أنه لا يتولى سوى القضايا الجنائية لا قضايا الطلاق، وأنه حتى في مجال اختصاصه، لا يختار إلا القضايا الأكثر إثارة، والتي غالبًا ما تبدو ميئوسًا منها.

مثل قضيتها.

قالت إيما:

— "شكرًا لمساعدتي."

كانت عبارة مبتذلة، لكنها كانت تؤدي واجبها وتكسر حاجز الصمت.

— "مجددًا."

لقد أصبحت الآن موكلته للمرة الثانية، بعد قضية المطاردة.

منذ تلك الليلة في الفندق، حين وقعت ضحية لمجنون. قاتل متسلسل، كمن لثلاث نساء في غرف الفنادق، ثم حلق رؤوسهن بآلة حلاقة كهربائية.

... بعد أن اغتصبهن بوحشية...

لم تكن الساعات التي قضتها إيما لاحقًا في المستشفى بأفضل حالاً من الاغتصاب ذاته. فما إن استعادت وعيها الكامل حتى عاد غريب ليعبث بفتحات جسدها. مرة أخرى شعرت بأصابع اللاتكس في مهبلها وبأدوات

لأخذ مسحات كأدلة. لكن الأسوأ من ذلك كله كانت الأسئلة التي طرحتها عليها شرطية شيباء ذات وجه خالٍ من التعبير.

– "أين تم اغتصابك؟"

– "في فندق لو زين. غرفة 1904."

– "لا توجد غرفة بهذا الرقم في الفندق يا سيدة شتاين."

– "أخبروني بذلك هناك أيضًا، لكن هذا مستحيل."

– "من سجل دخولك؟"

– "لا أحد. أُعطيت بطاقة المفتاح مع وثائق المؤتمر الخاصة بي."

– "هل رآكِ أحد في الفندق؟ أي شهود؟"

– "لا، أعني نعم. امرأة روسية."

– "هل تعرفين اسمها؟"

– "لا."

– "ما رقم غرفتها؟"

– "لا، إنها..."

– "ماذا؟"

– "لا يهم."

– "حسنًا. هل يمكنك وصف المعتدي؟"

– "لا، كان الظلام دامسًا."

– "لم نتمكن من العثور على أي جروح دفاعية."

– "كنت مخدرة. أتوقع أن يكشف فحص الدم عن نوع المخدر.

شعرت بوخز."

– "هل حلق المعتدي رأسك قبل الإيلاج أم بعده؟"

– "أتعنين قبل أن يحشر قضيبه في فرجي؟"

– "اسمعي، أنا أتفهم مدى انزعاجك."

– "لا، أنتِ لا تفهمين."

– "حسنًا، لكن أخشى أن علي طرح هذه الأسئلة رغم ذلك. هل استخدم المعتدي واقيًا ذكريًا؟"

– "على الأرجح، ما دمتِ تقولين إنكم لم تعثروا على أي حيوانات منوية."

– "ولا أي إصابات مهبلية كبيرة. هل تغيرين شركاءك الجنسيين بشكل متكرر؟"

– "أنا حامل! هل يمكننا تغيير الموضوع أرجوكِ؟"

– "طيب. كيف وصلتِ إلى محطة الحافلات؟"

– "عفوًا؟"

– "محطة الحافلات في فيتنبيرغ بلاتز. حيث تم العثور عليكِ."

– "لا فكرة لدي. لابد أنني فقدت الوعي في مرحلة ما."

– "إذًا أنتِ لا تعلمين يقينًا أنكِ تعرضتِ للاغتصاب؟"

– "المجنون حلق شعري. مهبلي يحترق وكأن شخصًا نكشه بعصا صاعقة للماشية. ماذا تظنين أنه حدث لي؟"

سؤال الأسئلة كلها.

تذكرت إيما كيف أحضرها فيليب إلى المنزل بسيارة أجرة ومددها على الأريكة.

قال لها:

– "كل شيء سيكون على ما يرام."

أومأت وطلبت منه إحضار سدادة قطنية. واحدة كبيرة للتدفق الغزير، في الجزء الخلفي من خزانة الحمام. كانت إيما قد بدأت تنزف في سيارة الأجرة.

كانت تلك المرة الأولى التي يبكيان فيها معًا.

والمرة الأخيرة التي تحدثا فيها عن الأطفال.

في اليوم التالي، أشعلت إيما شمعة للطفل الذي لم يولد. وقد انطفأت منذ زمن بعيد.

سعلت إيما في كف يدها وحاولت تشتيت نفسها عن هذه الذكريات القاتمة بترك نظرها يجول في مكتب كونراد.

الرفوف الممتدة من الأرض إلى السقف، التي لم تكن تضم فقط مجلدات أحكام المحكمة الاتحادية العليا المغلفة بالجلد، بل أيضًا أعمال كونراد المفضلة لـ شوبنهاور، بدت أكثر انخفاضًا قليلاً، ربما بسبب طبقات الطلاء الجديدة التي جعلت الغرفة تبدو أصغر. وبالطبع كان المكتب الضخم في مكانه، أمام النوافذ المربعة تقريبًا التي تمنحك في الأيام الصافية إطلالة عبر بحيرة فانزي وصولاً إلى سبانداو. اليوم لم يكن بوسعها الرؤية إلا حتى الممشى على ضفة البحيرة، حيث كان بضعة مشاة يكافحون للسير وسط ثلوج ديسمبر التي غطت كواحلهم.

فجأة صار كونراد بجوار سريرها، وشعرت إيما به يمسد ذراعها برفق.

قال وهو يمسح على رأسها:

— "دعيني أجعلكِ مرتاحة أكثر."

شمت رائحة عطر ما بعد الحلاقة اللاذع وأغمضت عينيها. حتى فكرة أن يلمسها رجل كانت تثير فيها شعورًا بالاشمئزاز طوال الأشهر القليلة الماضية. لكنها سمحت لـ كونراد أن يلف ذراعيه حول جسدها ويحملها من السرير إلى الأريكة بجوار المدفأة.

قال بينما كانت تغوص في الوسائد الوثيرة، نصف جالسة ونصف مستلقية:

— "هذا أفضل."

ثم غطاها بعناية ببطانية من الكشمير الكريمي.

وكان محقًا. كان الوضع أفضل. شعرت بالأمان؛ كل شيء هنا مألوف. منطقة الجلوس المقابلة مع المقعد المجنح الذي عاد إليه كونراد. طاولة القهوة الزجاجية بينهما. وبالطبع السجادة الدائرية عند قدميها. خيوط بيضاء منفوشة داخل إطار أسود بدت وكأنها ضربة فرشاة تتلاشى في اتجاه عقارب الساعة. من الأعلى، كانت السجادة تبدو كحرف "O" رُسم على عجل. كم أحبت إيما الاستلقاء فوق هذا الـ "O" في الماضي والتحديق في نار المدفأة الغازية وهي تستغرق في أحلام اليقظة. كم شعرت بالسعادة حين تناولا السوشي معًا. وكم شعرت بالأمان والطمأنينة حين ناقشا مشاكل العلاقات، والإخفاقات، والشك في الذات، وحين كان يسدي إليها النصائح التي تمنت طوال حياتها أن تسمعها من والدها.

على مر السنين، بهتت الخيوط السوداء للسجادة قليلاً واكتست بمسحة بنية.

الزمن يدمر كل شيء، فكرت إيما وهي تشعر بدفء النار يلفح وجهها، رغم أن الشعور الدافئ الذي كان ينتابها دائمًا عند زيارة كونراد ظل غائبًا.

لا عجب — فهذه لم تكن زيارة في نهاية المطاف.

بل لقاء ضروري لبقائها على قيد الحياة.

سألت:

— "كيف حال سامسون؟"

أجاب كونراد:

— "بخير حال."

وصدقته إيما. كان دائمًا بارعًا في التعامل مع الحيوانات. الكلب في أيادٍ أمينة معه — بينما هي محبوسة.

كان فيليب قد أهداها كلب الهاسكي ناصع البياض ذو الشعر الرمادي الأسود الأشعث بعد وقت قصير من تلك الليلة في الفندق.

قالت بدهشة حين ناولها المقود لأول مرة:

— "كلب زلاجات؟"

أصر فيليب:

— "سيخرجكِ من هناك."

وكان يقصد «المكان البائس» الذي علقت فيه نفسيًا.

حسنًا، لقد كان مخطئًا، وحسبما تبدو الأمور، سيضطر سامسون للعيش بدون صاحبته لفترة أطول بكثير.

وربما للأبد.

سألت إيما، آملة أن يقول كونراد لا، وينهض ويتركها وحدها:

— "هل نبدأ؟"

وهو ما لم يفعله بالطبع.

قال «أفضل مستمع في العالم»، كما وصف صحفي ذات مرة المحامي النجم في بورتريه صحفي:

— "نعم، لنبدأ."

ربما كانت تلك أعظم نقاط قوته.

هناك أناس يمكنهم القراءة بين السطور. أما كونراد فكان بوسعه السمع بين الجمل.

هذه القدرة جعلته واحدًا من القلائل الذين تستطيع إيما أن تفتح قلبها لهم. كان يعرف ماضيها، وأسرارها، وكل شيء عن خيالها الجامح. أخبرته عن آرثر وعلاجها النفسي، الذي اعتقدت أنه حررها من الأصدقاء الخياليين والرؤى الأخرى. والآن لم تعد واثقة من ذلك البتة.

— "لا أظن أنني أستطيع يا كونراد."

– "يجب عليكِ ذلك."

بدافع عادة قديمة تمتد لعقود، تحسست إيما خصلة شعر لتلفها حول أصابعها – لكن شعرها كان أقصر بكثير من أن يُلف.

مرت ستة أشهر تقريبًا، لكنها لم تعتد بعد على فكرة أن شعرها الطويل، الذي كان رائعًا يومًا ما، قد اختفى. رغم أنه نما بالفعل ستة سنتيمترات.

رمقها كونراد بنظرة ثاقبة جعلتها تضطر لتحويل عينيها عنه.

– "لا يمكنني مساعدتكِ بطريقة أخرى يا إيما. ليس بعد كل ما حدث."

ليس بعد كل حالات الموت تلك. أعرف.

تنهدت إيما وأغمضت عينيها:

– "من أين أبدأ؟"

سمعته يقول:

– "بالأسوأ! عودي بذهنك إلى حيث تسبب الذكريات الألم الأكبر."

فرت دمعة من عينها ففتحتهما مجددًا.

حدقت خارج النافذة وراقبت رجلاً يأخذ كلبًا من فصيلة «ماستيف» في نزهة على الممشى. من بعيد، بدا وكأن الكلب الضخم يفتح فمه ليلتقط ندف الثلج بلسانه، لكن إيما لم تكن متأكدة. كل ما عرفته هو أنها تفضل أن تكون هناك في الخارج، مع الرجل الذي يمسك بالماستيف والثلج عند أقدامهما، والذي لا يمكن أن يكون ببرودة جوف روحها.

قالت:

– "حسنًا."

رغم أنه لم يكن هناك أي شيء «حسن» فيما سيلحق ذلك. ولن يكون أبدًا على الأرجح، حتى لو نجت من هذا اليوم، وهو ما لم تكن تعول عليه في هذه اللحظة.

– "أنا فقط لا أعرف ما الفائدة من ذلك. أعني أنك كنت حاضرًا أثناء الاستجواب."

على الأقل خلال الجلسة الثانية. كانت قد أدلت بإفادتها الأولى وحدها، لكن مع ازدياد شكوك أسئلة الضابطة وشعور إيما بأنها أقرب لمشتبه به منها لشاهدة، طالبت بمحاميها. وعلى عكس فيليب، الذي اضطر للقيادة طوال الليل ليصل إليها من مكان عمله في بافاريا، كان صديقها المفضل معها في المستشفى عند الواحدة والنصف صباحًا.

– "لقد راجعتَ معي إفادتي وكنتَ هناك حين وقعتُ على محضر الشرطية. أنت تعرف ما فعله «مصفف الشعر» بي تلك الليلة."

مصفف الشعر.

كيف جعلت الصحافة اسمه يبدو بريئًا هكذا. كمن يصف رجلاً يسلخ النساء بأنه «وغد».

هز كونراد رأسه:

– "أنا لا أتحدث عن الليلة في الفندق يا إيما."

رفَّت عيناها بتوتر. عرفت ما سيقوله تاليًا ودعت أن تكون مخطئة.

– "أنتِ تعرفين بالضبط سبب وجودك هنا."

كذبت إيما:

– "لا."

أراد التحدث عن الطرد، بوضوح. وعن ماذا غيره؟

كررت بنبرة أقل حدة من ذي قبل:

– "لا."

— "إيما، أرجوكِ. إذا أردتِ مني الدفاع عنكِ، فعليكِ إخباري بكل ما حدث في ذلك اليوم قبل ثلاثة أسابيع. في منزلك. لا تغفلي أي شيء."

أغمضت إيما عينيها، آملة أن تبتلعها وسائد الأريكة للأبد، كما تلتهم أوراق نبتة آكلة للحوم ذبابة، لكن ذلك لم يحدث للأسف.

ولأنه لم يكن لديها خيار آخر على الأرجح، بدأت تسرد قصتها بصوت واهن.

قصة الطرد.

وكيف أنه، مع هذا الطرد، طرق الرعب الذي بدأ تلك الليلة في الفندق باب المنزل الصغير ذي السياج الخشبي في نهاية الطريق المسدود، ووجد طريقه إلى الداخل.

الفصل السادس

قبل ثلاثة أسابيع

اخترق البرغي طبلة أذن إيما ليثقب طريقه مباشرة إلى دماغها. لم تعرف من ذا الذي أدار المثقاب الصوتي الذي راح يثقب مركز الخوف في رأسها. من يقرع جرس بابها في مثل هذا الوقت الباكر من الصباح، دافعًا إياها إلى حافة الذعر.

لم تنظر إيما يومًا إلى منزلها في "تويفيلزي—آلي" على أنه شيء مميز، رغم أنه كان المنزل المنفصل الوحيد في الحي، بينما تكونت بقية عقارات حي "هيرشتراسه" من منازل متلاصقة ساحرة تعود للعشرينيات. وإلى أن حوله فيليب إلى قلعة حصينة خلال الأسابيع القليلة الماضية، ظل منزلهما الصغير طوال قرن كامل تقريبًا غير لافت للنظر، باستثناء حقيقة أنه يمكنك التجول حوله دون أن تطأ قدمك أرض شخص آخر. كان ذلك مدعاة لسرور أطفال الحي، الذين اعتادوا في أيام الصيف الدافئة تنظيم سباقات عبر حديقته. ينطلقون عبر البوابة الخشبية المفتوحة، وعكس اتجاه عقارب الساعة يركضون فوق الممر المفروش بالحصى مرورًا برقعة الخضراوات، ثم انعطاف حاد لليسار حول الشرفة، ويسار آخر تحت نافذة المكتب، وعبر الحديقة الأمامية كثيفة النباتات ليعودوا إلى الشارع، حيث يتحتم على الفائز أن يلمس فانوس الغاز القديم ويصيح: «الأول».

اعتادوا.

في الزمن السابق.

قبل «مصفف الشعر».

الآن استبدل السياج الخشبي بدعامات معدنية ضخمة رمادية مخضرة، مثبتة في الأرض ويُفترض أنها محصنة ضد الخنازير البرية، رغم أن الخنازير البرية كانت آخر ما تخشاه إيما.

ظنت صديقتها الحميمة سيلفيا أنها مرعوبة تمامًا من الرجل الذي فعل بها تلك الأفعال الشنيعة تلك الليلة في الفندق. لكنها كانت مخطئة. بالتأكيد، كانت إيما خائفة من أن يعود الرجل ويكمل ما بدأه.

لكنها كانت تخشى نفسها أكثر مما تخشاه.

كطبيبة نفسية، كانت إيما تدرك جيدًا أعراض البارانويا الشديدة. ومن المفارقات أنها نالت درجة الدكتوراه في هذا الموضوع، وكان أحد تخصصاتها بجانب الكذب المرضي (الباثولوجي). لقد عالجت العديد من المرضى الذين تاهوا في أوهامهم. كانت تعرف كيف تنتهي قصتهم.

والأسوأ: كانت تعرف كيف تبدأ قصتهم.

مثل قصتي.

بينما لا يزال الرنين الحاد يدوي في أذنيها، تسللت إيما إلى الباب الأمامي بصحبة سامسون، الذي انتزعه صوت الجرس من نومه. شعرت وكأنها لن تصل أبدًا.

كان قلب إيما يركض ماراثونًا. وساقاها تكادان تتسمران في مكانهما.

زائر؟ في هذه الساعة؟ الآن تحديداً، بعدما غادر فيليب؟

دس سامسون أنفه خلف ركبتيها، وكأنه يشجعها على المضي قدمًا ويقول: «هيا، الأمر ليس بتلك الصعوبة».

لم يكن يزمجر أو يكشر عن أنيابه كما يفعل عادةً حين يكون غريب عند الباب.

مما يعني أنها لم تكن في خطر على الأرجح.

أم كانت كذلك؟

أرادت إيما فقط أن تنفجر في البكاء هنا والآن في الردهة. البكاء — هوايتها المفضلة في الوقت الحالي. طوال المئة وثمانية وخمسين يومًا، واثنتي عشرة ساعة، وأربع عشرة دقيقة الماضية.

منذ قَصَّة شعري الجديدة.

تحسست الشعر فوق جبهتها. تحسست كم نمت الخصلات مجددًا. كانت قد فعلت ذلك عشرين مرة اليوم بالفعل. خلال الساعة الماضية.

اقتربت إيما من باب السنديان الثقيل وأزاحت الستارة الصغيرة عن لوح الزجاج بحجم الكف المثبت في الخشب عند مستوى الرأس.

وفقًا للسجل العقاري، يقع شارع "تويفيلزي—آلي" في منطقة "ويست إند"، لكن مقارنة بالفيلات التي تشتهر بها هذه المنطقة الراقية، بدا منزلها الصغير أشبه بوجار كلب ذي درجات.

كان يقع عند رأس دائرة الانعطاف في طريق مسدود مرصوف بالحصى، يصعب على السيارات الكبيرة المناورة فيه، ويكاد يستحيل ذلك على الشاحنات الصغيرة. من مسافة بعيدة، بدا المنزل منسجمًا تمامًا مع الحي، بطبقة طلائه الخشنة الفاتحة، ونوافذه الخشبية ذات الطراز القديم، وسقفه القرميدي بلون الطين، ودرجات "الكلنكر" البنية المحمرة الإلزامية المؤدية إلى الباب الأمامي الذي تتلصص منه الآن.

باستثناء السياج، لم تكن التعديلات الأحدث مرئية من الخارج: مستشعرات كسر الزجاج، ونظام القفل المتحكم به لاسلكيًا، وكاشفات

الحركة في الأسقف، أو زر الذعر المثبت في الجدار والمتصل بخدمات الطوارئ، والذي كانت إيما تضع يدها عليه الآن.

الوقاية خير من العلاج.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، واليوم كئيب — بدت الغيوم الرمادية الكثيفة قريبة وكأنها تُلمس — لكن السماء لم تكن تمطر (ربما الجو أبرد من اللازم)، ولا تثلج كما فعلت بشكل شبه متواصل خلال الأيام القليلة الماضية، لذا استطاعت إيما تمييز الرجل عند البوابة بوضوح.

من بعيد بدا مثل "مطرب روك" تركي: بشرة داكنة، رأس حليق، لحية كثيفة تشبه لحى فرقة «زي زي توب»، وحلقات معدنية فضية بحجم العملة المعدنية تملأ شحمتي أذني عملاقه البالغ وزنه 120 كيلوغرامًا، كما تملأ الإطارات المعدنية عجلات السيارة. كان الرجل يرتدي قفازات زرقاء وصفراء، لكن إيما كانت تعلم أن كل إصبع بداخلها موشوم بحرف مختلف.

ليس هو! الحمد لله! فكرت، وسقط حمل هائل عن روحها. وقف سامسون بجوارها، وأذناه منتصبتان بترقب. أعطته إشارة ليفسح المجال.

ضغطت إيما الزر لتفتح البوابة وانتظرت.

بموقعه المحصور بين جبل "تويفلسبرغ" شمالاً، والعديد من الملاعب الرياضية والمدارس غربًا، وحلبة سباق "أفوس" جنوبًا، ومسارات قطار الضواحي والسكك الحديدية الاتحادية شرقًا، كان حي "هيرشتراسه" موطنًا لنحو 150 عائلة، معظمها من الطبقة المتوسطة. مجتمع ريفي في قلب المدينة الكبرى، يتمتع بكل مزايا وعيوب العيش في قرية، مثل حقيقة أن الجميع يعرف الجميع بالاسم ويعرف ما يفعلون.

حتى عامل التوصيل.

الفصل السابع

– "مرحباً يا سليم."

– "صباح الخير، يا دكتورة."

انتظرت إيما حتى صعد رجل التوصيل الدرجات القليلة قبل أن تفتح شقاً صغيراً في الباب، بقدر ما تسمح به السلسلة المعدنية من الداخل.

بجوارها، بدأ سامسون يهز ذيله، كما يفعل دوماً حين يسمع صوت عامل التوصيل.

اعتذرت إيما بصوت مبحوح:

– "آسفة لأنني تركتك تنتظر طويلاً، كنت في الطابق العلوي."

لم تعد معتادة على الكلام.

– "لا مشكلة، لا مشكلة."

وضع سليم يوزغيتش الطرد على الدرجة العليا تحت الرواق، ونفض بعض الثلج عن كعبي حذائه، ثم ابتسم وهو يخرج المكافأة المعتادة من جيب بنطاله. وككل مرة، تأكد من أن إيما لا تمانع، وككل مرة، أعطت سامسون إشارة ليلتقط قطعة بسكويت الكلاب.

سألها:

– "كيف حالكِ اليوم يا دكتورة؟"

بخير. ابتلعت للتو عشرة مليغرامات من دواء "سيبرالكس"، وقضيت الوقت من التاسعة حتى العاشرة والنصف أتنفس داخل كيس. شكراً لسؤالك.

كذبت قائلة:

– "أتحسن قليلاً يوماً بعد يوم."

وشعرت أن محاولتها لمبادلته الابتسامة كانت جهداً يائساً.

كان سليم رجلاً عطوفاً، يحضر لها أحياناً وعاءً من حساء الخضار الذي أعدته زوجته. «كي لا تخسري المزيد من الوزن». لكن قلقه على الطبيبة النفسية كان مبنياً على افتراضات خاطئة.

لمنع الجيران من تداول الشائعات الجامحة حول سبب توقف «الدكتورة» عن الخروج من المنزل، وقضائها اليوم كله برداء النوم، وإهمالها لعيادتها، أخبر فيليب السيدة التي تملك الكشك أن إيما أصيبت بتسمم غذائي حاد هاجم أعضاءها الحيوية وكاد يقتلها.

كانت السيدة كولوفسكي أكبر نمامة في الحي، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى أذني سليم، كان التسمم قد تطور إلى سرطان.

لكن كان من الأفضل أن يعتقد الناس أن إيما فقدت شعرها بسبب العلاج الكيميائي بدلاً من أن يلوكوا الحقيقة بألسنتهم. الحقيقة عنها وعن «مصفف الشعر».

لماذا يصدقها الغرباء إذا كان زوجها لا يفعل؟ بالطبع، حاول فيليب جاهدًا إخفاء شكوكه. لكنه أجرى تحقيقه الخاص ولم يجد شيئًا يذكر يدعم روايتها للأحداث.

في اللغات الصينية واليابانية والكورية الدارجة، يتشابه نطق الرقم أربعة مع كلمة «موت»، ولهذا السبب يعتبر نذير شؤم في بعض الأوساط. وفي المناطق التي تتحدث الكانتونية، يعني الرقم أربعة عشر «موتًا

محتمًا»، ولهذا السبب لم يكتفِ مالكو فندق "لو زين"، الذين ينحدرون من مقاطعة غوانغدونغ، بإلغاء أرقام الغرف المقابلة فحسب، بل ألغوا الطابقين الرابع والرابع عشر أيضًا.

حتى الشك بأن إيما قد أخطأت في رقم غرفتها لم يكن ذا جدوى كبيرة. فمن وصفها للإطلالة، كانت الاحتمالات الوحيدة هي الغرفتان 1903 و1905. وكلتاهما حُجزت طوال الأسبوع من قبل أم عزباء من أستراليا مع أطفالها الثلاثة، الذين كانوا يقضون عطلة في برلين. لم يكن في أي من الغرفتين أي أثر لاقتحام بالقوة أو اعتداء جسدي. ولم تحتوي أي منهما على صورة لـ آي ويوي، وهو أمر غير مفاجئ إذ لم توجد صورة للفنان الصيني في أي مكان بالفندق. كان هذا سببًا آخر لعدم إيلاء فريق التحقيق «قضية» إيما أولوية عالية.

ولماذا ازدادت شكوكها هي في سلامة عقلها.

كيف تلوم فيليب على شكه، في ظل قصة لا تُصدق كهذه؟ اغتصاب في غرفة فندق لا وجود لها رسميًا، والتي فتشتها بدقة قبل وقوع الهجوم المزعوم؟

ادعت إيما أيضًا أنها تعرضت للاعتداء من قبل قاتل متسلسل يشتهر بحلق رؤوس ضحاياه. لكن جميع ضحاياه حتى الآن كن عاهرات، ولم تبقَ أي منهن على قيد الحياة لتروي الحكاية. فتلك كانت سمة أخرى من سمات «مصفف الشعر»: يقتل مرافقات الليل اللواتي يكمن لهن في غرفهن.

أنا الوحيدة التي تركها تعيش. لماذا؟

لم يكن من المستغرب أن الشرطة كانت مترددة في نسب قضيتها إلى «مصفف الشعر». بين زملاء فيليب، كان يُنظر إليها كامرأة مجنونة تؤذي نفسها وتختلق قصص رعب. لكن على الأقل لم تكن الصحافة تضايقها.

وحده رجل التوصيل كان يفعل.

فتحت إيما الباب لسليم وقالت:

– "لم أتوقعك باكرًا هكذا."

ضحك رجل التوصيل:

– "لقد سقطت من السرير هذا الصباح."

منذ توقفت عن مغادرة المنزل (حتى تمشية الكلب أصبحت مهمة فيليب)، باتت تطلب توصيل العديد من الأشياء إلى بابها.

اليوم وقف سليم ومعه طرود قليلة نسبيًا. وقعت على استلام عدساتها اللاصقة؛ وأخيرًا أرسلت الصيدلية الإلكترونية مسكنات الألم؛ والصندوق الأكبر والأخف وزنًا يحتوي على الأرجح على الشباشب الدافئة التي يمكن وضعها في الميكروويف. وأخيرًا كان هناك صندوق طعامها اليومي الذي أعدت له طلبًا دائمًا مع السوبر ماركت الإلكتروني.

كان فيليب مسؤولاً عن المشروبات وجميع المواد غير القابلة للتلف مثل المعلبات والمنظفات وورق التواليت. لكن كان من الأفضل ألا تبقى الخضراوات والحليب والسمك والزبدة والخبز في سيارته حين يُستدعى فجأة، كما يحدث كثيرًا، ويعود إلى المنزل متأخرًا ساعات عما كان متوقعًا.

مؤخرًا، لم يغب لعدة أيام متصلة، كما فعل في تلك العطلة المشؤومة. ليس منذ أن شل المجنون حركة إيما بحقنة، وجردها من ملابس نومها، وجثم فوقها بكل ثقله.

في الأشهر القليلة الماضية، أصر فيليب على قضاء الليالي معها. بل كان مستعدًا لإلغاء اجتماع «أوروبا» في عطلة نهاية هذا الأسبوع، رغم كونه أهم ورشة عمل في العام. يجتمع كبار المحللين الجنائيين في جميع أنحاء أوروبا مرة واحدة فقط كل اثني عشر شهرًا لتبادل المعرفة. يومان، وفي

مدينة مختلفة كل عام. هذه المرة كان الاجتماع في ألمانيا، في فندق بباد ساروف بجانب بحيرة شارموتزلزي. حدث لا يمكن تفويته لهذه المجموعة المتماسكة من الشخصيات الاستثنائية التي تضطر لقضاء كل يوم في التعامل مع أسوأ ما يمكن للبشرية فعله — وفي هذه المناسبة حظي فيليب بشرف إلقاء محاضرة عن عمله.

قالت له إيما هذا الصباح وهي تودعه بقبلة:

— "أصر على ذهابك! إذا حدث أي شيء سأتصل بك فورًا. أعني أنك عمليًا ستعود فورا، ساعة واحدة فقط."

بينما كانت تود الصراخ في الحقيقة:

ساعة؟ لم يستغرق ذلك المجنون وقتًا أطول من ذلك ليحولني إلى حطام نفسي.

— "خطوة بخطوة عليَّ أن أنتزع نفسي من هذه الحفرة."

قالتها آملة أن يدرك أنها تردد مجرد عبارات جوفاء من دليل الطب النفسي الذي لم تعد تؤمن به. كما لم تؤمن بالكذبة الأخيرة التي ودعت بها فيليب: «سأتدبر أمري وحدي».

نعم، لمدة خمس ثوانٍ كاملة وهي تلوح له من نافذة المطبخ. ثم فقدت تماسكها وبدأت تضرب رأسها بالحائط حتى قفز سامسون عليها ومنعها من إيذاء نفسها أكثر.

قالت إيما بعد أن أخذت كل شيء من رجل التوصيل وعادت بتثاقل إلى الرواق:

— "شكرًا جزيلاً."

عرض سليم حمل الصناديق إلى المطبخ (لست بهذا السوء بعد) ثم صفع جبهته.

— "كدت أنسى. هل يمكنك استلام هذا لجارك؟"

التقط سليم طردًا بحجم علبة حذاء من الأرض. ظنت إيما أنه لا يمكن أن يكون لها، وقد كانت محقة.

— "لجاري؟"

بدأت ركبتاها بالارتجاف وهي تقيم العواقب المحتملة لهذا الطلب المروع لو كانت حمقاء لدرجة الموافقة عليه.

تمامًا كما حدث في المرة الأخيرة، حين قبلت بلطف استلام شحنة كتب لطبيب الأسنان، لتجلس ساعات في الظلام، عاجزة عن فعل أي شيء سوى التفكير المستمر في متى سيحدث الأمر. متى سيمزق الجرس الصمت ويعلن عن الزائر غير المرغوب فيه.

وبينما تزداد يداها تعرقًا وفمها جفافًا، ستظل تعد الدقائق، ولاحقًا الثواني، حتى يختفي هذا الجسم الغريب من منزلها.

لكن لم تكن تلك أسوأ فكرة تعصف بذهنها حين قرأت اسم المرسل إليه على الملصق.

السيد أ. بالانت

تويفيلزي—آلي 16أ

14055 برلين

وجود جسم غريب في منزلها شيء — قد تتمكن من التعامل معه. سيغير روتينها ويخل بتوازنها العاطفي، لكن الطرد في حد ذاته ليس مشكلة.

المشكلة كانت في الاسم.

بينما يتسارع نبضها وتزداد يداها تعرقًا مع كل ثانية، حدقت في العنوان المطبوع على الطرد ولم ترغب سوى في البكاء.

الفصل الثامن

بالانت؟

من... بحق الجحيم... هو السيد أ. بالانت؟

في الماضي لم تكن لتعير الأمر أدنى اهتمام، لكن جهلها الآن أطلق العنان لأكثر خيالاتها سوداوية، مما أفزعها لدرجة أن إيما كانت على وشك البكاء.

تويفيلزي—آلي 16أ؟

أليس ذلك في الجانب الأيسر من الشارع، على بعد ثلاثة أو أربعة منازل، عند المنعطف تمامًا؟ ألم تكن السيدة العجوز تورنوف تعيش هناك وحدها لسنوات؟ ليس...

أ. بالانت...؟

كانت تعرف الجميع في المنطقة، لكنها لم تسمع بهذا الاسم من قبل قط، مما فجر شعورًا عامًا بالعجز في داخلها.

لقد عاشت في هذا الطريق المسدود الصغير لمدة أربع سنوات الآن. أربع سنوات منذ اشتروا العقار باهظ الثمن، الذي لم يتمكنوا من تحمل تكلفته إلا لأن فيليب ورث بعض المال.

سألت إيما دون أن تلمس الطرد:

— "أتريد مني استلامه؟"

كان مغلفًا بورق بني عادي وحوافه مدعمة بشريط لاصق. حبلان من الخيش يلتفان حول الطرد مشكلين صليبًا على واجهته. لا شيء غير عادي.

باستثناء الاسم...

السيد أ. بالانت؟

قال سليم وهو يقرب يده التي تحمل الطرد منها ببطء:

— "أرجوكِ. سأدس ورقة تحت بابه لأخبره أن بإمكانه استلامه من عندك."

لا، أرجوك لا تفعل!

سأل سليم بدهشة:

— "لماذا لا؟"

لابد أنها نطق بأفكارها بصوت عالٍ.

تابع قائلاً:

— "تلك هي اللوائح، كما تعلمين. عليّ فعل ذلك. وإلا فلن يكون الطرد مؤمنًا عليه."

— "أفهم ذلك، لكنني أخشى أنني اليوم لا أستطيع..."

— "أرجوكِ يا سيدة شتاين. ستسدين إليّ معروفًا كبيرًا. مناوبتي أوشكت على الانتهاء. ولفترة طويلة جدًا، أخشى ذلك."

لفترة طويلة جدًا.

— "ماذا تعني؟"

تراجعت إيما خطوة إلى الوراء دون وعي. واستشعارًا لقلقها، اعتدل سامسون في جلسته بجوارها ونصب أذنيه.

— "لا تقلقي، لن أُطرد من العمل أو شيء من هذا القبيل. إنها أخبار سارة لي ولـ نايا وإنجين."

قالت إيما بارتباك:

— "نايا هي زوجتك، أليس كذلك؟"

— "هذا صحيح، لقد أريتك صورتها ذات مرة. حاليًا لا يوجد سوى صورة «السونار» لإنجين."

هبت نسمة باردة عبر الباب، داعبت رداء نوم إيما. فتجمدت من الداخل.

— "زوجتك... حامل؟"

الكلمة ثقلت في داخلها لدرجة أنها بالكاد استطاعت إخراجها من فمها.

حامل.

مزيج من أربعة حروف كان له معنى مختلف تمامًا اليوم عما كان عليه قبل نصف عام.

آنذاك، في الزمن السابق، كانت الكلمة تمثل حلمًا، والمستقبل، كانت رمزًا للفرح وجوهر الحياة. اليوم، صارت مجرد وصف لجرح مفتوح، وسعادة مفقودة، وحين تُنطق بخفوت تبدو شبيهة بكلمة «أبدًا» أو «ميت».

سليم، الذي فسر بوضوح ذهولها الظاهر على أنه فرحة غامرة، كان يبتسم من الأذن للأذن.

ضحك سليم قائلاً:

— "نعم، إنها في شهرها السادس. لقد أصبح بطنها هكذا بالفعل."

وأشار بيده راسمًا الاستدارة.

أضاف:

— "الأمر يسير بشكل رائع مع الوظيفة الإدارية. تعلمين، العمل المكتبي؟ الراتب أفضل، لكنني سأحزن لأنني لن أراكِ بعد الآن يا سيدة شتاين. لطالما كنتِ لطيفة جدًا معي."

كل ما استطاعت إيما قوله هو:

— "يا لها من أخبار رائعة."

بنبرة رتيبة نوعًا ما، جعلتها تشعر بالخجل. في الماضي كانت تستجيب بحماس لكل إعلان عن مولود بين معارفها. حتى حين بدأ بعض أصدقائها يتساءلون لماذا يستغرق الأمر معها كل هذا الوقت، وهل ثمة مشكلة. لم تشعر بالحسد ولو لمرة، ناهيك عن المرارة، لمجرد أن الأمر لم ينجح فورًا معها ومع فيليب.

على عكس والدتها، التي كانت تغضب بشدة حين يبتهج الآخرون بحملهم. الإجهاض غير المتوقع حين كانت إيما في السادسة غيّرها. ولم تحمل والدتها مرة أخرى قط.

ماذا عن الآن؟

الآن هو زمن «ما بعد»؛ الآن يمكنها فهم مرارة والدتها.

خصبة؟ تباً لذلك!

تحولت إيما إلى شخص آخر. امرأة بمهبل متقرح تعرف طعم اللاتكس بقدر ما تعرف شعور الفولاذ المهتز على رأسها الحليق. امرأة تدرك جيداً أن حدثًا مصيريًا واحدًا يمكنه أن يغير أو حتى يقتل كل العواطف.

لطيفة.

فكرت في آخر شيء قاله سليم وطرأ ببالها أمر ما.

— "انتظر لحظة فقط، من فضلك."

نادى سليم خلفها:

— "لا، أرجوك لا تفعلي. الأمر غير ضروري، حقًا."

كان يعرف ما تنوي فعله حين أمرت سامسون بالجلوس عند الباب. لحراسة رجل التوصيل أيضًا.

في غرفة المعيشة لاحظت أنها تحمل الطرد الصغير وتضمه إلى صدرها؛ لابد أنها أخذته من سليم في نهاية المطاف — يا للمسيح!

إنه داخل المنزل الآن.

وضعت إيما الطرد بجوار حاسوبها المحمول على المكتب، الذي كان يقع أمام النافذة المطلة على الحديقة، وفتحت الدرج العلوي. راحت تنقب باحثة عن محفظتها التي تأمل أن يكون فيها ما يكفي لإكرامية تعطيها لسليم كهدية وداع.

انزلقت المحفظة إلى الزاوية في أقصى خلفية الدرج، مما اضطرها لإخراج بعض الأوراق العالقة بعناد أمامها.

رسالة من شركة التأمين، فواتير، بطاقات تمنيات بالشفاء لم تُقرأ، كتيبات لغسالات ملابس و...

تسمرت إيما حين رأت المنشور الإعلاني في يدها.

كانت يائسة لتحويل نظرها عن الصورة اللامعة.

ززززززز.

بدأ طنين في رأسها. طنين عالٍ. شعرت بالاهتزازات على فروة رأسها. بدأ الحك فورًا. أرادت أن تهرش نفسها لكن فرصتها في فعل ذلك كانت ضئيلة بقدر فرصتها في تحرير نفسها من الملزمة التي كانت تثبت رأسها وتجبرها على التحديق في المنشور.

كان فيليب قد أنزل جميع المرايا في المنزل كي لا تضطر إيما لتذكر تلك الليلة باستمرار عبر النظر إلى «قَصَّة شعرها». حُظرت جميع المقصات وشفرات الحلاقة من الحمام.

لكنه لم يفكر في منشور بسيط يأتي مع الجريدة.

جهاز محمول بشفرات من الفولاذ المقاوم للصدأ. فقط 49.90 يورو. مع خاصية قص الشعر! وفري فواتير تصفيف الشعر!

سمعت إيما نقرة خافتة، تلك التي تسبق دائمًا انهيار كوابيسها، قبل لحظة من سقوطها من حافة روحها الشاهقة.

أغمضت عينيها. وبينما تتهاوى إيما على الأرض، سقطت في جحر الجرذان القابع في ذكرياتها.

الفصل التاسع

يظن السواد الأعظم من الناس أن النوم هو شقيق الموت الأصغر، والحق أنه عدوه اللدود. فالنوم ليس نذير العتمة الأبدية، بل التعب هو ذاك النذير. إنه السهم الذي يطلقه الرجل ذو القلنسوة السوداء نحونا كل مساء دون أن يخطئ هدفه، والذي يجاهد النوم بكل قوته لينتزعه منا كل ليلة. لكنه، لسوء الحظ، سهم مسموم، ومهما حاول تدفق أحلامنا غسل ذلك السم، تظل رواسبه عالقة. كلما تقدمنا في العمر، بات النهوض من الفراش بشعور التعافي والراحة أكثر صعوبة. ومثل إسفنجة كانت نظيفة يومًا، تتشرب شعيرات وجودنا حبرًا أسود، فتغدو الإسفنجة أكثر تشبعًا. وتتحول صور الأحلام التي كانت يومًا سعيدة وملونة إلى تشوهات كابوسية، حتى يخسر النوم معركته أخيرًا ضد التعب، وفي يوم ما، ونحن منهكون، نعبر إلى نسيان خالٍ من الأحلام.

كانت إيما تعشق النوم.

لكنها لم تكن تحب الأحلام التي حولها سم الإرهاق إلى رؤى مروعة. مروعة لأنها كانت حقيقية للغاية، وتعكس ما حدث لها بالفعل.

وكما يحدث في كل مرة تغيب فيها عن الوعي، بدأ الأمر بصوت.

ززززززز.

لم يبدأ بالاقتحام العنيف، ولا بالأنفاس الثقيلة في أذنها، أو السعال المتقطع الذي يقذف موجات من أنفاس برائحة النعناع في وجهها بينما يقرص مصفف الشعر حلمتيها وهو يقذف داخل واقيه الذكري. لم تكن متيقنة ما إذا كانت هذه الرؤى ذكريات حقيقية أم محاولة مؤلمة من دماغها لملء الساعات المفقودة بين الهجوم في الفندق واستيقاظها في محطة الحافلات بالكوابيس.

كان الأمر يبدأ دائمًا بطنين ماكينة الحلاقة، الذي يزداد حدة وصريرًا حين تلامس الشفرات المهتزة الشعر.

الشعر.

رمز الأنوثة والخصوبة منذ فجر التاريخ. السبب الذي يجعل النساء في ثقافات عديدة يغطين رؤوسهن تجنبًا لإثارة الشيطان الكامن في الرجال. الشيطان الذي، لولا ذلك...

... لكان سيغلبني، ويغتصبني، ثم يسلخ فروة رأسي...

السالخ، مصطلح ركيك لكنه أدق بكثير لوصف المعتدي من لقب «مصفف الشعر»، لأنه لم يصفف شعر ضحاياه، بل انتزع حياتهن من رؤوسهن.

كالعادة، عجزت إيما عن التمييز بين الحلم والواقع حين شعرت بالشفرة الباردة على رأسها، مشلولة سواء بفعل الإرهاق أو المخدر الذي يسري في دمائها. شعرت بالشفرة الكهربائية تهتز على جبهتها، ولم تتألم وهي تتحرك صعودًا نحو مؤخرة رأسها. لم تتألم، ومع ذلك كان الشعور يشبه الموت.

لماذا يفعل ذلك؟

سؤال ظنت إيما أنها وجدت إجابته.

لقد اغتصبها المعتدي وشعر بالخزي. رجل ذكي، يدرك تمامًا ما فعله، لم يكن يحاول محو الجريمة، بل نقل المسؤولية إلى الضحية.

لم تستر إيما نفسها؛ كانت خصلات شعرها الغزيرة والظاهرة للعيان هي التي أغوت الحيوان الذكر واستدرجته من وكره. ولهذا لم يكن يجب معاقبتها، بل جعلها تبدو بمظهر "محترم" كي لا يسيء أي رجل ينظر إليها الفهم.

لهذا حلق رأسي.

ليس لإذلالي.

بل لطرد الشيطان الذي قاده إلى الغواية.

سمعت إيما صوت الطقطقة كلما ضربت الشفرات قمة رأسها، وشعرت برأسها يُدار جانبيًا ليصل إلى صدغيها، وشعرت بحرقة حين توغلت الشفرة عميقًا وخدشت الجلد، وشعرت بقفاز اللاتكس على فمها، وشمت رائحة المطاط تغطي شفتيها اللتين ربما انفرجتا للصراخ، وحينها أدركت...

... أنه كان ينتظرني...

لقد تتبعها. كان يعرفها!

كان يراقبها مسبقًا. يراقب شعرها حين تلف خصلة منه حول إصبعها. خصلاتها التي كانت تتراقص على لوح كتفها حين تستدير.

إنه يعرفني. هل أعرفه أنا أيضًا؟

في اللحظة ذاتها التي طرحت فيها هذا السؤال على نفسها، شعرت إيما باللسان. طويل، خشن، ومغرق باللعاب. كان يلعق وجهها. يسيل لعابه فوق أنفها، وعينيها المغمضتين، وجبهتها. كان هذا جديدًا.

لم يحدث هذا من قبل قط.

شعرت إيما بضغط رطب على وجنتها، فتحت عينيها ورأت سامسون فوق رأسها.

استغرق الأمر وهلة لتدرك أنها ملقاة على أرضية غرفة المعيشة بجوار مكتبها.

كانت مستيقظة. لكن سهم التعب كان قد انغرز أعمق من ذي قبل. شعر جسدها وكأنه محشو بالرصاص، وما كانت لتتفاجأ لو سحبها ثقلها إلى القبو، لو أنها تحطمت مخترقة أرضية الباركيه مباشرة إلى غرفة الغسيل أو إلى المكتب الذي أعده فيليب هناك في الأسفل كي لا يضطر للذهاب إلى المكتب في عطلات نهاية الأسبوع.

لكنها بالطبع لم تخترق الباركيه المتين؛ بقيت حيث هي، ممددة في الطابق الأرضي، على بعد بضعة أمتار من المدفأة المتأججة، التي كانت ألسنة لهبها تتراقص بعنفوان غير معتاد.

كانت تضطرم وكأن الريح تحركها. وفورًا شعرت إيما بلفحة برد على وجهها، ثم على جسدها كله.

تيار هوائي.

رقص النار في تيار الهواء البارد لا يمكن أن يعني سوى شيء واحد.

الباب الأمامي!

إنه مفتوح.

الفصل العاشر

«آسف، اضطررت للذهاب.

اعتني بنفسك!»

قصاصة ملاحظات صغيرة لم تتسع للكثير، ولهذا كتب سليم رسالة الوداع تلك بحروف صغيرة.

بأصابع متعرقة، انتزعت إيما الملصق الأصفر من الإطار الخشبي لبابها الأمامي وضيقت عينيها. بدأ الثلج يتساقط مجددًا. في الطرف الآخر من الشارع، قبيل التقاطع مباشرة، كان الأطفال يلعبون لعبة «المطاردة» بين السيارات المتوقفة، لكن لم يكن هناك أي أثر لرجل التوصيل أو شاحنته الصفراء.

كم من الوقت غبت عن الوعي؟

تحققت إيما من ساعتها: 11:13.

إذًا فقد كانت فاقدة للوعي لقرابة ربع ساعة.

وطوال تلك المدة كان الباب الأمامي مفتوحًا.

ليس مفتوحًا على مصراعيه، بل بضعة سنتيمترات فقط، لكنه مفتوح.

ارتجفت.

ماذا الآن؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟

كان سامسون يحك جسده بساقيها مثل قطة. ربما كانت تلك طريقته للقول إن الجو بارد جداً، لذا قامت أخيرًا لإغلاق الباب.

اضطرت إيما لمقاومة الباب بجسدها، فجأة هبت ريح عنيفة مباشرة نحو المنزل، تعوي وتقذف ببعض ندف الثلج إلى الردهة قبل أن يُسمع صوت القفل ويعم الصمت الغرفة.

نظرت إلى يسارها، حيث كانت المرآة المتروكة في وحدة الحائط ستعكس وجنتيها المحمرتين لولا أنها مغطاة بورق التغليف.

ولربما غطاها بخار أنفاسها أيضًا.

وعليها كتابة؟

راودت إيما رغبة خاطفة في تمزيق الورق عن المرآة للتحقق من وجود رسائل خفية. لكنها فعلت ذلك مرارًا ولم تجد أي كتابة على الزجاج قط. لا عبارة «لقد عدت» ولا «نهايتك قريبة». ولم يشتكِ فيليب أبدًا من اضطراره لإعادة تغليف المرآة بالورق.

قالت إيما لنفسها:

— "أنا آسفة."

غير متأكدة مما تعنيه بالضبط. المحادثات التي تجريها مع نفسها، والتي تصل للعشرات يوميًا، باتت أقل منطقية شيئًا فشيئًا.

هل كانت آسفة لأنها تركت سليم يغادر دون إعطائه إكرامية؟ أم لأنها تسبب لفيليب كل هذا العناء؟ تتجاهل اقتراحاته، وتتجنب الحميمية معه، وتحرمه من جسدها لشهور الآن؟ أم أنها آسفة لأنها تترك نفسها تتهاوى؟ كطبيبة نفسية، كانت تعلم بالطبع أن البارانويا ليست مرضًا بل ضعفًا يحتاج لعلاج. إذا كنت تملك القوة لذلك.

وأن ردود الفعل المبالغ فيها هي عرض لهذه المعاناة، ولن تختفي من تلقاء نفسها بمجرد أن «تتمالك نفسها». أولئك الذين لم يصابوا بهذا الداء

غالبًا ما يرتابون في المرضى النفسيين. يتساءلون، مثلًا، كيف لممثل أو فنان مشهور عالميًا «يملك كل شيء» أن ينتحر، رغم شهرته وثروته و«أصدقائه» الذين لا يحصون. لكن هؤلاء الناس لا يعرفون شيئًا عن الشياطين التي تعشش، خاصة في الأرواح الحساسة، ثم تهمس في أذن الشخص في لحظة سعادته القصوى لتعدد له نقائصه. الأصحاء نفسيًا قد يطلبون من المكتئبين التوقف عن البؤس طوال الوقت، ويحثون الأشخاص المرتابين مثلها على التوقف عن إثارة الجلبة وتفقد الباب الأمامي كلما صرت العوارض الخشبية. لكن ذلك أشبه بمطالبة رجل مكسور الساق بالركض في ماراثون.

ماذا الآن؟

نظرت، غير واثقة، إلى البريد عند قدميها الذي أوصله سليم.

العلبة البيضاء الضيقة للعدسات اللاصقة يمكن أن تبقى في الردهة حاليًا، وكذلك أدويتها والصندوق الأكبر قليلاً الذي يحتوي على القفازات. الطعام يجب وضعه في الثلاجة، لكن في تلك اللحظة شعرت إيما بضعف يمنعها من جر الصندوق إلى المطبخ.

لا أستطيع أن أكون خائفة وأحمل الأغراض في الوقت ذاته.

عند كاحليها، نفض سامسون جسده، وتمنت إيما لو كان بإمكانها فعل الشيء نفسه، ببساطة أن تنفض جسدها كله وتطرح عنها كل ما يثقل كاهلها حاليًا.

سألته:

— "كنت لتنبح، أليس كذلك؟"

نصب سامسون أذنيه وأمال رأسه إلى جانب واحد.

بالطبع كان ليفعل.

كان سامسون متعلقًا بصاحبته لدرجة أنه يزمجر كلما اقترب غريب من المنزل. لم يكن ليسمح أبدًا بدخول دخيل في حياته.

أم كان ليفعل؟

رغم أنها كانت مشلولة بفكرة أنها لا تستطيع التأكد مائة بالمائة من كونها وحيدة في المنزل، إلا أنها بالكاد تستطيع الاتصال بفيليب ومطالبته بالعودة دون سبب وجيه.

أم كان هناك سبب؟

خطرت لها فكرة.

أمرت سامسون:

– "لا تتحرك!"

وفتحت الخزانة المثبتة بجوار الباب الأمامي، التي تضم الصندوق الأبيض الصغير المتحكم في نظام الإنذار. أضاءت الأرقام على لوحة التحكم بمجرد اقتراب يدها.

1 – 0 – 3 – 1

تاريخ لقائهما. في حفلة عيد ميلاد سيلفيا.

كان الإنذار مبرمجًا للاتصال بهاتف إيما المحمول عند وجود أي إشارة لاقتحام. إذا لم تكن متاحة أو لم تعطِ كلمة السر الصحيحة (روزنهان)، ستُرسل دورية شرطة فورًا.

ضغطت إيما على رسم توضيحي يظهر منزلاً فارغًا، وبذلك فعلت جميع كاشفات الحركة. وبزر ثانٍ (G) أطفأت أجهزة استشعار الطابق الأرضي مرة أخرى.

قالت:

– "الآن يمكننا التحرك. لكننا سنبقى في الطابق السفلي، أتسمعني؟"

إذا دخل أي شخص غير مصرح له، ستسمع الإنذار بمجرد تحركه في الطابق العلوي أو القبو.

كان من المستبعد جدًا أن يختبئ أي شخص في الطابق الأرضي. لم تكن هناك ستائر في غرفة المعيشة، ولا خزائن كبيرة، ولا صناديق أو مخابئ أخرى. الأريكة كانت ملتصقة تمامًا بالحائط، الذي بدوره لم يحوِ أي زوايا أو شقوق.

لكن الحذر واجب.

أخرجت إيما هاتفها المحمول من جيب رداء نومها، وفتحت قائمة المفضلة وضغطت بإبهامها على اسم فيليب، لتتمكن من الاتصال به في حالة الطوارئ. كانت على وشك العودة إلى غرفة المعيشة مع سامسون، لكنها اضطرت للاستدارة مرة أخرى لأنها لم تعد متأكدة مما إذا كانت قد أدارت المفتاح مرتين.

بعد أن تحققت مرة أخرى وقاومت مجددًا الرغبة في النظر إلى المرآة، لحقت بسامسون الذي كان قد عاد بالفعل، مصدرًا صوت طقطقة بمخالبه، إلى بطانية نومه بجوار النار.

يجب حقًا أن أقلم مخالبه، فكرت، لكن ليس خوفًا على الباركيه، الذي كان باليًا على أي حال وبحاجة ماسة لتلميع جيد بمجرد أن تتمكن من تحمل وجود أناس في المنزل مرة أخرى.

في حياة أخرى، ربما.

كانت تشعر بالخجل لأنه يحصل على القليل جدًا من التمارين. هذا الصباح لم يحظَ سوى بربع ساعة، حين أخذه فيليب في جولة واحدة حول المربع السكني قبل مغادرته للمؤتمر. إيما نفسها كانت تتركه دائمًا يخرج وحده إلى الحديقة، حيث يقضي حاجته ككلب مطيع عند شجيرات

الرودودندرو بجوار كوخ الأدوات، بينما تنتظره هي خلف الباب المقفل حتى يعود.

حقيقة أن الكلب يتصرف بسلام هكذا كانت علامة أكيدة على أنهما وحيدان، على الأقل هنا في الطابق السفلي. مجرد ذبابة كانت لتثير انتباه سامسون وتجعله يهز ذيله بحماس. كان شديد التعلق بإيما لدرجة أنه حتى في وجود فيليب لم يسترخِ تمامًا قط. لم تكن إيما بعيدة أبدًا عن سامسون، مما يعني أن زوجها كان يتخذ تلقائيًا دور الضيف الذي يُراقَب بمودة، لكن دون انقطاع.

جلست إيما إلى المكتب، ودرجه لا يزال مفتوحًا. تمكنت من حشر المنشور الذي أثار ذاكرتها مرة أخرى إلى الداخل، دون النظر إلى إعلان ماكينة الحلاقة ثانية. ثم قررت كسر روتينها المعتاد وتفحص الطرد عن كثب قبل الشروع في «عملها».

أخذته بكلتا يديها وقلبته. لا يمكن أن يزن أكثر من ثلاثة ألواح شوكولاتة، وربما أقل، مما يجعله طردًا صغيرًا على الأرجح، رغم أن إيما لم تكن خبيرة في هذه الأمور. بالنسبة لها، أي شيء في حاوية صلبة وأكبر من علبة حذاء هو طرد.

هزته بجانب رأسها كما يفعل الساقي بخلاط الكوكتيل، لكنها لم تسمع شيئًا. لا تكتكة، لا همهمة، لا شيء يوحي بجهاز كهربائي أو (لا سمح الله) كائن حي. كل ما شعرت به هو أن شيئًا خفيفًا يتحرك في الداخل. ينزلق ذهابًا وإيابًا. لم يبدُ هشًا بشكل خاص، رغم أنها لم تستطع الجزم بذلك.

حتى أن إيما شمت الطرد، لكنها لم تلحظ أي شيء غير عادي. لا رائحة نفاذة أو لاذعة لمادة كيميائية كاوية أو ربما سم. لا شيء يشير إلى أي خطر بالداخل.

بصرف النظر عن حقيقة أن إيما وجدت مجرد وجوده مهددًا، بدا طردًا طبيعيًا تمامًا، من النوع الذي يُسلَّم في ألمانيا يوميًا بعشرات الآلاف.

يمكنك الحصول على ورق التغليف هذا في أي مكتبة أو مكتب بريد، إذا تمكنت من العثور على واحد مفتوح. في الزمن السابق، تذكرت إيما، كانت تُغلق بمعدل ينذر بالخطر.

الخيط المربوط حول الطرد بدا تمامًا مثل المادة التي اعتادت صنع الأشياء منها في طفولتها: خيوط رمادية خشنة.

درست إيما الملصق على الواجهة، الذي يحدد أ. بالانت كمرسل إليه، لكن الغريب أن خانة تفاصيل المرسل كانت فارغة. لا عنوان شركة ولا عنوان خاص.

لابد أنه أُرسل عبر محطة طرود آلية، وهي الطريقة الوحيدة لإرسال الطرود دون كشف الهوية، وهو أمر اكتشفته إيما في عيد الميلاد الماضي حين أرادت إرسال طرد لوالدتها دون أن تدرك فورًا من هو المرسل. ومع ذلك، أدخلت إيما اسمًا مخترعًا (بابا نويل، 24 شارع سانتا، القطب الشمالي). لكن في هذا الطرد، كانت خانة العنوان فارغة تمامًا، مما أفزعها تقريبًا أكثر من حقيقة أنها لا تعرف جارًا باسم بالانت.

وضعت الطرد جانبًا مرة أخرى، باشمئزاز يكاد يكون ملموسًا، ودفعت به بعيدًا عنها إلى أقصى طرف المكتب.

التفتت إلى سامسون وقالت:

— "أحقا لا تريد أن تؤنس وحدتي؟"

في كل ساعات وحدتها، اعتادت التحدث إليه وكأنه طفل صغير يراقب بعناية كل ما تفعله خلال اليوم. لكنه اليوم بدا نعساناً بشكل غريب، إذ تكور بسلام بجوار النار بدلاً من أن يكون عند قدميها تحت المكتب.

تنهدت إيما حين لم يبدِ أي رد فعل:

– "يا للمصيبة. المهم ألا تشي بي. أنت تعلم أنني وعدت فيليب ألا أفعل."

لكن اليوم بالذات لم تستطع منع نفسها. مهما كان غضبه لو اكتشف الأمر.

كان عليها ببساطة أن تفعل ذلك.

وبشعور كأنها تخون زوجها، فتحت حاسوبها المحمول وبدأت «عملها».

الفصل الحادي عشر

لم تكن هناك سوى صورة واحدة تجمعها بـ فيليب لم تكرهها إيما، وتلك الصورة التقطها لصّ في الثانية من عمره.

قبل خمس سنوات تقريبًا، وفي طريقهما لحضور معرض لصديق مصور، لاذا من عاصفة مطرية بأحد فخاخ السياح في "هاكيشر ماركت" — مطعم متخصص بالبطاطس يضم مقاعد طويلة مصطفة على طول طاولة خشبية مشتركة، اضطرا لمشاركتها مع دستة جيدة من الهاربين من الطقس.

مضطرين لطلب أكثر من مجرد مشروبات كما أصر النادل، اختارا كعك البطاطس مع صلصة التفاح. ومن المستبعد أن تكون تلك الظهيرة العادية في أواخر أبريل قد حُفرت في ذاكرتها لولا عثور إيما على تلك الصور الغريبة في هاتفها المحمول في اليوم التالي.

الصور الأربع الأولى كانت مظلمة تمامًا. الخامسة أظهرت حافة الطاولة، وكذلك الست التي تلتها، بالإضافة إلى الشخص المسؤول عن هذه الصور المشوشة، بدءًا بالإبهام فقط وانتهاءً بالشخصية كاملة: طفلة شقراء بشعر منتصب، وفم ملطخ بالسميد، وابتسامة شيطانية لا يجيدها سوى الأطفال الصغار. لابد أنها سرقت الهاتف دون أن يلحظا ذلك.

سبع صور التُقطت دون "فلاش" أظهرت أجزاء من فيليب وإيما. في إحداها كانا يبتسمان، لكن أجمل صورة كانت تلك التي بدا فيها الزمن

وكأنه هرب إلى غرفة أخرى: إيما وفيليب يقفان جنبًا إلى جنب، يحدقان في عيني بعضهما البعض بينما تغرس شوكتاهما في قطعة كعك البطاطس ذاتها. بدا الأمر كلقطة من فيلم انقطع فيه الصوت فجأة — صراخ رواد المطعم المتداخل، وبكاء الأطفال، وضجيج أدوات المائدة — ليرافق تجميد الكادر لحن بيانو رومانسي.

لم تكن إيما تدرك أنها وزوجها ما زالا يتبادلان نظرات محبة كهذه، وحقيقة أن هذه الصورة التُقطت على حين غرة، بعيدًا عن أي شك في أنها قد تكون مفتعلة، زادت من قيمتها في عينيها. بالنسبة لفيليب أيضًا، الذي أحب الصورة، رأى أن وقفته المترهلة فيها تحمل شيئًا من روح "جيمس دين"، مهما كان يقصد بذلك.

في وقت سابق، في الزمن السابق، كانت إيما تنظر إلى الصورة كل يوم في الساعة الخامسة، حين يتصل بها فيليب ليخبرها ما إذا كان سيعود لتناول العشاء أم لا، لأنها خصصت الصورة كصورة اتصال لرقم هاتفه.

احتفظت بنسخة من الصورة في الجيب الداخلي لحقيبتها المفضلة، ولفترة ما كانت شاشة التوقف في حاسوبها المحمول، حتى مسحها تحديث للنظام بشكل غامض من الجهاز.

تمامًا كثقتي بنفسي، وشغفي بالحياة. حياتي كلها.

أحيانًا تتساءل إيما عما إذا كان مصفف الشعر قد أجرى لها أيضًا "إعادة تشغيل" للنظام في تلك الليلة بالفندق، وأعاد "قرصها الصلب" العاطفي إلى إعدادات المصنع. ومن الواضح أنها كانت منتجًا معيبًا: بضاعة تالفة لا يمكن استبدالها للأسف.

نقرت إيما على أيقونة "آوتلوك" في شريط المهام، فتلاشت شاشة التوقف الافتراضية، وبات بإمكانها الآن التركيز على مهمتها اليومية البغيضة، لكن الضرورية.

تتمثل مهمتها اليومية في تمشيط الإنترنت بحثًا عن أحدث التقارير حول مصفف الشعر. كان فيليب قد منعها صراحة من فعل ذلك بعد أن حصلت الصحف على التنميط الجنائي الذي وضعه بفضل تسريب من مكتب الادعاء العام. خاضا شجارًا استمر لأيام حول هذا الأمر. كان فيليب قلقًا من أن التقارير الصحفية المثيرة ستزيد من اضطراب إيما، ولذا كان عليها التصرف بحذر.

سرًا، كأنها زوجة خائنة.

تصفحت الإنترنت في الوضع المخفي عبر محرك بحث لا يحفظ السجل. والمجلد الذي تخزن فيه جميع التقارير والمعلومات حول القضية زمنيًا كان يحمل اسم «حمية غذائية» ومحميًا بكلمة مرور.

حاليًا يغرق الإنترنت بموجة أخرى من التكهنات لأن مصفف الشعر ضرب مجددًا الأسبوع الماضي. مرة أخرى في فندق خمس نجوم ببرلين، هذه المرة في "بوتسدامر بلاتز"، ومرة أخرى سُممت عاهرة بجرعة زائدة من حمض "غاما–هيدروكسي بيوتيريك". تم تحديد آثار لهذه المادة في فحص دم إيما أيضًا، لكن المحققين لم يعتبروا ذلك دليلاً قاطعًا. فهي طبيبة نفسية، مما يعني أنه من السهل عليها الحصول على هذا المنتج، الذي يعتبر بجرعات صغيرة منشطًا وغالبًا ما يستخدم كمخدر في الحفلات. أسهل حتى من حلق شعرها.

أوردت مقالات الصحف الشعبية تفاصيل حول التفضيلات الجنسية لـ ناتاشا دبليو (22 عامًا) أكثر مما أوردته عن الشخص الذي فقد حياته بألم مبرح. ودراسة تعليقات القراء في منتديات الإنترنت أعطت انطباعًا بأن الأغلبية تلقي بجزء من اللوم على الأقل على النساء، فمن ذا الذي يعرض نفسه لغرباء تمامًا مقابل المال؟

لم يخطر ببال معظم المعلقين أن الضحايا كن كائنات ذات مشاعر. المرأة الروسية التي طرقت باب فندق إيما تلك الليلة كانت تملك تعاطفًا يفوق تعاطفهم جميعًا مجتمعين.

كان مجرد حظ عاثر أن فريق التحقيق لم يتمكن من العثور عليها. لكنه ليس مفاجئًا. فأي مرافقة ليلية ستعطي اسمها الحقيقي للاستقبال أو تقول في أي غرفة حجزت؟ في الفنادق الفاخرة، «فتيات» كهؤلاء هن ضيفات لا يمكن تجنبهن لكنهن غير مرئيات.

طقطقة.

سقط جذع خشبي من كومته المحترقة في المدفأة، وبينما لم يرتعش أنف سامسون حتى، انتفضت إيما فزعًا.

اختلست نظرة عبر النافذة، محدقة في شجرة التنوب التي تزينها كشجرة عيد الميلاد كل عام. كانت أغصانها مثقلة بالثلج. منظر الطبيعة كان من الأشياء القليلة التي تهدئها. إيما تعشق حديقتها. العودة للخارج والاعتناء بها كان حافزًا كبيرًا للتخلص من هذا الإزعاج السخيف في رأسها. في مرحلة ما، كانت واثقة أنها ستجد القوة للذهاب إلى العلاج والسماح لخبير بمراجعة أدويتها الذاتية.

في مرحلة ما، لكن ليس اليوم.

في صندوق بريدها الوارد، وجدت إيما ما بدا بوضوح كبريد مزعج يهدد بحظر بطاقاتها البنكية، بالإضافة إلى عدة تنبيهات إخبارية للكلمة المفتاحية «مصفف الشعر»، بما في ذلك مقال في صحيفة «بيلد» وآخر في «برلينر تسايتونج»، الذي فتحته أولاً.

عندما تأكدت أنه لا يضيف شيئًا جديدًا، نسخته كملف PDF في مجلد «مصفف_الشعر_ثلاثة_تحقيقات_ناتاشا».

في الحقيقة، أخذت ناتاشا المكان الذي خصصه مصفف الشعر لإيما. ناتاشا كانت بالفعل الرقم أربعة.

أنا مجرد المرأة التي لا تُحسب.

لكل ضحية، كان لدى إيما مجلدات فرعية لـ «الحياة الخاصة»، و«الحياة المهنية»، و«نظريات خاصة»، لكن تلك المخصصة للتحقيقات الرسمية كانت بوضوح الأهم.

هنا كان يوجد أيضًا مقال «شبيغل» حول التنميط الأولي لفيليب، الذي وصف القاتل بأنه نرجسي سيكوباتي. ثري، ومثقف، وعلى مستوى عالٍ من التعليم. مغرم بنفسه لدرجة أنه عاجز عن تكوين علاقة وطيدة. ولأنه يعتقد أنه كامل، يلقي باللوم على النساء في وحدته. النساء اللواتي يغرين الرجال، لكنهن لا يردن منهم سوى شيء واحد: المال. إنه خطؤهن أن رجلاً وسيمًا مثله لا يستطيع السيطرة على نزواته. كان ينظر إلى فعل قص شعر ضحاياه كخدمة يؤديها لعالم الرجال بجعل النساء قبيحات.

كان من الممكن أن تكون هناك ضحايا أخريات، مثل إيما، «فقط» حلق شعرهن بعد الاغتصاب. ربما لم يكن بالضرورة يريد قتل ضحاياه، إلا إذا وجدهن لا يزلن جذابات وهن صلعاوات.

هذه الفكرة قادت فيليب إلى اقتراح أن مصفف الشعر ربما ارتدى جهاز رؤية ليلية أثناء هجماته لتقييم النتائج النهائية. افتراض وضعته إيما في مجلد «النظريات»، جنبًا إلى جنب مع الافتراض بأن المعتدي قد ينفر من رؤية الدم. لكنه جرح إيما أثناء حلق رأسها. في المستشفى عالجوا الجرح في جبهتها وغسلوا الدم المتيبس. ربما كان هذا سبب نجاتها، فالجرح والدم ربما شوهاها بطريقة جعلت مصفف الشعر يعتبر عمله مكتملاً.

لم يكن فيليب رسميًا ضمن القضية بسبب انخراطه الشخصي، رغم أن «انخراط» كان تعبيرًا مهذبًا لـ «متزوج من امرأة مجنونة ذات خيالات عنيفة جامحة».

بشكل غير رسمي، بالطبع، كان فيليب يستغل كل مصادره للبقاء مطلعًا على التحقيقات. كانت إيما مقتنعة بأنه لا يخبرها بكل ما يعرف، وإلا لما شهقت حين فتحت الصفحة الرئيسية لصحيفة «بيلد».

يا يسوع المسيح!

وضعت إيما يدها على فمها ورمشت.

العنوان الرئيسي فوق الصورة تكون من ثلاث كلمات فقط، لكنها ملأت ثلثي شاشتها:

هل هذا هو؟

الصورة الملونة ذات المسحة الخضراء التقطتها كاميرا في سقف مصعد.

من الزاوية الخلفية اليمنى ظهر رجل يرتدي سترة رمادية بقلنسوة. ثلاثة أرباع وجهه مغطى، والباقي يمكن أن ينتمي لأي ذكر بالغ أبيض تقريبًا يرتدي الجينز وحذاءً رياضيًا.

ما أفقد إيما صوابها لم يكن مشهد الرجل النحيل، متوسط الطول، الذي يهم بدخول ردهة الفندق حيث فقدت الضحية رقم اثنين حياتها.

بل ما كان الرجل يحمله وهو يغادر المصعد.

يقول المقال: «هنا ترون رجلاً لم يكن مسجلاً كنزيل يغادر الفندق في الليلة التي توفيت فيها لاريانا ف. ولعدم التأكد من أن هذا الرجل هو القاتل، امتنعت السلطات سابقًا عن نشر الصورة لأسباب تتعلق بحماية البيانات. لكن الآن، تفعل ذلك نظرًا لغياب البدائل.»

أدرجت أرقام الهواتف المعتادة للمعلومات ذات الصلة بالقضية، بالإضافة إلى رابط مباشر للشرطة.

يا إلهي القدير! هل تخدعني عيناي، أم أن ذلك...؟

بحثت إيما على المكتب عن كيس ورقي لتتنفس فيه. وحين لم تجد كيسًا فكرت في الذهاب للمطبخ لإحضار واحد، لكنها قررت تكبير الصورة أولاً.

قربت الصورة على اليدين اللتين ما تزالان ترتديان قفازات اللاتكس.

على الأصابع.

على الشيء الذي كانت تقبض عليه.

تابع النص المثير: «تعمل السلطات بناءً على افتراض أن هذا هو مصفف الشعر يفر بغنائمه.»

شعرها؟ في طرد.

رفعت إيما نظرها. جالت عيناها عبر المكتب، ثم عادت إلى الصورة.

طرد صغير ملفوف بورق بني عادي.

يشبه تقريبًا الطرد الموجود أمامها. الطرد المجهول الذي سلمه سليم لإيما من أجل جارها.

أ. بالانت.

الذي لم تسمع اسمه من قبل قط.

شعرت إيما بقطرة عرق صغيرة تسقط من خلف رقبتها وتنساب أسفل عمودها الفقري، ثم سمعت زمجرة سامسون قبل أن ينطلق جرس الإنذار في العلية.

الفصل الثاني عشر

ماذا كان ذلك الصوت؟

حين سرى الخوف في أوصالها، أرغمت إيما نفسها على تمالك أعصابها بدلاً من الاستسلام للذعر، وسعت لمعرفة حقيقة ما يجري.

كان الضجيج خافتًا وبعيدًا جدًا مقارنة بالدوي الحاد الذي يطلقه كاشف الحركة. فحركة واحدة تلتقطها أجهزة استشعار الأشعة تحت الحمراء كفيلة بإطلاق صفارة إنذار تصم الآذان في أرجاء المنزل بأكمله. وليس في أحد الطوابق العليا فحسب.

علاوة على ذلك، كان الصوت غنيًا، يكاد يكون لحنًا موسيقيًا.

مثل...

راود إيما خاطر ما، لكنها عجزت عن تحديده بدقة. تلاشت أفكارها بالتزامن تقريبًا مع توقف الصفير فجأة كما بدأ.

سألت بصوت عالٍ:

— "ماذا كان ذلك؟"

لكن سامسون ظل ممددًا، ولم يرفع حتى رأسه عن كفوفه المكتنزة، وهو تصرف غريب عنه تمامًا، مما جعل إيما تخشى أنها ربما توهمت الصوت.

هل أعاني الآن من هلاوس سمعية أيضًا؟

أغلقت إيما حاسوبها المحمول، ودفعت كرسيها بعيدًا عن المكتب ونهضت. صرَّ الباركيه تحت قدميها، ولهذا سارت على رؤوس أصابعها نحو الدرج وهي ترتدي خف الباليرينا. استندت إلى الدرابزين الخشبي في الردهة وأرهفت السمع، لكنها لم تسمع شيئًا سوى حفيف ناعم في أذنها؛ ذلك الطنين الذي يختبره الجميع حين يركزون بشدة على حاسة سمعهم.

أطفأت إيما كاشفات الحركة باستخدام لوحة التحكم بجوار الباب الأمامي.

ثم تسللت صاعدة إلى الطابق الأول، حيث غرفة النوم، وغرفة الملابس، وحمام واسع.

كانت قد نسيت إشعال الضوء عند الدرج، وهنا في الأعلى (حيث لم تكن تبعد سوى خطوتين عن بسطة الطابق الأول) كانت الستائر الدوارة لا تزال مسدلة (أحيانًا حين تداهمها أعراض الصداع النصفي الجانبية لأدويتها النفسية، كانت تحجب الضوء طوال اليوم)، لذا بدا الأمر وكأن إيما تتسلق نحو الظلام الدامس.

تباً لهذا، ستذهب إلى القبو. هناك على الأقل يمكنها الدفاع عن نفسها بطفاية الحريق المعلقة على الجدار بجوار السلم.

نادت دون أن تستدير لأنها خافت فجأة أن ينزلق شخص ما من الثقب الأسود ويهجم عليها فوق الدرج:

— "سامسون، تعال هنا يا ولد!"

وحينها، وكأن فيليب قد ثبت كاشفًا صوتيًا أيضًا لأمنها، أطلقت هذه الكلمات الإنذار مجددًا.

يا إلهي!

عضت إيما شفتها السفلى لتمنع نفسها من الصراخ.

قد تكون مصادفة محضة بالطبع أنها تسمعه الآن مجددًا. لكن ها هو ذا: الصوت الغامض. وهي لا تتوهمه. صفير عالي النبرة، أعلى قليلاً الآن لأنها تحركت نحو المصدر، الذي من الواضح أنه لم يكن في الطابق الأول، بل في مكان أعلى، تحت السقف. وذكر الإنذار إيما بفكرتها غير المكتملة قبل دقائق، مع عدد من التداعيات.

المنبه هو التفسير الأكثر براءة، ولكنه أيضًا الأكثر استبعادًا، لأنه لا يوجد في العلية سوى علب طلاء، وألواح أرضية مقتلعة، وجدار عازل مهدوم، وشتى أنواع الأدوات المتناثرة في المكان. لكن لا توجد ساعة! وحتى لو وجدت، لماذا ترن اليوم، بعد نصف عام من تخليهم عن التجديد؟

لا، لم يكن هناك منبه في موقع بناء الحضانة، التي كانت إيما تسميها سرًا BER تيمنًا بمطار العاصمة الذي ربما لن يكتمل أبدًا هو الآخر. في تلك الليلة، جُزَّت رغبتها في الأطفال مع شعرها.

قال لها فيليب:

— "هذا سيتغير مع الوقت."

لكن روحها قالت: بل سيظل إلى الأبد.

لكن إن لم يكن منبهًا، فلا يمكن أن يكون سوى... هاتف محمول.

نادت إيما مجددًا، بصوت أعلى وأكثر حزمًا:

— "سامسون، تعال!"

أفزعتها فكرة وجود هاتف محمول يرن في العلية فوق رأسها. الاستنتاج الحتمي بأنه لابد أن يخص شخصًا ما دفع إيما إلى حافة الذعر.

وهي الحافة التي هوت منها حين صُفق باب الحمام بقوة على بعد أمتار قليلة أمامها.

الفصل الثالث عشر

ركضت. بلا تفكير، ودون أن تتخذ أي قرار عقلاني أو حتى تزن خياراتها، لأنها لو فعلت ذلك لهرعت بالتأكيد إلى الطابق السفلي، عائدة إلى سامسون. إلى المخرج.

بدلاً من ذلك، قفزت الدرجات الأخيرة، وعبرت البسطة الضيقة شبه عمياء ففقدت أحد خفيها، ثم انتزعت باب غرفة نومها لتفتحه وأوصدته خلفها مرة أخرى. أدارت إيما المفتاح البسيط الذي — لحسن الحظ — كان في القفل من الداخل. أمسكت بكرسي وحشرت مسنده تحت المقبض، تماماً كما رأت في الأفلام...

... ولكن هل لهذا أي معنى؟

لا، لا شيء يبدو منطقياً هنا، ولم يكن كذلك منذ فترة طويلة. منذ أن التُقطت من على الأرض بجوار محطة الحافلات خارج فندق «لو زين».

بلا شعر.

بلا كرامة.

بلا عقل.

اعتادت عينا إيما ببطء على الظلام.

في ضوء النهار الشحيح الذي تسلل عبر شقوق الستارة الدوارة، لم تستطع تمييز سوى الأشكال. ظلال. أسطح مبهمة. السرير، وخزانة الملابس، والباب الثقيل.

جثت القرفصاء بجوار خزانة الأدراج، وهي إرث من جدتها تحفظ فيه ملابسها الداخلية، وثبتت إيما نظرها على مقبض الباب، الجسم الوحيد العاكس للضوء في الغرفة.

ما خسرته عيناها في الرؤية، عوضته أذناها بوضوح في السمع. فبجانب أصوات أنفاسها المتقطعة، التي كانت تتسارع بشدة، وحفيف رداء نومها الذي يعلو ويهبط فوق صدرها النابض، كانت هناك أصوات مكتومة تتردد في الخلفية.

وقع أقدام.

خطوات ثقيلة.

تصعد الدرج.

فعلت إيما أسوأ شيء كان يمكنها فعله.

صرخت.

صرخة حادة وثاقبة. سمعت خوفها القاتل يُنتزع من حلقها. ورغم حقيقة أنها بذلك لا تفعل شيئًا سوى لفت الانتباه إليها، لم تستطع التوقف.

تهاوت على ركبتيها، وضغطت بيدها على فمها، وعضت مفاصل أصابعها، وأنّت، واحتقرت نفسها على هذا الضعف.

كم كانت فخورة في الماضي بقدرتها على كبح مشاعرها والسيطرة عليها، حتى في أكثر المواقف تأجيجاً للعواطف. كالموقف حين لكمتها تلك المريضة الغيورة ذات الشخصية الحدية، التي كانت تحيلها لزميل آخر، على وجهها مودعة. أو حين ماتت مريضة في الحادية عشرة من عمرها

بسبب ورم في الدماغ، فظلت تمسك بيد والدتها في العيادة حتى انقضى الأمر.

لطالما نجحت في إرجاء انهيارها حتى تعود للمنزل وتختلي بنفسها، وهناك، في الوقت وبالطريقة التي تختارها، تفرغ غضبها وحزنها صراخاً في وسادة تضغطها على وجهها. لكن هذا النوع من ضبط النفس صار في ذمة التاريخ الآن، وهي تكره نفسها لأجل ذلك.

أنا حطام.

كتلة بؤس تصرخ وتعوي، تبدأ في البكاء كلما رأت إعلاناً يظهر فيه طفل رضيع. وتفكر في مصفف الشعر كلما التقت برجل.

وتتوقع الموت المحتم حين يهتز المقبض على الجانب الآخر من الباب.

كان آخر ما رأته هو ارتعاش الباب تحت وطأة الطرقات التي يلقاها. أغمضت إيما عينيها، وحاولت رفع نفسها مستندة إلى خزانة الأدراج، لكنها انزلقت بوهن كسكير عاجز عن حفظ توازنه.

غاصت مجدداً فوق ألواح الأرضية وهي تولول، تذوقت دموعها، وشمت رائحة العرق يتصبب من حاجبيها (لماذا لم يحلقهما هما أيضاً؟) ولم تملك إلا التفكير في الستارة الدوارة، التي لم أفتحها هذا الصباح، يا لي من بقرة غبية. لم يعد هناك وقت كافٍ الآن لسحب ذلك الشيء الثقيل للأعلى. والقفز.

المسافة ليست بعيدة جداً من الطابق الأول، خاصة مع كل ذلك الثلج المتراكم في الحديقة.

ربما كان بوسعي فعلها...

انقطعت صرخاتها وأفكارها حين تهشم الباب، وفوراً لفح تيار هوائي بارد وجهها الملطخ بالدموع.

استطاعت إيما سماع لهاث. وقع أقدام. صراخ. ليس صادراً منها. بل من الدخيل.

صراخ ذكوري.

امتدت يدان لتنتزعا ذراعيها اللتين لفتهما حول رأسها حماية لنفسها، وهي جاثية كطفلة صغيرة تنتظر العقاب.

لا، بل كامرأة تنتظر الموت.

أخيراً سمعت اسمها.

– "إيما."

كان يُصرخ به مرة تلو الأخرى بصوت، هو آخر صوت توقعته فيما يرجح أنها ثوانيها الأخيرة الخالية من الألم.

ثم هوت الضربة. مباشرة على الوجه.

اشتعلت وجنتها وكأن قنديل بحر لسعها، وعضت دموعها جفنيها من الداخل. وعبر الغشاوة استطاعت أن تتبين أن عليها التعامل مع دخيلين اثنين.

كان الرجلان يقفان متلاصقين. ورغم الضوء الشحيح والغشاوة أمام عينيها، ميزت كلا الوجهين.

وهو أمر لم يكن مفاجئاً.

فقد كانت متزوجة من أحدهما.

الفصل الرابع عشر

لم يكن فيليب زوج الأحلام، أو على الأقل لم يرقَ إلى تلك المعايير الظاهرية التي تداعب خيال المرأة العادية. لم يكن ذلك الفارس النبيل الذي يتصل ثلاث مرات يوميًا لمجرد أن يهمس "أحبك"، ولا ذلك الذي يتوقف في طريق عودته عند بائع الزهور، أو صائغ المجوهرات، أو متجر الملابس فاخرة؛ لينتقي هدية رمزية يفاجئ بها حبيبته كل يوم، مواظبًا على ذلك حتى عيدهما الذهبي وما بعده. لم يكن الزوج الذي لا يجادل أبدًا، أو الذي لا يختلس النظر إلى نساء أخريات، كما لم يكن دائم اللطف مع والدتها أو شغوفًا بالطهي لصديقاتها.

ومع ذلك، فقد كان شريكًا يُعتمد عليه إلى جانبها. كان رجلًا يجهر بآرائه، رجلًا يمتلك عقلًا مستقلًا، وهو ما وجدته إيما أكثر أهمية من مجرد مساعدتها في ارتداء معطفها. لقد منحها الأمان والثقة، رغم كل الصعوبات التي شابت بداية علاقتهما.

استغرق الأمر منه شهورًا لفك ارتباطه بحبيبته السابقة، وانتهى به المطاف يلعب على الحبلين خادعًا إيما مع «كيليان» لأسابيع.

لم يكن ذلك هو الاسم الحقيقي لحبيبته السابقة بطبيعة الحال، ولكن فيليب كان قد حفظ رقم فرانسيسكا على هاتفه المحمول آنذاك باسم أحد رفاقه في كرة القدم؛ كي لا يثير ريبة إيما إذا وردت مكالمة أو رسالة نصية

أخرى. وحين اكتشفت الحقيقة بالصدفة، اندلع بينهما أول شجار كبير، كاد أن يضع نهاية لعلاقتهما.

ولكن في النهاية، صدّقت إيما أن تلك الحيلة لم تكن محاولة من فيليب للإبقاء على جذوة العلاقة مع حبيبته السابقة؛ بل لأنه لم يكن قادرًا على تغيير رقم عمله ببساطة، ولم يستطع منع مكالمات فرانسيسكا الهستيرية أحيانًا والمشحونة بتأثير النبيذ. كان كل ما سعى إليه هو حماية إيما – على الأقل – من أذى لا داعي له، وحماية نفسه من جدالات عقيمة. ولكن دون جدوى.

حُلت المشكلة من تلقاء نفسها في النهاية: وجدت فرانسيسكا صديقًا جديدًا وانتقلت معه إلى لايبزيغ، وتوقفت المكالمات من «كيليان».

عدا ذلك، كان يمتلك عيوب الرجال المعتادة. كان فيليب يستمتع بالسهر لوقت متأخر مع أصدقائه دون أن يكلف نفسه عناء إرسال رسالة يخبرها فيها أنهم سينتقلون إلى حانة أخرى. كان يشخر، ويغرق الحمام بالمياه، ويضع مرفقيه على الطاولة أثناء تناول الطعام. وذات مرة نسي ذكرى زواجهما، وفي نوبة غضب، قذف كوبًا ممتلئًا بالقهوة على الحائط (ما زال أثر البقعة مرئيًا)، لكنه لم يضربها أبدًا، مطلقًا.

لكن إيما لم تمنحه من قبل سببًا قاهرًا للقيام بذلك كما فعلت اليوم.

قال بعد بضع دقائق:

– "أنا آسف".

كان قد ساعدها على النزول إلى المطبخ، حيث جلستْ إلى طاولتهما الخشبية المربعة. في الماضي، كانا يحبان تناول الإفطار هناك في عطلات نهاية الأسبوع؛ لما يوفره المكان من إطلالة جميلة على الحديقة. كانت الحديقة المجاورة كثيفة النباتات بشكل عشوائي، مما يوحي لك بأنك تحدق في عمق غابة.

أومأت إيما وحاولت أن تقول: "الأمر على ما يرام"، لكن صوتها غار محتبسًا في حلقها. كانت تتشبث بكوب قهوة منتفخ، لكنها لم ترتشف منه شيئًا. كان فيليب يستند إلى سطح العمل بجوار الحوض، محافظًا على مسافة بينهما.

ليس لأنه أراد ذلك، بل لأنه أدرك أن هذا هو ما تحتاجه هي في تلك اللحظة تحديدًا. لبضع دقائق على الأقل، ريثما تخفت صرخات صوت الرعب الذي يضج في رأسها قليلًا.

قال فيليب وهو يجز على أسنانه ويحدق في يديه كأنه غير قادر على استيعاب ما اقترفت يداه:

— "يا إلهي، أنا آسف حقًا".

هزت إيما رأسها قائلة:

— "لا".

كانت سعيدة لأنها استعادت صوتها، حتى وإن خرج من فمها أشبه بالنعيق، وتابعت:

— "ما فعلتَه كان عين الصواب".

تلك الصفعة التي كانت لا تزال تلسع خدها هي التي أخمدت لهيب الذعر. ولم تتوقف عن الصراخ وتستعيد هدوءها إلا بعدها.

اعترفت قائلة:

— "لقد فقدتُ صوابي تمامًا".

وفي تلك الأثناء فكرت: إذن، هكذا يشعر مرضاي حين يبوحون لي بأسرارهم. هل يدركون أيضًا كم كانت تصرفاتهم عبثية حين ينظرون إليها بأثر رجعي؟

كانت إيما قد ظنت أن غريبًا قد أغلق باب الحمام بعنف، لكن عودة فيليب المفاجئة فسرت كل شيء.

بعد أن نسي أوراق محاضرته في المكتب، انعطف عائدًا من الطريق السريع وتوجه إلى المنزل فورًا. حتى إنه اتصل بـ إيما ليخبرها، لكن المكالمة تحولت مباشرة إلى البريد الصوتي بينما كانت هي ملقاة فاقدة الوعي في غرفة المعيشة.

قال فيليب:

– "صعدتُ مباشرة إلى الطابق العلوي حين سمعتكِ تصرخين".

بدا زوجها وكأنه قد شاخ عدة سنوات، وخشيت إيما ألا يكون ذلك مجرد تأثير لإضاءة المصباح المتدلي. بدا صدغاه رماديين، وشعره أكثر خفة، وجبينه مقطبًا بتجاعيد القلق. كل هذا – كما شكت – لم يكن نتيجة بلوغه الأربعين بقدر ما كان نتيجة لما تبدل تمامًا قبل نصف عام: حياتهما.

أرادت إيما أن تنهض، وتمد يدها لـ فيليب، وتمسح على ذقنه – التي حُلقت على عجل هذا الصباح – وتقول: "لا تقلق، كل شيء بخير الآن. دعنا نذهب إلى تيغيل ونستقل أول طائرة إلى أي مكان لم نزره من قبل. يجب فقط أن يكون بعيدًا. دعنا نترك القدر خلفنا".

لكنها لم تستطع. لن تقوى إيما حتى على الوصول إلى الباب الأمامي. يا للمصيبة، إنها لا تستطيع حتى تحريك مقعد المطبخ. لذا اكتفت بالقول:

– "ظننتُ أن أحدهم قد اقتحم المنزل".

– "من؟"

– "لا فكرة لدي. شخص ما".

تنهد فيليب بحزن، مثل صبي صغير كان يأمل أن اللعبة التي أصلحها بعناية ستعمل أخيرًا، ليكتشف عند تجربتها أنها لا تزال مكسورة.

قال:

– "لا يوجد أحد هنا يا إيما. لقد انصفق باب الحمام حين فتحتُ الباب في الطابق السفلي. أنتِ تعلمين مدى قوة التيارات الهوائية هنا".

أومأت برأسها، لكن مع تكشيرة ألم:

– "هذا لا يفسر الرنين".

– "أي نوع من الرنين؟"

التفتت إيما إلى الصوت القادم من خلفها. كان جورجو كابسالوس، أعز أصدقاء فيليب وشريكه في المكتب الفيدرالي للشرطة الجنائية، يقف عند مدخل المطبخ. كان الرجل الثاني الذي رأته في غرفة النوم.

هذا الصباح، حين جاء لاصطحاب فيليب، بقي جورجو في السيارة. أما الآن، فقد دخل وكان يحدق بها كما يفعل دائمًا حين يلتقيان: بنظرة ملؤها الشجن وأمل مبطن.

تجاهل فيليب نظرات شريكه الخفية، أو ربما أساء تفسيرها، لكن إيما خمنت ما يدور في عقل جورجو حين كان يرمقها بتلك السوداوية. إذا كانت إيما تستخدم كونراد أحيانًا لإثارة غيرة فيليب، فإنها لم تكن لتستغل مشاعر جورجو أبدًا لغرض كهذا. فعلى عكس محامي الدفاع، لم يكن شريك زوجها مثليًا على الإطلاق. كان المسكين واقعًا في حبها بلا أمل، وهو أمر عرفته إيما حتى قبل يوم زفافها، حين تمتم جورجو – وكان ثملًا تمامًا – في أذنها وهما يرقصان، قائلًا إنها تزوجت الرجل الخطأ بحق السماء!

كرر سؤاله:

– "أي نوع من الرنين؟"

– "لا أعرف. منبه أو هاتف محمول. أعتقد أن الصوت كان قادمًا من العلية".

لم تسمع شيئًا منذ أن خلع الرجلان باب غرفة النوم واندفعا نحوها.

سأل فيليب شريكه:

– "هل تمانع في تفقد الغرف؟"

صاحت إيما:

– "لا، أرجوك لا تفعل!"

عصرت ذهنها عبثًا بحثًا عن كلمات تشرح بها أنها مرت بكل هذا من قبل.

لقد قامت بتفتيش غرفة ذات مرة وأقنعت نفسها بأنها وحيدة، ليتم اغتصابها بعد ذلك. بالطبع كان الأمر غير عقلاني وغير منطقي تمامًا، لكن إيما خشيت أن تفتيشًا آخر قد يستحضر الشر مرة أخرى، وأن الرعب سيكرر نفسه. وكأن هناك جدول ضرب للشر. معادلة بمجهول اسمه «خطر» ونتيجة حتمية هي: «الألم».

كانت إيما تدرك أكثر من أي شخص آخر أن هذا المنطق مرضيّ. ولهذا السبب أيضًا لم تفصح عنه للرجلين المستقرين نفسيًا، واكتفت بالقول:

– "يجب عليكما الذهاب. لقد عطلتكما بما فيه الكفاية".

قال جورجو ملوحًا بيده بلامبالاة:

– "لا تكوني سخيفة. هذه ليست مشكلة".

كان يتمتع ببنية جسدية مذهلة، رجل مكتنز ومفتول العضلات، من النوع الذي ستسعد بوجوده إلى جانبك على رصيف مترو مظلم حين تتقدم نحوك عصابة من السكارى.

تابع قائلًا:

– "يمكننا تفويت الندوة الأولى. إنها ليست بتلك الأهمية على أي حال".

أومأ فيليب موافقًا:

- "محاضرتي ليست جوهرية أيضًا. ربما من الأفضل أن تذهب بدوني يا جورجو".

هز جورجو كتفيه، ولم يبدُ مسرورًا بشكل خاص، وقال:

- "كما تشاء".

خمنت إيما السبب؛ كان يفضل البقاء بمفرده معها. كان أعز أصدقاء زوجها قد أرسل لها عدة رسائل بريد إلكتروني يعرض فيها مساعدته في أعقاب محنتها الكبرى. وقد حذفتها جميعًا، وحذفت الرسائل الأخيرة دون قراءتها حتى.

أومأ فيليب مرة أخرى قائلًا:

- "نعم، أعتقد أنه من الأفضل أن أبقى هنا. بوسعك أن ترى كم هي مضطربة".

أشار إلى إيما وتحدث وكأنها غير موجودة في الغرفة. عادة أخرى من عادات الزوج غير المثالي.

أضاف:

- "لا يمكنني تركها هنا وحدها".

احتجت إيما:

- "بالطبع يمكنك. ليست مشكلة".

قالت ذلك رغم أن عبارة «ليست مشكلة» كانت تعبر تقريبًا عن عكس ما تفكر به.

اقترب فيليب منها وأمسك يدها:

- "إيما، إيما، ما الذي أزعجكِ بشدة هكذا اليوم؟"

سؤال وجيه.

هل هو إعلان ماكينة الحلاقة الكهربائية؟ إغماؤها؟ وداع سليم؟ صورة "مصفف الشعر" في المصعد؟

أو... لحظة، لا... بل الطرد..

سمعت فيليب يقول:

– "أي نوع من الطرود؟"

مدركة أنها فكرت بصوت عالٍ للمرة الثانية هذا الصباح.

سأل:

– "صندوق الطعام الموجود في الردهة؟"

– "لا، أنا آسفة، لم أفتحه بعد".

حقيقة أنها كادت تنسى إخبار زوجها بشأن الطرد الغريب على مكتبها جعلتها تدرك مدى تشتتها. شعرت في أعماقها أنها تغفل شيئًا آخر، شيئًا جوهريًا، لكنها لم تستطع تحديده في الوقت الحالي. وربما كان الطرد أكثر أهمية بكثير.

قالت:

– "طلب مني سليم أن أحتفظ بشيء لأجل جارنا".

هتف جورجو وفيليب في صوت واحد:

– "وماذا بعد؟"

أضافت إيما:

– "لكنني لم أسمع الاسم من قبل".

اللعنة، ما اسمه مرة أخرى؟ في غمرة محنتها، كانت إيما قد نسيت الاسم فعلًا، لكنها تذكرته بعد لحظة.

– "هل تعرفان شخصًا يدعى أ. بالانت؟"

هز فيليب رأسه.

– "هذا ما قلته. وأنا كذلك لا أعرفه".

اقترح جورجو:

– "ربما هو جديد في المنطقة؟"

قالت إيما بشراسة تقريبًا:

— "كنا سنعرف".

ضغط فيليب على يدها بقوة أكبر وقال:

— "وهذا هو ما أثار قلقك؟ طرد لجار؟"

— "جار مجهول. حبيبي، أعلم أنني أبالغ في رد الفعل..."

تجاهلت تنهيدة فيليب الخفيفة وتابعت:

— "... لكننا نعرف الجميع هنا حقًا، و —"

قاطعها فيليب:

— "وربما يقوم بالتأجير من الباطن، أو ربما هو صهر يعيش مع والدي خطيبته لفترة ويستقبل بريده هنا. هناك مئات التفسيرات البريئة المحتملة".

— "نعم، ربما أنت محق. لكن مع ذلك أود منك أن تلقي نظرة على الطرد. لا بد أنك تعرف تلك الصورة من كاميرا المراقبة في المصعد في —"

اكفهر وجه فيليب وأفلت يدها:

— "هل كنتِ تتصفحين الإنترنت مرة أخرى؟"

وكأنه نطق بكلمة السر، حدث الأمر مجددًا.

طابقان فوقهما.

كان هناك صوت صفير متقطع.

تلاشى الحزن الذي استمع به جورجو إلى محادثتهما وهو مستند إلى إطار الباب، وحل محله تعبير صارم يشي بالتركيز الشديد.

فيليب أيضًا، ارتدى ما تسميه إيما «وجه الشرطي»: عينان ضيقتان، جبين مقطب، رأس مائل إلى جانب، شفتان منفرجتان قليلًا، ولسان يضغط على القواطع العليا.

بعد تبادل سريع للنظرات في الفاصل الزمني بين رنتين، أومأ الرجلان لبعضهما وقال جورجو:

– "سألقي نظرة".

وقبل أن يتسنى لـ إيما الاعتراض، اختفى شريك فيليب في الردهة. وصعد الدرج بخطوات واثقة، ويده مستقرة على الحزام حيث يقبع جراب سلاحه الميري.

الفصل الخامس عشر

همس فيليب وكأنه يخشى أن يسمعه جورجو من الطابقين العلويين:

– "لا يمكن للأمور أن تستمر هكذا يا إيما. عليكِ اتخاذ قرار."

سألت:

– "ماذا تعني؟"

كان الصفير البعيد ينهش أعصاب إيما، فلم تقوَ على التركيز في صوت زوجها. ولا على التعامل مع الصور المروعة التي تداعت في رأسها. صور عما قد يصيب جورجو هناك في الأعلى – حنجرة مشقوقة، مثلًا، تنفتح وتنغلق، ومع كل محاولة فاشلة من الشرطي للصراخ، ينبثق سيل من الدم فوق أرضية غرفة الأطفال التي ستظل غير مكتملة للأبد.

سألت مجددًا:

– "عما تتحدث يا فيليب؟"

اقترب منها زوجها وانحنى لتلامس وجنته وجنتها التي تلقت الصفعة.

– "العلاج يا إيما. أعرف أنكِ تريدين تجاوز هذا وحدكِ، لكنكِ تجاوزتِ خطاً فاصلاً."

ارتجفت إيما حين شعرت بأنفاسه تلفح شحمة أذنها. للحظة ظنت أنها تتذكر اللسان الذي انغرس في أذنها وسط ظلام غرفة الفندق، بينما

كانت مشلولة لا تقوى إلا على إطلاق صرخات مكتومة. لكن فيليب قال بصوت خافت:

— "عليكِ حقًا البحث عن معالج يا إيما. لقد تحدثت مع الدكتورة فيلانت بشأن هذا."

سألت إيما برعب:

— "طبيبة الشرطة النفسية؟"

— "إنها تعرف قضيتك يا إيما. الكثيرون مطلعون عليها. علينا التحقق من الـ..."

تلعثم، مدركًا بوضوح أنه لا يستطيع إكمال الجملة دون أن يجرح زوجته.

أكملت عنه:

— "... التحقق من وقائع إفادتي. لا تقل المزيد. وإذًا، ما رأي الدكتورة فيلانت؟ أنني كاذبة مرضية تختلق قصص الاغتصاب للتسلية؟"

أخذ فيليب نفسًا عميقًا:

— "إنها قلقة من كونكِ تعرضتِ لصدمة عميقة في طفولتك..."

— "أوه، اخرس!"

— "إيما، لديكِ خيال حي وجامح. في الماضي كنتِ ترين أشياء لا وجود لها."

صرخت فيه:

— "كنت في السادسة من عمري!"

— "طفلة أهملها والدها، فاختلقت بديلاً خياليًا لتعويض غياب عاطفته."

ضحكت إيما:

– "هل كان على الدكتورة فيلانت أن تكتب لك هذا، أم حفظته عن ظهر قلب من المرة الأولى؟"

– "إيما، أرجوكِ..."

– "أنت لا تصدقني إذًا؟"

– "لم أقل ذلـ..."

قاطعته بفحيح غاضب:

– "إذًا أنت تظن الآن أنني أعاني من هلاوس أيضًا، أليس كذلك؟ أنني توهمت الأمر برمته؟ الرجل في غرفة الفندق، الحقنة، الألم؟ الدم؟ أوه، ماذا أقول، ربما لم أكن حاملاً حتى. ربما اختلقت ذلك أيضًا؟ والإنذار في العلية، هو أيضًا مجرد خيال في رأسي..."

صمتت فجأة.

يا إلهي.

لم يعد الصفير في رأسها حتى.

لقد توقف.

حبست إيما أنفاسها. نظرت إلى السقف الذي كان بحاجة ماسة لطبقة طلاء. قالت لفيليب وهي تضغط يدها على فمها:

– "أرجوك قل لي أنك سمعته أنت أيضًا."

بعد انفجارها الغاضب، بدا الصمت المفاجئ كنذير شؤم لأخبار مروعة.

– "لقد سمعته، أليس كذلك؟"

لم يجبها فيليب، لكن إيما سمعت وقع خطوات تهبط الدرج. التفتت نحو الباب، حيث ظهر جورجو بوجه محتقن.

سأل:

– "هل لديكم أي بطاريات؟"

كررت بذهول:

— "بطاريات؟"

قال جورجو وهو يعرض عليها بطارية صغيرة بقوة تسعة فولت في راحة يده:

— "لجهاز إنذار الدخان. عليكِ تغيير هذه البطاريات كل خمس سنوات على الأكثر، وإلا ستبدأ في إطلاق صفير مثل ذلك الموجود في عليتكم."

أغمضت إيما عينيها. سعيدة لوجود تفسير بريء للصفير، لكنها محبطة أيضًا بطريقة غير منطقية. من حيث الجوهر، لقد أصيبت بانهيار عصبي بسبب إشارة من كاشف دخان، ولا شك أن رد الفعل المبالغ فيه هذا لم يؤدِ إلا لتعزيز شكوك زوجها حول قواها العقلية.

قال فيليب وهو يحك مؤخرة رأسه:

— "غريب. هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. لقد فحصت الأجهزة الأسبوع الماضي فقط."

سمعت جورجو يقول:

— "يبدو أن الفحص لم يكن دقيقًا بما يكفي. ها يا إيما؟"

للحظة، لم تكن لديها أدنى فكرة عما يرمي إليه.

كرر:

— "بطاريات؟"

— "انتظر، سألقي نظرة."

تجاوزت جورجو وفيليب وكانت في طريقها إلى غرفة المعيشة حين تذكرت فجأة ما نسيته سابقًا.

سامسون!

في خضم كل تلك الجلبة نسيته تمامًا، والآن فقط، وهي تنظر إلى بطانية نومه بجوار المدفأة، أدركت ما كان عقلها الباطن يلح عليها بشأنه.

لماذا لم يأتِ حين ناديته؟

رفع سامسون رأسه بوهن وبدا وكأنه يبتسم حين رأى صاحبته. فزعت إيما من تعبيره الحزين. كان تنفسه ضحلاً وأنفه جافًا.

سألته وهي تتجه نحو الرفوف حيث يوجد مقياس الحرارة الإلكتروني في الدرج السفلي:

– "هل تتألم يا صغيري؟"

ألقت نظرة خاطفة على المكتب، وفجأة عجزت عن التفكير في حالة سامسون بعد الآن.

ليس حين رأت المكتب.

حيث كان الطرد الذي أعطاها إياه سليم في وقت سابق.

خطأ.

حيث كان يجب أن يكون.

لأنه في المكان الذي وضعته فيه قبل فتح حاسوبها المحمول، لتلقي نظرة أخرى على صورة مصفف الشعر في المصعد، لم يعد هناك شيء يُرى الآن.

لقد اختفى الطرد الخاص بـ أ. بالانت.

الفصل السادس عشر

بعد ثلاثة أسابيع

سألها:

— "ثم تركاكِ وحيدة؟"

حافظ كونراد على ثباته التام وهو يصغي إليها؛ بالكاد تحرك، فلم يبدل وضع ساقيه، ولم يفك تشابك يديه المستقرتين في حجره. كانت إيما تدرك السبب؛ فقد أخبرها ذات مرة حين أبدت ملاحظة حول تحكمه الجسدي المذهل:

مع الموكلين المراوغين — أولئك الذين يخفون شيئًا ما — فإن أدنى حركة قد تشتت تسلسل أفكارهم.

أصبحتُ الآن واحدة من هؤلاء في نظره.

لم تعد إيما تلك الصديقة التي هي بمثابة ابنة، بل غدت موكلة صعبة المراس يجب تمحيص أقوالها بدقة متناهية.

قال كونراد وهو يفرقع أصابعه:

— "إذن، وبرغم حقيقة أن الطرد قد اختفى دون أثر، غادر فيليب وزميلُه؟ هكذا ببساطة؟"

— "لا، بالطبع ليس هكذا ببساطة".

التفتت إيما لتنظر عبر النافذة. كانت البحيرة مدفونة تحت طبقة رقيقة من الثلج. من هذه المسافة، بدا المشهد مغريًا للتزلج، لكن إيما كانت تعلم كم هي خادعة تلك المظاهر. ففي كل عام، يسقط أناس عبر الجليد في بحيرة فانزيه، بعد أن يفرطوا في تقدير صلابته. ولحسن الحظ، لم ترَ اليوم أي شخص يملك من الجرأة أو التهور ما يدفعه لتحدي القدر، وربما كان للطقس البائس دور في ذلك. لم يكن هناك أي أثر لبشر على البحيرة أو حولها. فقط بضع بطات وبجعات تجمعت عند الضفة، متحدية المطر الثلجي السائد الذي صبغ المشهد برمته بلون رمادي كئيب.

قالت إيما مفسرة:

— "لقد كذبتُ على فيليب. أخبرته أن أعصابي لا بد وأنها خدعتني، وأنني ربما لم أشرب ما يكفي من الماء. ولهذا فقدتُ الوعي وتوهمتُ وجود طرد لم يكن له وجود أصلًا".

سأل كونراد بشك:

— "وصدق ذلك؟"

— "لا، لكن حين تناولتُ حبة ديازيبام أمامه، أدرك أنني سأغرق في النوم لنصف يوم".

— "هل تتناولين ذلك لعلاج اضطراب القلق؟"

تذكرت إيما أنه محامٍ وليس طبيبًا. استطاعت أن ترى في مخيلتها كيف بدأ بالفعل يصوغ نظرية حول "المسؤولية المخففة" بسبب الإفراط في تناول الأقراص. ومع ذلك، كان يملك بين يديه ما هو أكثر بكثير من مجرد تعاطي مواد مخدرة تافهة ليدفع بعدم أهليتها العقلية نيابة عنها. لكنهم سيصلون إلى ذلك في الوقت المناسب.

أجابت:

— "نعم. في الواقع، كان لورازيبام ليكون خياري المفضل. إنه دواء أحدث، ومفعوله أسرع، ولا يسبب الخدر الشديد مثل ديازيبام الذي يجعلك منهكًا للغاية. لكنه للأسف كان كل ما توفر لدي في المنزل".

— "إذن تناولتِ قرص الدواء، ثم ذهب كلاهما إلى المؤتمر في باد ساروف؟"

— "نعم، بعد أن فحصا أجهزة إنذار الحريق في كل غرفة، وقاما بتفتيش المنزل بالكامل بما في ذلك القبو".

لم تستطع إيما تحديد ما إذا كانت شفتاه المطبقتين بقوة أو نبرة صوته المتحشرجة هي السبب، لكنها شعرت بوضوح أن كونراد مستاء بشدة من تصرف زوجها. لم يكن الرجلان على وفاق أبدًا، وبالطبع لم يساعد في ذلك تجاهل إيما لتعليقات فيليب الساخرة حول «الأب الراعي»، بل إنها كانت تغذي غيرته. ومن جانبه، غالبًا ما كان كونراد يرفع حاجبه استهجانًا لذلك «الفلاح» الفظ الذي يناول الهاتف دون تحية، أو يصافحه بفتور في المرات النادرة التي يلتقيان فيها.

لكن في هذه الحالة تحديدًا، كان انتقاد كونراد لـ فيليب ووصفه بالفظاظة أمرًا غير مبرر. فلو كان هو مكان فيليب وتوسلت إليه بالطريقة نفسها، لوجد صعوبة في رفض طلبها أيضًا.

"أحتاج إلى الهدوء والسكينة يا فيليب. سأكون أكثر توترًا لو عرفت أنك تفوت محاضرتك بسببي فقط. لقد أخذت دوائي الآن. لقد فتشتما المنزل بالكامل، وعلى أي حال، ستمر سيلفيا بعد ظهر اليوم للاطمئنان علي، لذا أرجوك، اصنع لي ولنفسك معروفًا واتركاني وحدي. اتفقنا؟"

لم تكن أي كلمة من ذلك كذبًا، ومع ذلك لم يكن أي منها صادقًا.

سألها كونراد وهو يسكب لها بعض الشاي:

— "هل أتى الدواء مفعوله؟"

سيكون عليه قريبًا استبدال الشمعة الصغيرة في السخان، فقد كاد الفتيل يغرق في الشمع الذائب.

– "يا للهول، لقد فعل".

– "شعرتِ بالتعب".

أخذت إيما الكوب المقدم إليها وارتشفت قليلًا من الشاي. كان طعم مزيج «آسام» حلوًا ومرًا وقابضًا، وكأنه تُرِك ليتخمر لفترة أطول من اللازم.

– "كاد الديازيبام يطرحني أرضًا. شعرت بالنعاس كما لو كنتُ أحضر لعملية جراحية".

– "وتخلصتِ من القلق؟"

– "ليس في البداية. ولكن كان ذلك أيضًا بسبب..."

– "ماذا؟"

– "شيء ما... حدث شيء ما بينما كانا يغادران".

رفع كونراد حاجبيه وانتظر منها أن تتابع الحديث.

– "جورجو. مدّ لي يده..."

– "وماذا بعد؟"

– "ودسّ شيئًا في يدي".

– "ماذا؟"

– "ورقة".

– "ماذا كان مكتوبًا فيها؟"

– "ألطف شيء قاله لي رجل منذ دهور".

سأل كونراد:

– "أحبك؟"

هزت إيما رأسها. وقالت وهي تتوقف قليلًا لتسمح للكلمات بأن تأخذ وقعها:

– "أنا أصدقك".

لم يبدُ كونراد متفاجئًا، ولكن مع وجه البوكر المدرب جيدًا الذي يمتلكه، لم يكن ذلك يعني الكثير.

كرر بصوت خافت:

– "أنا أصدقك".

– "كان جورجو قد خربش تلك العبارة على قصاصة ورق صغيرة. وأضاف أنه يجب عليّ الاتصال به. عقدت المفاجأة لساني حين قرأت الرسالة بمجرد خروجهما من الباب".

– "ماذا حدث بعد ذلك؟"

جفلت إيما قبل أن تجيب كونراد:

– "أنت تعرف ما حدث".

– "أريد أن أسمعه منكِ".

– "أنا، أنا..."

أغمضت عينيها. تخيلت بابها الأمامي. من الداخل. رأت يدها تمتد نحو المقبض، وتدير المفتاح مرتين.

أكملت جملتها قائلة:

– "فعلتُ ما لا يمكن تصوره".

أومأ كونراد ببطء:

– "لأول مرة منذ ستة أشهر؟"

– "نعم".

مال كونراد بجذعه للأمام:

– "لماذا؟"

رفعت رأسها ونظرت مباشرة في عينيه. استطاعت أن ترى انعكاسًا دقيقًا لنفسها في حدقتيه.

همست قائلة:

– "بسبب الدم. فجأة، كان الدم في كل مكان".

الفصل السابع عشر

قبل ثلاثة أسابيع

كانت إيما تجثو وسط بركة حمراء في منتصف غرفة المعيشة، في المسافة الفاصلة بين المدفأة ومكتبها. شعرت بهدوء غريب. تدفقت الدماء بغزارة، وبشكل مفاجئ تمامًا رغم الأزيز واللهاث الذي سبق ذلك.

شهيق عميق، تشنج عضلي في أعلى الصدر. صوت بدا وكأن كائنًا حيًا يُزفر خارج الجسد، ثم تقيأ سامسون عند قدميها.

— "حبيبي المسكين، ما بك؟"

بينما كانت تمسح على رأسه، شعرت به يرتجف، وكأنه يشعر بالبرد مثلها تمامًا. كان فيليب وجورجو قد غادرا منذ نصف ساعة بالكاد، وهي المدة التي قلبت فيها المنزل رأسًا على عقب مرة أخرى بحثًا عن الطرد الذي اختفى بالفعل.

لكن هذا مستحيل!

منهكة بشكل لا يصدق، وظهرها غارق في العرق، عادت إيما إلى غرفة المعيشة من الردهة بعد أن فتشتها مرة أخرى. في لحظة يأس، همت بتفقد ما تحت بطانية سامسون لعل الكلب قد فكر في أخذ الطرد إلى مكان نومه. وبدلاً من ذلك، وجدته في هذه الحالة المزرية.

— "هييه، سامسون. هل تسمعني؟"

بدأ كلب الهاسكي في التقيؤ مجددًا.

في الظروف الطبيعية، لكان عقل إيما قد طار من الرعب، ولغطت فمها بيديها فزعًا من أن هذا الموقف اليائس أكبر من قدرتها على الاحتمال. لكن الآن، كان قرص «الديازيبام» الأول يهذب أكبر موجات القلق دون أن يمحوها تمامًا. كان الأمر يشبه التخدير عند طبيب الأسنان. لم تعد تشعر بالألم الحاد، لكن ثمة وجع عام ومكتوم ينتظر فقط أن يشتعل مجددًا لحظة زوال مفعول الحقنة.

ماذا الآن؟

نظرت إلى الخارج. حط طائر غراب الزيتون على شجرة ماغنوليا جرداء وبدا وكأنه يلوح لها، لكن إيما كانت تتوهم ذلك بالطبع. الثلوج الكثيفة كانت لا تزال تتساقط ولم تستطع إيما تمييز عيني الطائر.

بل كان عقلها الباطن هو من يخبرها بما يجب عليها فعله.

عليكِ مغادرة المنزل!

قالت:

— "لا!"

لكنها بالكاد سمعت صوتها لأن سامسون كان يتقيأ مجددًا. هذه المرة كان القيء مصحوبًا بدم أقل، لكن ذلك لم يجعل الأمر أفضل حالًا.

نعم، وأنتِ تعلمين ذلك. عليكِ الخروج، سامسون بحاجة للمساعدة!

هزت إيما رأسها وذهبت إلى المكتب حيث هاتفها المحمول:

— "مستحيل."

بمن ستتصلين إذن؟

بمن تظنين؟ طبيب الطوارئ البيطري.

هل أنتِ واثقة؟

بالطبع، انظري إليه فقط.

نظرت إلى سامسون.

قال الصوت في رأسها، الذي بدا كنسخة ناضجة من صوتها:

أسمع ما تقولين. ربما لم يتبق له وقت طويل. لكن هل هذا ما تريدين فعله حقًا؟

أنقذه؟

قال الصوت:

أن تعرضي نفسك للخطر.

وكأن صاعقة أصابتها، استغرق الأمر بعض الوقت لتهضم إيما هذه الكلمات. ثم أعادت هاتفها إلى المكتب.

أنت محق.

لا أستطيع الاتصال بأحد.

لأنه لن يكون مجرد اتصال واحد. في مرحلة ما سيكون هناك غريب عند بابها الأمامي. طبيب بيطري لا تعرفه، لكن سيتعين عليها إدخاله، لأنها لا تستطيع إرسال سامسون إلى الخارج في البرد ليُفحص. وفي النهاية، سيتوجب عليها الذهاب معه إلى العيادة البيطرية على أية حال إذا تبين أنهم لا يستطيعون علاجه في المنزل.

لعنت قائلة:

— "تبًا."

كان سامسون ممددًا الآن على جانبه، في وضعية الجنين تقريبًا، ويلهث. لسانه يتدلى بوهن من فمه وأنفه جاف تمامًا. خيط من الدم يسيل من خطمه الأسود إلى أرضية الباركيه.

ما خطبك بحق السماء؟

وماذا عليَّ أن أفعل؟

لا يمكنها إدخال غريب إلى المنزل، ليس وهي في حالتها هذه. لكن البديل المنطقي الوحيد – مغادرة المنزل – كان مرعبًا بنفس القدر على الأقل.

للحظة تساءلت إيما عما إذا كان يجب عليها الاتصال بفيليب، لكن ذلك سيقضي على مؤتمره نهائيًا، وإيما لم ترد ذلك.

ربما هو مجرد فيروس؟

بينما كانت إيما تمسح على فراء سامسون الأبيض، بالكاد استطاعت الشعور بأضلاعه حين يتنفس. قد يكون التهابًا رئويًا، لكن الأعراض كانت حادة جدًا وظهرت فجأة.

على الأقل عرفت الآن لماذا كان سامسون واهنًا طوال الوقت.

كلبي المسكين، يبدو من الأرجح أن شخصًا ما...

قفزت واقفة، مذهولة من هذه الفكرة الصادمة.

... أن شخصًا ما سممك!

لم تستطع إيما طرد صورة سليم من رأسها وهو يسألها إن كان الأمر مسموحًا ويعطي سامسون مكافأة.

لا، لا، لا. هذا هراء.

كانت أفكار إيما تنساب إلى وعيها بنصف السرعة، وهو تأثير نموذجي للمهدئ. كانت لا تزال قادرة على التفكير المنطقي، لكن كل شيء يستغرق ضعف الوقت.

لكن ليس سليم. إنه يعطي سامسون شيئًا في كل مرة، ولم يحدث شيء من قبل أبدًا.

في الخارج، غادر الغراب مجثمه. رأت إيما ريش ذيله فقط وهو يطير بالضبط في الاتجاه الذي كان عليها التحرك نحوه الآن أيضًا.

عيادة الدكتور بلانك البيطرية كانت على بعد مربع سكني واحد باتجاه "هيرشتراسه".

لكن سيتعين عليها ارتداء شيء دافئ، ووضع المقود لسامسون، وربما حمله حتى، رغم أن هذا لم يكن ما يقلقها بشدة.

المشكلة الكبرى هي أن عليها فتح الباب الأمامي ومغادرة حماية جدرانها الأربعة لأول مرة منذ ستة أشهر تقريبًا.

قالت:

– "لا، لا أستطيع. هذا أمر لا يمكن تصوره."

وهو بالطبع تناقض، لأنها كانت تفكر في الأمر للتو. كانت تفكر أيضًا أنها لن تنجح أبدًا في هدم الجدار الذي بُني بينها وبين الحياة في الخارج، وأن تخطو ليس خطوة واحدة بل عدة خطوات نحو عالم لم تعد تريد أي علاقة به.

لا، لن أنجح في ذلك.

رغم أن الدكتور بلانك كان أقرب طبيب بيطري، خمس دقائق سيرًا على الأقدام، وعيادته تظل مفتوحة حتى السادسة، بينما معظم العيادات الأخرى في برلين مغلقة أيام السبت.

لا أزال غير قادرة.

إنه أمر لا يمكن تصوره.

وقفت إيما بلا حراك لربع ساعة بجوار الحيوان المتألم عند قدميها، حتى اتخذت القرار بأن تحاول تدبر الأمر دون مساعدة خارجية في الوقت الحالي.

عندها، توقف تنفس سامسون للمرة الأولى.

الفصل الثامن عشر

ينهش القلق الروح، ويحيل البشر خواءً من الداخل. كما أنه يقتات على عمر البشر؛ فقد استغرق الأمر من إيما نصف ساعة لترتدي شيئًا دافئًا، واحتاجت إلى عدة محاولات لمجرد ربط حذاء برقبة قبل أن تسحب أصابعها اللزجة سحّاب سترتها المبطنة، ثم فتحت الباب وهي تتصبب عرقًا، في عملية تطلبت دهرًا آخر، أو هكذا خُيِّل إليها.

في تلك اللحظة، كانت الآثار الجانبية لعقار الديازيبام، الذي ابتلعته بجرعة من ماء الصنبور، تطغى على مفعوله المباشر. كانت إيما تشعر بإعياء شديد، غير أن الطوق الحديدي المطبق على صدرها أبى أن يرخي قبضته.

لحسن الحظ، عاد سامسون للتنفس مجددًا، رغم عجزه عن البقاء واقفًا لفترة طويلة. ولكي تزداد الأمور سوءًا، تحتم على إيما أن تنعطف نحو السقيفة؛ ذلك الكوخ المعدني الرمادي الصغير القابع في مؤخرة الحديقة.

إذا لم تكن مخطئة، فإن الزلاجة لا تزال معلقة على الجدار هناك. كان فيليب قد ابتاعها عند انتقالهم، بناءً على افتراض خاطئ بأنهم سيستخدمونها بانتظام، نظرًا لأنهم يعيشون الآن بالقرب من تويفيلسبيرغ.

حسنًا، ربما تؤتي ثمنها اليوم كوسيلة نقل لـ سامسون.

كانت أنفاس إيما تتلاحق بثقل وهي تركز بصرها على مسارها عبر العشب المكسو بالثلج. تجر قدميها بتردد، مثل مريض يحاول القيام بخطوته الأولى بعد جراحة كبرى، ترنحت بضعف نحو الأمام.

كانت كل خطوة اختبارًا للشجاعة.

كان المشي شاقًا للغاية، وكأنها مضطرة لقطعه وهي تحمل أسطوانات غوص على ظهرها وترتدي زعانف سباحة. غاصت قدماها حتى الكاحلين، واضطرت للتوقف أكثر من مرة لاستعادة أنفاسها.

على الأقل لم تكن ترتجف، وربما يُعزى ذلك إلى أن روحها كانت قد تجمدت بالفعل لدرجة لم يعد هناك متسع للشعور بالبرد جسديًا.

أو ربما أعاني بالفعل من «جنون انخفاض الحرارة»، وهو الاسم الذي يطلق على ظاهرة نفسية تجعل بعض الأشخاص الذين أوشكوا على الموت تجمدًا يعتقدون أنهم يشعرون بحرارة شديدة. وهذا يفسر لماذا يُعثر أحيانًا على الجثث المتجمدة عارية في العراء؛ إذ تمزق تلك الأرواح المسكينة ملابسها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

فكرت إيما: حسنًا، لو كان الخوف قميصًا، لخلعته بسعادة، وقد فاجأها أنها لا تشم أي شيء هنا في الحديقة. لا رائحة للثلج، ولا للتراب، ولا حتى لرائحة عرقها. كانت الريح تهب في الاتجاه الخاطئ، حاملة ضجيج قطار «إس بان» من محطة هيرشراس القريبة إلى الحدائق. ورغم أن حاسة سمعها كانت أفضل قليلًا من المعتاد، إلا أن بصرها كان أسوأ.

بدا وكأن الحديقة تضيق مع كل خطوة. استغرق الأمر منها وهلة لتدرك أن الذعر كان يقلص مجال رؤيتها.

اختفت الشجيرات أولًا، ثم أشجار الكرز والوردية، وفي النهاية لم يتبق سوى نفق أسود طويل يودي مباشرة إلى السقيفة.

اضطرابات بصرية.

كانت إيما تعرف أعراض نوبة الهلع الوشيكة: جفاف الفم، تسارع دقات القلب، وتغير في إدراك الألوان والأشكال.

وخوفًا من أنها لن تتمكن من التقدم خطوة أخرى إذا توقفت الآن، ترنحت إيما للأمام حتى بلغت السقيفة أخيرًا.

دفعت الباب لتفتحه، ومدت يدها بشكل أعمى لتلتقط الزلاجة التي علقها فيليب بنظام على الحائط بجوار الباب.

كانت قطعة بلاستيكية بلون أحمر فاقع، خفيفة وعريضة ومقوسة كالمجرفة. الحمد لله أنها لم تكن من تلك الزلاجات الخشبية الثقيلة عتيقة الطراز ذات القضبان، والتي كان من السهل جدًا أن يسقط سامسون من عليها.

في طريق العودة، تحسن شعور إيما قليلًا. نجاحها في العثور على الزلاجة بثّ فيها بعض الثقة على الفور.

واتسع مجال رؤيتها مجددًا أيضًا. كانت الشجيرات في أماكنها، رغم أنها كانت تتحرك بطريقة غير طبيعية بالمرة. ليس جانبيًا، كما لو كانت الرياح تحركها، بل صعودًا وهبوطًا مثل الأكورديون.

أمر مربك، لكنه لا يقارن بالرعب الذي أثارته آثار الأقدام التي لم تلحظها إيما في طريق ذهابها.

نظرت إلى طبعات الأحذية الثقيلة في الثلج أمامها. لا يمكن أن تكون لها، فهي أكبر بثلاثة مقاسات على الأقل. وكانت تتجه في مسار واحد فقط.

نحو السقيفة.

التفتت إيما عائدة ببصرها إلى الكوخ الرمادي. لقد تركت بابه مفتوحًا.

هل كان يتحرك؟

هل يوجد أحد بالداخل؟

هل يعقل أنها انتزعت الزلاجة في الظلام وتجاهلت رجلًا يربض خلف جزازة العشب؟

لم تستطع إيما رؤية شيء أو أي شخص، لكن الشعور بأنها مراقبة ظل يلازمها.

اخرجي!

نادت مسرعة:

— "سامسون، تعالَ إلى هنا! يا مسكين، تعالَ أرجوك!"

أطاع المخلوق المتألم أمرها، ونهض بصعوبة عن ممسحة الأرجل حيث كان ينتظرها. كان صوته يشبه المصاب بالسعال الديكي.

— "شكرًا يا حبيبي. كلب مطيع".

ربتت على مقعد الزلاجة البلاستيكية، فجرّ جسده إليها ثم تهاوى فوقها وهو يشهق.

قالت إيما مواسية الكلب ونفسها:

— "لا تقلق. سأساعدك".

مسحت على رأسه، وجزت على أسنانها، وسحبت سامسون بالحبل نحو الطريق. وارتكبت حماقة حين التفتت إلى الوراء، إذ خيل إليها أنها رأت ظلًا خلف النافذة الصغيرة في الباب.

هل تحركت الستارة للتو؟

لا، كانت تتدلى بسكون، ولم يكن خلفها ضوء يمكن أن يلقي بظل. ومع ذلك. شعرت إيما وكأن عيونًا غير مرئية تلاحقها.

اخرجي... قبل فوات الأوان.

فتحت تلك العيون جراحًا، تسربت منها كل شجاعتها.

فكرت: لو كانت رغبتي في الحياة سائلًا، لتركتُ ورائي أثرًا أحمر اللون. وسيكون ذلك عمليًا؛ إذ سأحتاج فقط لاتباعه لأعرف طريق العودة.

أمسكت بحبل الزلاجة، الذي انزلق من يدها للحظة، وأجبرت نفسها على المضي قدمًا مرة أخرى. إلى الطبيب البيطري.

بعيدًا عن المنزل المظلم خلفها، الذي اعتقدت أن عيونًا ميتة تراقبها من نافذته. تنتظر عودتها.

بافتراض أنها ستعود أصلًا.

الفصل التاسع عشر

سأل الدكتور بلانك وهو يتفحص صدر سامسون بالسماعة الطبية:

– "منذ متى وهو في هذه الحالة؟"

كان المخلوق المسكين موصولاً بمحاليل تمدّه بالشوارد ومادة يُفترض أن تحفزه على القيء في غضون دقائق. منذ أن رفع الطبيب البيطري كلب الهاسكي بصعوبة فوق طاولة الفحص بمساعدة إيما، بالكاد كان سامسون واعيًا. كان يرتجف بين الفينة والأخرى مع كل زفير، لكن تلك كانت علامة الحياة الوحيدة فيه.

– "منذ متى؟ حسنًا، أنا، أظن..."

كان صوت إيما يرتجف بشدة كركبتيها.

شعرت وكأنها كانت تركض للنجاة بحياتها، لا مجرد قطع مسافة ثلاثمائة متر حول الزاوية. في ذهنها، كانت الثلاثمائة متر تعادل ماراثونًا كاملاً.

مرتي الأولى في الخارج وحدي، ومع كلب يقترب من الموت بقدر اقترابي من الجنون.

وهي تتأمل إنجازها تحت الضوء القاسي لمصباح الهالوجين الذي يحوم فوق سامسون، لم تكد تصدق أنها نجحت. نجحت في الوصول إلى هنا، إلى المنزل العريض في نهاية الصف بواجهته الكريمية ومصاريع

نوافذه الخضراء. كان المرآب قد حوّل إلى غرفة انتظار منذ سنوات. ولحسن الحظ لم تضطر إيما لقضاء وقت طويل هناك. باستثناء طفلة صغيرة كانت تجلس باكية وسلة قطة في حضنها، كانت هي المريضة الوحيدة. ونظرًا لخطورة أعراض سامسون، أُدخلت فورًا.

أخيراً تمكنت إيما من إكمال جملتها:

— "لست متأكدة. لقد كان خاملاً منذ الصباح. أعتقد أن الأمر بدأ حوالي الساعة الحادية عشرة."

دمدم الطبيب البيطري، ولم تستطع إيما تمييز ما إذا كانت دمدمة رضا أم قلق.

لقد اكتسب بعض الوزن منذ آخر مرة رأته فيها، لكن ذلك كان منذ فترة، في الزمن السابق، خلال حفل الحي الذي تنظمه جمعية السكان كل عام. كانت المريلة المنشاة حديثًا ضيقة قليلاً حول بطن الرجل الذي يبلغ طوله 1.90 مترًا. وقد نبت له ذقن مزدوج خفيف ووجنتان ممتلئتان، مما جعله يبدو أكثر وداعة من ذي قبل. بدا بلانك الآن كدبدوب كبير بشعر بني فاتح أشعث، وأنف عريض، وعينين حزينتين صغيرتين كالأزرار.

سأل:

— "هل أكل شيئاً غير معتاد؟"

تحسست إيما بتوتر غطاء الرأس الذي يخفي شعرها القصير. إذا كان بلانك يتساءل لمَ لم تخلعه، فهو لم يظهر ذلك.

— "نعم، أعني لا. أنت تعرف سليم، أليس كذلك؟"

— "عامل التوصيل لدينا؟"

— "لقد أعطى سامسون بسكويت كلاب، هو يعطيه واحدة دائمًا."

— "هممم."

كان بلانك يرتدي قفازات طبية من اللاتكس، شبيهة بتلك التي مسدت رأسها. هناك في ظلام غرفة الفندق.

سألت الطبيب البيطري ويدها على صدر سامسون، محدقة في خزانة بيضاء بواجهة زجاجية، وعيناها مثبتتان على عبوات الشاش والأطواق الجراحية وكأنها آسرة كعمل فني:

— "ماذا سيحدث الآن؟"

أجاب بلانك وهو يتفحص المحلول بنظرة فاحصة، مشيرًا إلى مصرف الطاولة:

— "علينا الانتظار كبداية. نحن نعالجه بناءً على التخمين؛ هناك علامات كثيرة تشير إلى تسممه. بمجرد أن يتقيأ سنعطيه بعض الفحم النشط لامتصاص أي سموم. مساعدتي تتصل حاليًا بمندوب المختبر. فور الانتهاء من ذلك سنوصل سامسون بقسطرة بولية لمنع جدار المثانة من إعادة امتصاص السم. ثم، بالطبع، هناك كوكتيل الأدوية المعتاد."

أومأت إيما. الإجراءات ذاتها المتبعة مع البشر.

— "كل شيء بناءً على التخمين حتى نحصل على صورة الدم."

— "هل يمكن أن يكون أي شيء آخر غير التسمم؟"

نجح بلانك في الإيماء وهز كتفيه في آن واحد:

— "مستبعد. سنعرف تفاصيل أدق حين تظهر نتائج المختبر."

ربت على اللاصق الذي يغطي مكان الحقنة في ساق سامسون الخلفية، حيث سحب الدم.

— "لدي علاقات جيدة في العيادة البيطرية في دوبل، سأحصل على النتائج صباح الغد على أقصى تقدير."

لاحظت إيما أن عينيها تمتلئان بالدموع. لم تستطع الجزم ما إذا كان ذلك بسبب الإرهاق أم الخوف من أن يكون الوقت قد فات وأن السم قد شق طريقه بالفعل بشكل لا رجعة فيه داخل جسد سامسون.

— "الأفضل أن تتركيه هنا تحت الملاحظة للأربع وعشرين ساعة القادمة يا سيدة شتاين."

توقف بلانك للحظة ولامست يده يدها عرضًا بينما كانا يمسدان رأس سامسون معًا.

— "إنه هنا بحال أفضل من المنزل."

وأتبع ذلك بسؤال محير.

— "على ذكر المنزل. هل جف قبوكم مجددًا؟"

— "عفوًا؟"

— "المياه التي تسربت الشهر الماضي. حدث الشيء نفسه هنا مرة. مر دهر قبل أن نتمكن من التخلص من سخانات التجفيف. قلت في نفسي: يا إلهي، مسكينة السيدة شتاين. أعني، أولاً مرضك ثم شيء كهذا. لا أحد يحتاج لذلك. لقد أخبرني زوجك بكل شيء عن الجلبة التي أحدثها انفجار الأنابيب."

— "فيليب؟"

انفتح باب غرفة العلاج ودخلت ممرضة بدينة مسنة. منحت إيما ابتسامة مرحة وهي تسير نحو خزانة الأدوية بصندل «بيركنستوك» الذي يصدر صريرًا، ويفترض أنها تجهز كل شيء لعلاج سامسون.

واصل بلانك حديثه غير عابئ:

— "لقيتُه في المدينة صدفة. لابد أن ذلك كان قبل أربعة أسابيع تقريبًا. صدفة عجيبة. كنت في المناوبة، وكان عليّ الذهاب لفندق في ذلك المساء، لعلاج كلب الـ (تشيواوا)، هل تذكرين؟"

وجه كلامه للممرضة التي أومأت بتعب.

ابتسم بلانك هازًا رأسه:

— "كان كلب لامرأة أمريكية داس على قطعة زجاج. وأنا مغادر رأيت زوجك جالسًا في الردهة."

بينما كانت إيما تستمع لكلمات الطبيب، تدفقت موجة حرارة وضربت قفصها الصدري من الداخل.

كررت وكأنها في غيبوبة:

— "زوجي؟ في الردهة؟"

— "نعم. قلت في نفسي: يا للعجب، أتساءل ما الذي يفعله السيد شتاين هنا. ثم رأيت المشروبين على الطاولة، وحين ألقيت التحية أخبرني أنكما مضطران لقضاء الليلة هنا حتى ينتهي الأسوأ."

رن جرس الباب وعادت مساعدة بلانك إلى الاستقبال.

— "ليس أنني كنت فضوليًا، انتبهي، أو ظننت أنه يخطط لشيء ما، لكن لاحقًا فكرت أن المرء كان يمكن بسهولة أن يستنتج استنتاجات خاطئة. أعني، من ينام في فندق بمدينته، إلا إذا..."

أكملت إيما جملته بنبرة خاوية:

— "... كان لديه عمال بناء في المنزل؟"

تحويل الحضانة.

التي لن تُستخدم أبدًا.

أو إصلاح أضرار مياه.

التي لم تحدث أبدًا.

— "حسنًا، آمل أن المضخات قد أزيلت وأن أرضيتكم جافة مجددًا. سيدة شتاين؟"

أرخت إيما قبضتها عن فراء سامسون، مدركة أنها لابد كانت تحدق في بلانك لفترة طويلة بوجه خالٍ من التعبير. لولا المهدئ لكانت قد ملأت المكان صراخًا على الأرجح، لكن «الديازيبام» أمات مشاعرها.

– "هل كل شيء على ما يرام معكِ؟"

أجبرت نفسها على الابتسام:

– "نعم، كل شيء بخير. أنا فقط متوعكة قليلاً بسبب سامسون."

قال بلانك وهو يمسد يدها برفق:

– "أفهم ذلك. لا تقلقي بشأنه. إنه في أيدٍ أمينة. وخذي بطاقة عليها رقم هاتفي المحمول من الاستقبال. إذا كان لديكِ أي أسئلة يمكنك الاتصال بي في أي وقت."

أومأت إيما.

قالت وهي في طريقها للخروج:

– "لدي سؤال واحد بالفعل."

– "تفضلي."

– "الفندق."

– "نعم؟"

– "الذي صادفت فيه زوجي. هل تذكر اسمه؟"

الفصل العشرون

فتحت إيما فمها وانتظرت أن تتذوق طعم طفولتها بمجرد أن لامست رقاقات الثلج لسانها.

لكن تلك التجربة الحسية تخلفت عن الموعد.

عبق الشتاء، ورائحة الريح، وطعم الثلج، وكل تلك الأحاسيس الأخرى التي تُعاش ولا تودع في كلمات؛ تلك التي كانت لتستحضر ذكريات أول رحلة لها على الزلاجة، والمشي بصعوبة بجوارب مبللة، والسقوط عن الدراجة، وأيضًا الحمام الساخن المريح في المساء، وغمس كعك الزنجبيل في الحليب الدافئ على المقعد بجوار النافذة ومراقبة طيور القرقف وهي تنقر الطعام المنثور من بيت العصافير... لم تستطع إيما استحضار أي من هذا.

شعرت بالبرد فحسب. كان طريق العودة طويلًا وشاقًا، حتى دون الزلاجة التي تركتها خلفها في العيادة. كانت تتحسس طريقها بحذر، خطوة بخطوة على الرصيف الذي كسته طبقة جليدية في بعض أجزائه، مصغية إلى صوت وقع حذائها.

في أول شهر ديسمبر لها هنا في تويفيلزي_آلي، فكرت إيما أن هذا الحي قد صُمم خصيصًا لأجل عيد الميلاد. منازل صغيرة ودافئة تطل شموع غليظة من نوافذها، وأشجار تنوب دائمة الخضرة في الحدائق

الأمامية لا تحتاج سوى لسلسلة من الأضواء لتبدو في أبهى حلة ميلادية. وبالكاد توجد سيارات تعكر صفو الجو بضجيجها، تلك التي يتعين على الثعالب الحذر منها وهي تهرع إلى الطريق قادمة من غابة غرونفالد في وقت مبكر من بعد الظهر.

حتى السكان المحليون، ومعظمهم من كبار السن، كانوا ملائمين للمشهد تمامًا. نساء مسنّات يشبهن "أم فروست" في مآزرهن، يعدن بعربات التسوق من السوق الأسبوعي في برويسن_آلي، ورجال بيض الشعر يرتدون سراويل قصيرة واسعة، وينفثون دخان غليونهم بينما يزيحون الثلج عن الرصيف، ولن تتفاجأ إذا سمعتهم يلقون التحية بعبارة: "هو، هو، هو".

لكن في هذه اللحظة، لم يكن هناك أحد، باستثناء مراهق أجبره والداه بوضوح على نثر الملح في الممر.

هذا أفضل على الأقل.

لم تكن إيما لتتحمل أن يوقفها أحد الجيران لتبادل أطراف حديث عابر.

— "حسنًا، يا سيدة شتاين، يا لَها من مفاجأة لطيفة. لم نركِ منذ دهور! لا بد أنكِ فوتِّ ما لا يقل عن أربعة إفطارات جماعية".

— "نعم، أنا آسفة. قام مغتصب بحشر قضيبه في مهبلي الجاف للغاية ثم قص شعري بعد ذلك. لقد كنتُ مشتتة قليلًا منذ ذلك الحين، ولكن إذا كنتم لا تمانعون أن أنهض فجأة وأصرخ أثناء تناول الطعام، أو أضرب رأسي بحافة الطاولة أو أنتزع خصلات من شعري، لمجرد أنه خطر ببالي لثانية أن الرجل الجالس أمامي قد يكون هو المتسبب في نوبات هلعي البارانويا، فسأحضر بسعادة إلى الإفطار القادم وسأحضر معي بعض الكرواسون. ما رأيكم؟"

ابتسمت إيما للحظة لهذا الحوار الداخلي العبثي، قبل أن تشرع في البكاء. سالت الدموع على وجهها المبلل بالثلج أصلًا. انعطفت عند الزاوية، ودخلت شارعها، وبعد بضع خطوات قصيرة، اضطرت للتشبث بالسياج لتستعيد أنفاسها.

لم تستطع، لا، بل لم ترغب في استيعاب مدى الهاوية التي سقطت فيها. قبل بضعة أشهر فقط كانت تدير عيادة ممتازة. واليوم تعجز عن إتمام أبسط المهام اليومية، ويهزمها رصيف لا يتجاوز طوله بضع مئات من الأمتار البائسة.

وكل هذا لأنني لم أعد إلى المنزل تلك الليلة.

رثاء الذات. لوم الذات. قتل الذات.

كانت إيما تعرف هذا الثالوث المأساوي، وستكون كاذبة لو ادعت أنها لم تفكر في الخيار الأخير أبدًا.

قال عقلها: "كم هذا عبثي".

وقال ذلك الجزء من النظام البشري الذي يتخذ جوهريًا كل القرارات، والذي لا يمكن مراقبته ولا علاجه، بل يمكن فقط إتلافه ـ الروح: "كم هذا حتمي".

المشكلة في الأمراض النفسية هي أن التشخيص الذاتي مستحيل. محاولة فهم دماغك باستخدام دماغك تحمل أملًا يضاهي أمل جراح بيد واحدة يحاول إعادة خياطة يده المقطوعة. الأمر لا يفلح.

كانت إيما تعلم أنها تبالغ في رد فعلها. وأنه لا بد من وجود تفسير بريء للقاء الطبيب البيطري بـ فيليب في الفندق.

— "لو زين. قصر من الفن الهابط الشرقي، ألا تظنين ذلك؟"

وعلى الأرجح، فإن لغز الطرد سيكون له تفسير بسيط يبعث على السخرية أيضًا.

كان من العبث قضاء ساعات في التفكير فيما إذا كان سليم قد سلمها حقًا طردًا للجار، لأن دماغها لن يقبل أبدًا الاستنتاج البديل: أنها فقدت عقلها. ربما لم ترَ سليم على الإطلاق اليوم؛ وربما لم يكن عامل التوصيل هو من رن جرس بابها، بل غريب أعطى سامسون سمًا بدلًا من البسكويت؟

ربما لم تذهب إلى الطبيب البيطري اليوم أيضًا، وبدلًا من ذلك هي مقيدة إلى سرير في الجناح الأمني بمستشفى بونهوفر للأمراض النفسية؟

لم تعتقد إيما أن هذا مرجح جدًا. فمثل هذه النوبات الفصامية السمعية والبصرية الخطيرة نادرة للغاية ولا يطلق شرارتها حادث صادم واحد. بل تسبقها سنوات وسنوات من الضرر المريع. ولكن ربما لم تستطع منع نفسها من التفكير في هذا، وكانت تلك كذبة لتحمي نفسها.

في أعماقها، كانت مقتنعة بأنه رغم ضياع قدرتها على التحكم في نفسها ومهاراتها في التواصل، إلا أنها لم تفقد صلتها بالواقع تمامًا. ولكن لم يكن هناك يقين بنسبة مئة بالمئة أبدًا، خاصة حين تكون الروح قد عانت ضررًا جسيمًا كضرر روحها.

هتفت لتنتزع نفسها من حلقة أفكارها المفرغة:

— "لقد كان الطرد هناك!"

كررت الكلمات، وكأنها تمنح نفسها الشجاعة.

— "لقد كان الطرد هناك. لقد أمسكتُ به بيدي".

قالتها إيما ثلاث مرات أخرى، ومع كل تكرار كانت تشعر بتحسن طفيف. وبعزيمة مستعادة، أخرجت هاتفها المحمول من جيبها واتصلت برقم زوجها.

سمعت صوت الصفير وتحولت المكالمة إلى بريده الصوتي.

كان الإرسال ضعيفًا في بعض قطاعات الطريق السريع A10؛ ربما كانا يمران عبر نفق. على أية حال، كانت إيما ممتنة لأنها تستطيع إيصال رسالتها دون أن تقاطعها أسئلة انتقادية.

— "حبيبي، أعلم أن هذا سيبدو غريبًا، لكن هل تعتقد أنه من الممكن أن عامل التوصيل الخاص بنا ليس نظيفًا تمامًا؟ سليم يوزغيتش. هل هناك أي طريقة تمكنك من إجراء تحريات عنه؟"

شرحت سبب شكوكها وختمت كلماتها قائلة:

— "كان هناك شيء آخر. يقول الطبيب البيطري إنه رآك في فندق لو زين. لقد ذكرتَ له شيئًا عن أضرار تسببت فيها المياه. هل يمكنك أن تخبرني ما قصة هذا الأمر؟"

أعادت الهاتف إلى جيب بنطالها ومسحت الثلج عن عينيها.

وفقط حين تراجعت خطوة إلى الوراء، أدركت ماهية السياج الذي كانت تتشبث به طوال هذا الوقت.

بوابة الحديقة، التي شهدت أيامًا أفضل، كانت تتدلى بشكل مائل من عمود صدئ. كانت مبطنة بسلك دجاج، ثقوبه أوسع بكثير من المعتاد. وكبديل للوحة الاسم، قام شخص ما ببساطة بلصق شريط لاصق على حافة الباب وكتب عليه بقلم حبر دائم.

كانت الحروف باهتة نوعًا ما، وللتأكد فقط، نظرت إيما مرة أخرى إلى اللافتة المطلية بالمينا العتيقة التي كانت مثبتة، كما جرت العادة في هذه المنطقة، بين نافذة المطبخ ومرحاض الضيوف:

تويفيلزي–آلي 16أ.

لا شك في ذلك.

عاد بصرها إلى السياج. لكسر من الثانية، خافت أن تكون الحروف الموجودة على الشريط اللاصق قد تلاشت في الهواء تمامًا مثل الطرد الذي كان على مكتبها، لكنها كانت لا تزال هناك، لم تتغير:

A. P.

مثل «أ. بالانت».

وفي لمح البصر، اتخذت إيما قرارًا مصيريًا.

الفصل الحادي والعشرون

كان المنطق بسيطاً ومباشراً: إذا كانت البطاقة موجودة، فالطرد موجود كذلك.

برهان بسيط.

إذا كان سليم، كما زعم، قد دس إشعار استلام عبر باب أ. بالانت، فلابد أنه أعطى إيما الطرد قبل ذلك.

بكل هذه البساطة. وبهذا المنطق.

للقطع باليقين، كان التصرف البديهي الذي يمكن لـ إيما فعله هو قرع الجرس والسؤال عن بالانت، بافتراض أنه عاد للمنزل الآن. لكن بعد كل ما رأته إيما على الإنترنت هذا الصباح، كان ذلك مستحيلاً. شعرت بالغثيان من فرط الخوف لمجرد فكرة أن يُفتح الباب ليكشف عن رجل يشبه ولو من بعيد ذلك الرجل في المصعد.

لا، الخيار الوحيد الممكن هو إلقاء نظرة سريعة داخل صندوق البريد الذي – وهنا واجهت إيما مشكلة أخرى – بدا غير موجود. مثله مثل الكثير من الأشياء في هذا المنزل، بدا وكأنه في عداد المفقودين.

تذكرت إيما أن الأرملة الرقيقة التي عاشت هنا وحدها كانت تحافظ دائماً على المنزل في حالة ممتازة. الآن اختفت المصابيح من الإضاءة الخارجية، وتلاشى قزامى الحديقة الفخارية الصغيرة.

بقدر ما استطاعت إيما الرؤية، لم تعد هناك ستائر خلف النوافذ أيضاً، ولهذا لم يبدُ المنزل الرمادي البسيط بطلائه الخشن المليء بالثقوب غير مرحب فحسب، بل بدا مهجوراً.

لا أظن أن هناك أحداً هنا.

كانت بوابة الحديقة التي استندت إليها عالقة، لكن مدخل المرآب كان مفتوحاً على مصراعيه. كان ينبغي عليها إلغاء خطتها والعودة إلى المنزل. لكن إيما شعرت بنفسها تنجذب كمن وقع تحت تأثير سحر نحو البوابة المفتوحة. ولو كانت صادقة مع نفسها لعرفت السبب. لم يكن الأمر يتعلق فقط بإثبات وجود الطرد؛ بل كان دافعاً ارتيابياً قهرياً يسوقها للحصول على أي يقين بشأن هوية أ. بالانت.

ومهما كان احتمال أن يكون لهذا الشخص علاقة بـ مصفف الشعر وما عانته إيما ضئيلاً، كانت واثقة أن صوابها سيطير من التفكير في الغريب ومحتويات ذلك الطرد إن لم تحقق في الأمر.

وهكذا غاصت إيما في الثلج الذي يغطي الكاحلين في طريقها صعوداً نحو المنزل. لم تأبه للبلل الذي تسلل إلى حذائها عبر الثقوب، ولا لحقيقة أن الثلج كان يبلل غطاء رأسها، ويسحق شعرها تحته.

ما كان أكثر إزعاجاً هو النظرات الثاقبة التي خُيل إليها أنها تشعر بها في ظهرها. جيران يقفون عند النوافذ، يراقبون إيما وهي تشق طريقها إلى المدخل، الذي كان بشكل غير معتاد يقع في جانب المنزل، لا في واجهته. كان مغطى بالحديد المموج ويقع في ظل شجرة تنوب تدلت أغصانها كستارة فوق الدرج المؤدي للمنزل.

صعدت إيما الدرجات الأربع ونظرت خلفها نحو الشارع، لكنها لم ترَ أحداً. لا أحد يراقبها من سيارة أو حديقة مجاورة، ولا حتى عابرو سبيل

يتساءلون لمَ تجلس تلك المرأة التي لم تُظهر وجهها للعلن منذ نصف عام القرفصاء فجأة أمام باب منزل غريب.

كما خشيت، كان البريد يُسلم مباشرة عبر فتحة في باب منزل أ. ب. تباً.

لو كان لديه صندوق بريد خارجي، لربما تمكنت من تحسس البطاقة بأصابعها النحيلة، لكن هكذا؟

رفعت إيما الغطاء المعدني، واختلست النظر عبر الثقب، وبالطبع لم ترَ شيئاً. كان الظلام في الداخل أشد منه في الخارج.

أخرجت هاتفها المحمول وبأصابعها المتعرقة شغلت الكشاف الضوئي.

في البعيد نبح كلب، وامتزج الصوت مع الدوي المستمر لشارع "هيرشتراسه"، الذي لم تكن تلاحظه إلا حين يذكره الأصدقاء الذين يزورونها لأول مرة بينما يجلسون في الحديقة.

أو حين يشحذ الخوف حواسها.

ليس فقط الخوف من الانكشاف (فماذا عساها تقول لو فُتح الباب فجأة؟)، بل أيضاً الخوف من أن تُقهر نفسياً بالكامل. حتى هذا الصباح، كان العالم خارج بابها يبدو كمحيط هائج، وهي تقف على الشاطئ لا تجيد السباحة، والآن هي على وشك المغامرة بعيداً جداً في عرض البحر المفتوح.

لكن لا خيار لدي.

لم يسعفها ضوء كشاف هاتفها الذكي كثيراً. نظراً لضيق الفتحة والزاوية المائلة المتاحة لها، كل ما استطاعت تمييزه هو بعض ألواح الأرضية وشيء بدا بالفعل مثل أوراق أو رسائل مبعثرة على الأرض. لكن هل كانت بطاقة التسليم الفائت بينهم؟ كان من المستحيل الجزم بذلك.

حسناً، هذا يكفي إذاً.

شعرت إيما بالارتياح حين نهضت واقفة. لقد وجد عقلها سبباً مقبولاً لعدم إكمال خطتها. كانت علامة جيدة، علامة صحية على أنها لم تكن مسوقة بالاندفاع لدرجة البحث عن مفاتيح احتياطية مخبأة تحت الممسحة، أو هز النافذة الجانبية لغرفة الضيوف، أو ببساطة تجربة مقبض الباب، الذي...

... استدار دون أي مقاومة!

سحبت إيما يدها. انبعث صرير عالٍ بينما احتك الباب بألواح الأرضية الداكنة، دافعاً البريد المتراكم إلى الداخل.

نظرت فوق كتفها، لكن لم يكن أحد خلفها، أو على الأقل لا أحد يمكنها رؤيته. حين التفتت مجدداً أدركت أن الظلام داخل المنزل لم يكن دامساً كما ظنت في البداية. ضوء شاحب مصفر كان يتسلل إلى الردهة من إحدى الغرف، وفي وهجه استطاعت إيما أن ترى أن الباب الأمامي كان محشوراً بفعل كومة من البريد الدعائي.

كان هناك شيء آخر أيضاً.

شيء جعلها تخطو خطوتين داخل المنزل الغريب، رغم أنها وجدت الجسم النحيل الذي يبلغ ارتفاعه متراً والذي كانت تتجه نحوه منفراً أكثر منه جذاباً.

لم تستطع إيما تصديق ما كانت تحدق فيه هنا في الردهة، بجوار شماعة المعاطف مباشرة. ولأنها خشيت أن يكون ذلك من وحي خيالها، رؤية ابتدعها عقلها المختل كوقود إضافي لارتيابها، كان عليها فحصه عن كثب لتتأكد.

مدت إيما يدها.

لاحظت بخار أنفاسها، فالجو هنا في الداخل لم يكن أكثر دفئاً من الخارج.

لمست الـ «ستايروفوم» البارد.

وشعرت بشريط لاصق على النموذج المقلد للرأس البشري، الذي التصقت به بضع شعرات.

لا شك في ذلك.

إنه حامل شعر مستعار.

بينما توصلت لهذا الإدراك، الذي أصاب يدي إيما بالخدر، بدأ هاتفها المحمول في الطنين.

لحسن الحظ كانت قد وضعته على وضع الاهتزاز، وإلا لتردد صدى الرنين في الردهة كأجراس الكنيسة.

قالت:

– "ألو."

حين رأت أن الاتصال من العيادة البيطرية. بجانب حامل الشعر المستعار، كان قلقها على سامسون سبباً آخر لمغادرة هذا المنزل بأسرع ما يمكن.

– "سيدة شتاين؟ معكِ عيادة الدكتور بلانك. أنا آسفة جداً لإزعاجك، لكن لدينا مشكلة بخصوص الدفع للتحليل المخبري. العيادة البيطرية في دوبل تقول إن بطاقتك الائتمانية قد حُظرت."

همست إيما وهي في طريقها للعودة إلى الخارج:

– "لابد أن هذا خطأ."

لكن طريقها أصبح مسدوداً الآن. ليس بشخص، ولا بجسم، بل بالضوء.

ضوء «زينون» أبيض ساطع، يغمر الممر وينسكب داخل المنزل الذي دخلته للتو بشكل غير قانوني.

مسحت أشعة المصابيح الأمامية العريضة سياج الشجيرات بينما كانت المركبة، بصوت محركها الذي يصدر قرقرة مكتومة، تنعطف ببطء لتدخل إلى المرآب.

الفصل الثاني والعشرون

المدخل الخلفي.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر ببالها فور إنهاء المكالمة.

تحول جسد إيما إلى وضعية الهروب، وشعرت بصفاء في ذهنها. مزّق الخوف من الاكتشاف الضباب الذي كانت تنجرف فيه بفضل الديازيبام.

على الأقل في الوقت الحالي.

فكرت: لا بد من وجود مدخل خلفي هنا في مكان ما.

من المستحيل أن تغادر عبر الباب الأمامي. لن تعود مرورًا بالبريد، ونزولًا عبر الدرجات لتقع مباشرة في أحضان صاحب حامل الشعر المستعار وهو يترجل من سيارته.

إلى الخلف إذن.

وبسرعة.

إذا كان هذا المنزل، مثل معظم منازل الحي، يعود إلى عشرينيات القرن الماضي، فسيكون له تصميم مشابه، مع غرفة معيشة تؤدي إلى شرفة.

أسرعت إيما عبر الردهة وفتحت أول باب على اليمين لتدخل غرفة كبيرة كانت أكثر ظلمة.

في البداية خشيت أن تكون الستائر الخارجية مسدلة، لكنها لم تضطر سوى لسحب الستائر الثقيلة التي تفوح منها رائحة الغبار والدخان البارد لتكشف عن الأبواب الزجاجية المزدوجة.

كانت هذه الأبواب تؤدي بالفعل إلى الحديقة، التي امتدت أمامها مثل منشفة طويلة وضيقة.

كانت الأبواب قديمة، وجعلت ألواحها الزجاجية المتموجة العالم يبدو وكأنك تنظر إليه عبر عدسة "عين السمكة". لكن إيما لم تكن مهتمة أدنى اهتمام بالمشهد المشوه لصفصافة باكية ضخمة، وعدة أشجار فاكهة معقدة الأغصان، وصخور متناثرة مكسوة بالثلج.

عند سماع وقع خطوات عند المدخل، استنشقت الهواء المشبع بالجسيمات، وكتمت سعالها، وحاولت إحداث أقل ضجيج ممكن وهي تدير مقبض الباب الزجاجي ببطء عكس اتجاه عقارب الساعة. مزّق الصوت الحاد عندما سحبت الباب العالق طبلة أذنها بألم.

كان الصوت أعلى من جرس المدرسة الذي يعلن وقت الاستراحة، وتردد صداه في أرجاء المنزل بأكمله.

نظام إنذار؟

بالتأكيد لم يترك بالانت الباب الأمامي مفتوحًا ليؤمن المخرج إلى الحديقة إلكترونيًا؟

لم يكن الأمر منطقيًا، خاصة وأنه لم يكن هناك ما يستحق الحماية هنا، بالنظر إلى البؤس الذي يلف غرفة المعيشة.

كانت الأريكة على يسار إيما مغطاة جزئيًا بصحف قديمة. وعلى الجانب الآخر، بينما برز نابض معدني من الجانب الآخر واخترق الغطاء القماشي. واستُخدم صندوق بيرة مقلوب كطاولة قهوة. فغرت رسومات بدائية لرؤوس خيول أفواهها من على الجدران، ولم تكن هناك طاولة

طعام، ولا رفوف كتب، ولا سجاد أو كراسي. تمثال قبيح لكلب يقبع على حصيرة بجوار الباب مباشرة، كلب لابرادور خزفي يمكن استخدامه كحامل للمظلات. ذكرها بـ سامسون.

كم كنت سأدفع لأجده بجانبي الآن!

بخلاف ذلك، لم يكن هناك سوى خزانة عرض فارغة من الخشب المضغوط، موضوعة بشكل مائل في الغرفة، وكأن عمال النقل ألقوها هناك على عجل.

بالتأكيد لا شيء قد يثير اهتمام لص، ومع ذلك، مزق رنين يصم الآذان الصمت للتو.

كانت إيما تتصبب عرقًا وفمها جافًا، لكن الديازيبام والأدرينالين كانا يقومان بعمل جماعي رائع. كان الخوف يحفزها، بينما أخذ تعبها استراحة. أدركت الآن أن الرنين حدث مرة واحدة فقط، وهو أمر غير معتاد أيضًا بالنسبة لإنذار ضد السرقة.

أفلتت إيما المقبض وكانت على وشك دفع الباب العالق بوضوح بكتفها عندما سمعت أصواتًا.

أصواتًا أجنبية.

ألبان، سلوفينيون، كروات؟

لم تستطع التمييز؛ كل ما أمكنها قوله هو أن أيا منهم لا يمكن أن يكون أ. بالانت لأن الرجلين اللذين لا بد وأنهما رنا الجرس عند الباب الأمامي أولًا ويأتيان الآن عبر الردهة، كانا يصرخان بلقب صاحب المنزل بصوت عالٍ وعدواني مرارًا وتكرارًا:

— "باالانت؟ باااالانت!"

كان صوت أحدهما أجشًا ومتحشرجًا، وكأنه خضع للتو لعملية جراحية في حنجرته. أما نباح الرجل الآخر فكان يبدو وكأنه قادم مباشرة من جوف كلب "بول تيرير".

وبين الصرخات، كان الرجلان يتبادلان الهسيس بلغتهما الأم، التي بدت أي شيء عدا الودية.

— "آآآنتون؟"

إذن عرفت الآن اسمه الأول، لكنها لم تعرف طريق الخروج من هنا.

عبثًا حاولت إيما دفع وسحب الباب المؤدي إلى الشرفة. كان عالقًا بإحكام، وكأنه ألصق أو سُمّر بالأرض، على عكس باب غرفة المعيشة الذي دخلت منه للتو. رُكل ذلك الباب بعنف كاد يقتلعه من مفصلاته.

لولا أن الأول من الرجلين التفت إلى شريكه لأنه لم يفهم ما قاله، لكانت إيما قد اكتُشفت على الفور. لكنها الآن حظيت بثانية أو اثنتين لتندفع خلف الخزانة الفارغة، حيث كانت تنوي الاختباء حتى أدركت فجأة أنها كانت تحجب رؤيتها لشيء كان، مؤقتًا على الأقل، خلاصها: باب متصل.

كان مفتوحًا وتسللت إيما من خلاله بينما بدا أن الرجال خلفها يلعنون بلغتهم الأم.

هل رأوني؟

لم تضيع الوقت في التفكير، ولم تنظر إلى الخلف، بل للأمام فقط، حيث رأت درجًا. كان يؤدي إلى الطابق العلوي بمحاذاة الجدار الداخلي للمنزل.

الصعود جيد...

...أفضل، على الأقل من النزول... إلى القبو. الأشخاص المعرضون للخطر يذهبون إلى القبو في أفلام الرعب فقط. ولكن ليس في منزل غريب،

هربًا من رجال غرباء يبحثون عن جار غريب، ليفعلوا به شيئًا يفضلون ألا يكون له شهود سريون.

لذا تشبثت إيما بدرابزين ضيق وحاولت صعود الدرج الخشبي القديم والمتآكل بأكبر قدر ممكن من الهدوء.

خلفها دوت جلبة — هل دفع الرجال الخزانة وأسقطوها؟ تهشم زجاج ولكن الصوت الأعلى كان صوت أنفاسها.

في الطابق الأول، الذي كان كئيبًا بنفس القدر، تحسست إيما طريقها على طول ورق الجدران المحبب في الممر وصولًا إلى باب.

مقفول. تمامًا مثل الثاني، المقابل له مباشرة.

هذا غير ممكن.

واصلت المشي، نحو شق مضيء في نهاية الممر.

باب آخر، يتسلل الضوء من تحته إلى الممر المظلم الذي بدا لـ إيما كنفق. لكن هذا الباب لم يفتح أيضًا.

أرادت إيما أن تصرخ من الغضب والخوف واليأس، لكن الرجال في الطابق السفلي كانوا يفعلون ذلك بالفعل.

— "باالاااانت!"

لم يكن صراخهم فقط، بل كانت خطواتهم تقترب أيضًا. أحذية صلبة وثقيلة تصعد الدرج أسرع مما فعلت هي للتو.

انعطفت إلى اليسار، وقد فقدت اتجاهاتها تمامًا — لم تكن تعرف ما إذا كانت تواجه الشارع أم الحديقة — وهزت مقبض باب آخر.

لا شيء.

وبقوة اليأس، رمت نفسها أخيرًا ضده في محاولة أخيرة، وكادت تطير داخل الغرفة.

تعثرت إيما، وانزلقت يدها عن المقبض، واصطدمت ركبتاها بالأرضية المغطاة بسجادة، واستخدمت مرفقيها لمنع رأسها من الارتطام.

تبًا.

نهضت فورًا وأغلقت الباب من الداخل.

هل سمعوني؟

بينما يغلب عليها الدوار، بحثت إيما عن شيء تتمسك به ووجدت خزانة ذات أدراج صغيرة. جثت بجانبها، غير مدركة أنها اختبأت في نفس الوضعية بالضبط قبل ساعات قليلة.

ظهرها إلى الجدار، وعيناها مثبتتان على سرير كبير.

كان الجو أدفأ مما هو عليه في بقية المنزل؛ استطاعت شم رائحة عرق ورائحة أخرى عفنة قليلاً.

إما أن الستائر هنا لم تكن سميكة كما في غرفة المعيشة، أو أن التوتر شحذ حواسها. على أية حال، كانت إيما تستطيع رؤية أكثر من مجرد ظلال وأشكال الآن.

كانت بوضوح في غرفة نوم بالانت، التي هيمن عليها سرير أثري ذو أربعة أعمدة.

كان قد رُتب حديثًا؛ غطاء مرقع منتفخ فوق لحاف سميك يبرز عند طرف السرير.

في الطرف الآخر، كانت وسائد بأحجام مختلفة مرتبة بدقة في ثلاثة صفوف شغلت ثلث السرير.

مثل فندق، فكرت إيما، وهي تمقت التشبيه.

— "باالااانت؟"

هز الرجال، الذين أصبحوا الآن في الطابق العلوي، مقابض الأبواب نفسها التي هزتها هي قبل لحظات، ولكن بحذر أقل.

تطايرت شظايا الخشب، وصَرَّت المفصلات.

ولم تعرف إيما إلى أين تذهب.

تحت السرير؟

لا، سيكون ذلك أول مكان يبحثون فيه.

لم تكن هناك خزائن كبيرة، فقط رف ملابس على عجلات، وحامل ملابس، وطاولة سرير جانبية، بجوارها مباشرة، تحمل ما يعادل نصف صيدلية من علب الأدوية والبخاخات والأقراص في عبوات القصدير وأدوية أخرى.

فجأة لم تستطع سماع أي شيء سوى طنين الخوف المستمر داخل أذنيها، ثم انقضى الهدوء الذي يسبق العاصفة. انفتح باب غرفة النوم بعنف، مرتطمًا بجانب الخزانة ذات الأدراج التي كانت تختبئ بجوارها، وأعشى بصر إيما.

ضوء ساطع ومتوهج.

من السقف، سطع بلمعان مفرط وبلا رحمة على السرير وكل شيء آخر.

بما في ذلك هي.

أغمضت إيما عينيها، ليس بذلك الانعكاس الطفولي الذي يأمل ألا يراها أحد لمجرد أنها لا ترى شيئًا بنفسها، بل لأنها كانت مخطئة.

الشيء الموجود بجوار النافذة لم يكن حامل ملابس، بل حامل شعر مستعار آخر. ولم يكن عاريًا مثل ذلك الموجود في الردهة بالأسفل؛ كان هذا الرأس المصنوع من البوليسترين يرتدي باروكة نسائية شقراء طويلة وباهتة.

ما الذي فعلته بحق الجحيم؟ أي نوع من الأماكن دخلت؟

عالقة بين مهاجمَين ومنحرف؟

عند سماع زوج من الأحذية يدخل الغرفة، لم تجرؤ على فتح عينيها بعد... ثم رن هاتفها المحمول.

تبًا.

رنين عالٍ وثاقب. مثل الإنذار.

تبًا، تبًا، تبًا!

كان العرق ينز من مسامها وكأن الغرفة قد تحولت إلى درجة حرارة ساونا.

عرفت أن اللعبة انتهت. وأنه لن يكون لديها الوقت لإخراج الهاتف من جيبها، والرد على المكالمة والصراخ طلبًا للنجدة. حاولت على أي حال.

بعد فوات الأوان.

أمسكت بالهاتف وحدقت في شاشة مظلمة، لاعنة المتصل الذي تركه يرن مرتين فقط ليفضح أمرها. ثم سمعت الرجل ذا الصوت الجهوري الشبيه بكلب "بول تيرير" يطلق ضحكة قذرة.

فتحت عينيها، على يقين بأنها ستحدق في موتها، لكن لم يكن هناك أحد.

خفتت الضحكة، وابتعدت عن غرفة النوم نزولًا عبر الممر، مع الأصوات التي أحدثها حذاء الرجل الثاني على ألواح الأرضية.

فقط عندما عاد الاثنان إلى الطابق السفلي أدركت إيما أنه لم يكن هاتفها هو الذي رن، بل هاتف «البول تيرير».

كانت لديه نفس نغمة الرنين القياسية الخاصة بها. تلقى الرجل اتصالًا من شخص أضحكه، ومن الواضح أنه قال شيئًا جعلهم يتخلون عن بحثهم.

"اخرج من هناك، لقد وجدنا بالانت."

أو

"انسَ الجار، هناك شيء آخر عليك القيام به."

أو

"مرحبًا، أنا آنتون بالانت. يسمونني أيضًا مصفف الشعر. أعلم أننا اتفقنا على أن تأتي إلى هنا، ولكن هل يمكننا أن نلتقي في مكان آخر؟ في هذه اللحظة لدي مشاكل مع عاهرة تحتضر."

أيًا كانت الرسالة، شعرت إيما وكأن المتصل قد أنقذ حياتها.

في الوقت الراهن.

نهضت على قدميها، وتمسكت بالخزانة ذات الأدراج، وتساءلت عما إذا كان عليها الإمساك بإحدى علب الأدوية التي، كما ترى الآن في الضوء القاسي للمصباح العلوي، كانت جميعها تحمل كتابة سيريلية. لكن لم يكن هناك وقت لتحويل قرارها إلى فعل.

أمامها مباشرة، اهتزت الوسائد.

تقوس اللحاف المرقع، منتفخًا في بعض الأماكن مثل بطن امرأة حامل يركل فيه الجنين.

ثم برزت ذراع من تحت اللحاف المكشوف، وجلس رجل أصلع ونحيل.

الفصل الثالث والعشرون

كان جذعه عاريًا وبارز العظام؛ بدا أشبه بسجين يترنح على حافة الموت جوعاً.

كانت عيناه مفتوحتين على آخرهما، غارقتين في بركة من الدموع. ولم يرمش ولو لمرة واحدة.

لا حين أدار رأسه نحو إيما.

ولا حين سمر عينيه عليها.

ولا حتى حين أطلقت صرخة حادة وانطلقت هاربة من الغرفة. عبرت البسطة، وهبطت الدرج مسرعة نحو الباب الأمامي، حيث ظنت للوهلة الأولى أنها ستصطدم بالرجلين. لكنه كان مجرد حامل الشعر المستعار، الذي أطاحت به أرضًا، وتعثرت هي نفسها في غمرة اندفاعها.

نهضت فورًا واندفعت إلى الشارع، دون أن تعبأ بالجيران أو بأي شخص قد يراقبها. انزلقت إيما عدة مرات فوق الحجارة المكسوة بالجليد، لكن ليس لدرجة السقوط مرة أخرى.

ركضت إيما، وركضت، وركضت... كان يفزعها صوت طحن الحصى الذي كانت قدماها تنثرانه، ولهاث رئتيها المتسارع.

ضغطت يدها على موضع الألم في خاصرتها وواصلت الركض حتى وصلت أخيرًا إلى منزلها. المبنى الوحيد المنفصل في المنطقة، الذي حوله

فيليب إلى حصن يضاهي البنوك في أمانه، بأقفال إلكترونية لا تُفتح إلا بجهاز إرسال خاص. كان شريحة دائرية تشبه العملة المعدنية، يجب تمريرها أسفل القفل حتى يصدر رنينًا مزدوجًا، وقد أخرجتها إيما الآن من جيبها وهي تصعد الدرجات.

كادت تسقطها من يدها حين لاحظت أن مؤشر الضوء (LED) على القفل كان يضيء باللون الأخضر. ثم رأت إيما توهجًا خافتًا يتسلل عبر الستارة خلف اللوح الزجاجي الصغير في الباب.

لا. هذا مستحيل، صرخت إيما في صمت.

هذا يجب أن يكون مستحيلاً!

ثمة من عطل نظام الإنذار، وفتح الباب، وأشعل الأضواء في الداخل.

ولم يكن ذلك فيليب، لأن سيارته لم تكن موجودة.

الفصل الرابع والعشرون

سألت سيلفيا:

– "إلى أين أنتِ ذاهبة؟"

استدارت إيما بحدة، وكانت تبحث عبثًا عن هاتفها لتتصل بالشرطة، لكنها شعرت بارتياح لا يوصف حين سمعت صوت صديقتها المقربة خلفها.

التفتت عائدة نحو الباب، الذي كان مفتوحًا الآن، وقالت:

– "يا إلهي، سيلفيا. لقد أفزعتني".

بدلًا من الاعتذار أو حتى إلقاء تحية عادية، تركتها سيلفيا واقفة على العتبة ودخلت المنزل دون أن تنبس ببنت شفة.

تبعتها إيما، وقد تملكها الآن إعياء تام. تسلل سامسون إلى منزل بالانت، والدخلاء، وطريق العودة الذي أرهقت فيه نفسها فوق طاقتها – كل هذا استنفد طاقة إيما حتى الرمق الأخير. كانت في غنى تام عن مشكلة أخرى، وهو ما يشي به تصرف صديقتها الغريب.

أغلقت إيما الباب.

وبأصابع مرتجفة، علقت معطفها على المشجب، وخلعت حذائها الغارق في الثلج، ودخلت إلى غرفة المعيشة. ومع التغير المفاجئ في درجة الحرارة، اندفع الدم إلى وجنتيها.

سألت إيما:

— "هل أنتِ بخير؟"

هزت سيلفيا رأسها بغضب. كان شعرها الداكن، الذي عادة ما ترفعه، يتدلى بوهن على كتفيها.

في العادة، حين كانت تأتي للزيارة، كانت سيلفيا تأخذ راحتها وتمد ساقيها على الأريكة. كانت تطلب من إيما قهوة «ماكياتو» قبل أن تثرثر حول أكثر الأمور تفاهة التي حدثت خلال الأسبوع الماضي. أما اليوم، فكانت ترتدي بدلة رياضية بلون رمادي باهت بدلًا من ملابس المصممين المعتادة، وجلست متصلبة كتمثال على حافة الأريكة، وعيناها مثبتتان على الجمر المتوهج في المدفأة.

قالت سيلفيا، وكأنها تفسر ملابسها غير المعتادة وسلوكها الغريب:

— "لا، لستُ بخير. لا شيء بخير على الإطلاق".

لم تكن سيلفيا بيرجمان صديقتها المقربة فحسب، بل كانت الأطول قامة أيضًا. حتى بين أوسع دوائر معارفها، لم تكن هناك امرأة تضاهيها، وليس مجرد تعبير مجازي. حقيقة أنها تنتعل حذاء مقاس اثنين وأربعين تقول الكثير، وكذلك حقيقة أنها كان من الممكن أن تصبح لاعبة كرة سلة محترفة لو لم يصر والداها المحافظان على مهنة "لائقة"، رغم أنهما كانا يفكران في الطب أكثر من العلاج الطبيعي فيما يتعلق بالدراسة. كان المرضى في عيادة سيلفيا في «فاينبرغ» يعشقونها بسبب يديها الضخمتين السحريتين اللتين، وكأنهما مزودتان بجهاز سونار، تتحسسان التوتر والانسدادات أولًا، ثم تجعلانها تتلاشى بالضغط على نقاط الطاقة والانعكاس التي لا يعرفها سواها. لكن اليوم، بدت سيلفيا وكأنها بحاجة ماسة إلى إحدى جلساتها العلاجية. بدا كل شيء فيها متشنجًا ومتوترًا.

أمرت بفظاظة:

— "اجلسي".

وكأن هذا منزلها وإيما ضيفة مستدعاة.

كانت إيما تغالب موجة من التعب جعلتها تترنح الآن بعد أن عادت إلى داخل جدران منزلها الأربعة. لم يعد المنزل يشعرها بالأمان كما كان هذا الصباح، وجزئيًا لأن سيلفيا هي من فتحت الباب لها.

قالت إيما:

— "سيلفي، أكره أن أقول هذا، لكنكِ تعلمين أنني أعطيتكِ المفتاح للطوارئ فقط؟"

كررت سيلفيا بصوت بارد:

— "اجلسي! هذه حالة طوارئ".

سألت إيما، وقد قررت البقاء واقفة:

— "ما خطبكِ؟"

رغم ركبتيها المرتجفتين، رأت أنه من المهم الحفاظ على مسافة. وإذا لزم الأمر، يمكنها التمسك بـرف المدفأة فوق النار.

قالت سيلفيا، وقد حققت المستحيل وتمكنت من أن تبدو أقل ودية حتى من ذي قبل:

— "تسألين ما الخطب؟"

ثم اندفعت قائلة:

— "لماذا تفعلين بي هذا؟"

— "عن ماذا تتحدثين؟"

— "عن هذا!"

أخرجت صديقتها علبة دواء بيضاء بغطاء أحمر من جيب سترتها الرياضية.

سألت:

– "هل تعرفين ما هذا؟"

أومأت إيما:

– "يبدو مثل البروجسترون الذي أعطيتكِ إياه".

عقار يزيد من فرص الحمل. يحفز الدواء الدورة الدموية في الرحم. تُنصح النساء اللواتي عجزن عن الإنجاب بتناوله قبل الحمل وأيضًا بعده لمنع الإجهاض. كان طبيب النساء الخاص بإيما قد وصفه لها بعد أول فحص بموجات السونار، وأعطت العلبة المفتوحة لصديقتها.

بعد النزيف، وبعد الليلة التي قضتها في الفندق، لم تعد بحاجة إليه.

كررت سيلفيا وهي تضع علبة الدواء على طاولة القهوة:

– "لماذا تفعلين بي هذا؟"

– "عن أي جحيم تتحدثين؟"

– "ألا تريدين مني أن أنجب أي أطفال؟"

– "عفوًا؟"

– "هل تريدين أن ألقى المصير نفسه مثلك؟"

– "ما الذي أصابك بحق السماء؟"

رفعت إيما كلتا يديها، وفتحت أصابعها وأغلقتها وكأنها تعجن الهواء كعجين غير مرئي، تشعر بالعجز، ولا فكرة لديها عن كيفية الرد على هذا الاتهام الجارح بشكل لا يصدق. سألت والدموع تترقرق في عينيها:

– "لماذا قد أفكر في ذلك؟ أنا أحبك يا سيلفيا. ولا أتمنى ليلة مع «مصفف الشعر» لألد أعدائي".

نظرت إليها سيلفيا بصمت لبرهة، ثم أومأت بازدراء، وكأنها كانت تتوقع كذبة كهذه. قالت بجمود:

– "على مدى الأسابيع القليلة الماضية كنت أعاني من غثيان دائم، وصداع، وتعب".

مرحبًا بكِ في النادي.

تابعت سيلفيا:

– "كنت سعيدة في البداية، لأنني ظننت أن الأمر نجح أخيرًا. لكن الاختبارات ظلت سلبية وجاءتني الدورة الشهرية. فذهبت إلى الطبيب وسألني إذا كنت أتناول أي أدوية. قلت له فقط «أوتروجيستان»، وهو ما وافق عليه. نعم، هذا يمكن أن يساعد".

حين جالت عينا سيلفيا عبر وجه إيما، شعرت وكأنها إبر وخز. فتحت صديقتها المقربة فمها، فتراجعت إيما خطوة لا إرادية إلى الوراء، وكأن سيلفيا كلب يزمجر ويكشر عن أنيابه.

قالت سيلفيا بصوت كان أهدأ مما ينبغي لاتهام شنيع كهذا:

– "هذا بافتراض أن العلبة التي تعطيها لكِ صديقتك العزيزة هي بروجسترون. وليست ليفونورـ شيء ما".

تمتمت إيما وقد ارتفعت حرارتها:

– "ليفونورجيستريل؟"

بدأت تتصبب عرقًا للمرة الأولى في ذلك اليوم.

– "هذا مستحيل".

ترنحت نحو رف المدفأة وشعرت بحرارة أشد.

سألت سيلفيا:

– "فيمَ كنتِ تفكرين؟ حين ازداد النزيف سوءًا، ألقى بيتر نظرة على الحبوب. زوجته السابقة كانت تتناولها أيضًا، كما ترى، وقال إن حبوبها كانت تبدو مختلفة تمامًا".

بيتر!

صديق سيلفيا الذي لا لقب له. أو على الأقل لم تكن إيما تعرف لقبه، وربما كان ذلك لأنها بالكاد كانت تستمع لصديقتها المقربة حين تتحدث

عنه. لم تقابل سيلفيا هذا الرجل إلا في الفترة التي تلت الحادثة، حين لم تكن إيما تبالي بسماع أي شيء عدا قصص العلاقات. لم ترغب حتى في رؤية صورة له. كل ما عرفته عن بيتر هو أنه يفترض أن يكون «الشخص المنشود»، رجل الأحلام الذي أرادت إنجاب أطفال معه.

تابعت سيلفيا:

— "لذا أخذتُ الحبوب إلى صيدلي وقام بتحليلها".

بدأت صديقتها المقربة في البكاء. وبينما هي تنتحب، انتزعت العلبة من الطاولة وقذفتها باتجاه إيما، فأخطأت رأسها بمسافة بعيدة وارتطمت بالرفوف خلفها. حين ضربت الأرض، انفتحت العلبة وتدحرجت الحبوب عبر الأرضية الباركيه مثل كرات زجاجية صغيرة.

صرخت سيلفيا:

— "لقد استبدلتِها! لقد أعطيتني حبوب منع الحمل الطارئة (حبة الصباح التالي[1])، أيتها العاهرة المجنونة!"

[1] حبة الصباح التالي *Morning-after pill* : وسيلة طبية لمنع الحمل الطارئ تُستخدم لتدارك ما حدث بعد علاقة جنسية.

الفصل الخامس والعشرون

عن مسافة قصيرة، حدقت إيما في العلبة التي بدت طبق الأصل لتلك التي أعطتها لـ سيلفيا قبل ثلاثة أشهر كاملة.

حبة الصباح التالي؟

قالت إيما، دون أن تملك أدنى فكرة عما قد يكون التفسير:

– "لابد أن ثمة تفسيرًا منطقيًا."

– "لماذا لا يفاجئني أنكِ ستحاولين نسج واحدة من قصصك؟"

– "سيلفيا، أنتِ تعرفينني."

– "أحقاً أعرفكِ؟"

لا أعرف. لا أعرف حتى ما إذا كنت أعرف نفسي.

حكت إيما ساعدها بتوتر. فجأة شعرت بحكة تسري في جسدها كله.

– "لو كان ما تقولينه صحيحاً، فلا بد أن شخصاً آخر قد استبدل الحبوب."

– "أوه نعم، شخص ما غامض. على غرار ذلك الشخص الذي يُزعم أنه اغتصبك."

آخ!

لقد خرجت الكلمة إلى العلن الآن. يُزعم.

كلمة واحدة. كان هذا كل ما لزم للإلقاء بصداقتهما في سلة المهملات وإحكام الغطاء عليها.

قالت سيلفيا بصوت مبحوح:

– "لم أكن أقصد ذلك."

بدت وكأنها استيقظت لتوها من كابوس. وبتعبير مغاير، أكثر ليناً قليلاً، وضعت يدها على فمها نادمة.

قالت إيما بجمود:

– "لكنكِ قلتِها."

– "أعرف. لكن ضعي نفسك مكاني. بماذا عساي أن أفكر؟"

– "في الحقيقة."

– "ولكن ما هي الحقيقة يا إيما؟"

انقضت استراحة التقاط الأنفاس القصيرة. عادت سيلفيا لتشحن نفسها بالغضب من جديد، وكانت كل كلمة تقربها أكثر من نوبة الحنق التي انتابتها قبل لحظات.

– "غرفة فندق لا وجود لها؟ شاهدة لا يمكن العثور عليها؟ بحق السماء يا إيما، أنتِ لا تطابقين حتى التنميط الجنائي. مصفف الشعر يقتل العاهرات. وأنتِ أكثر الزوجات اللواتي أعرفهن إخلاصاً. كما أنكِ على قيد الحياة."

– "لقد حُلِق شعري واغتُصبت. كان هناك رجل في غرفتي..."

– "نعم، مثل آرثر في خزانتك..."

آخ مجدداً!

سلة المهملات التي كانت صداقتهما تتعفن بداخلها باتت جاهزة لتُشحن إلى المكب.

– "ماذا... أنتِ... أنتِ...؟"

شعرت إيما بألم شديد ألجم لسانها. أغمضت عينيها، وباتت مهددة بالغرق في دوامة من الذكريات.

ومضت أحرف على مرآة في ذهنها.

اخرجي.

سمعت صوت والدها.

اخرجي فوراً. وإلا سأوذيكِ.

سمعت الشفرات المهتزة.

ززززز.

سمعت باباً يُصفق. بقوة جعلت غرفة المعيشة بأكملها تهتز.

صرخت إيما وعيناها مغلقتان، وهي تضرب بطنها غضباً:

— "تلك الليلة لم أفقد وعيي وشعري فحسب، بل طفلي أيضاً."

مرة، مرتين. حتى اشتد الألم لدرجة أنها تهاوت على ركبتيها.

تهوعت، وشهقت، وأوشكت على التقيؤ.

قالت والكلمات تنساب من شفتيها بعفوية:

— "ساعديني. ساعديني. لا أعرف ما الذي يحدث لي."

فتحت عينيها، ومدت ذراعيها تتحسس طريقها نحو صديقتها.

لكن لم يعد هناك أحد ليساعدها.

كانت سيلفيا قد رحلت بالفعل.

الفصل السادس والعشرون

تحاملت إيما على نفسها وجرت جسدها وهي تسعل نحو الأريكة.

كان حلقها يلتهب من أثر التقيؤ، وشعرت بمعدتها تشتعل ألمًا جراء الضربات التي تلقتها. فكرت في سامسون، الذي كان في حالة أسوأ بكثير، لكن يحدوها الأمل أنه الآن بين أيادٍ أمينة ويتلقى العلاج. بالأقراص.

"لقد استبدلتِها! أيتها العاهرة المجنونة..."

رحلت سيلفيا، لكن صوتها ظل يتردد في رأس إيما، مواصلًا كيل اتهامات لم تستطع إيما أن تجد لها رأسًا من ذيل.

فهي لم تتناول "حبة الصباح التالي" قط في حياتها، ناهيك عن تخزين كمية منها لتعطيها لغيرها. وبصفتها طبيبة، كانت تؤمن بقدسية الحياة. ولم تكن لتعطي صديقتها المقربة دواءً خاطئًا عن عمد أبدًا. ليس إيما، التي أعادت إحياء «تجربة روزنهان» احتجاجًا على إساءة معاملة المرضى.

ومع ذلك، ورغم فداحة اتهامات سيلفيا وعمق الجرح الذي خلفته شكوكها في نفس إيما، فإن شجارهما لم يكن شيئًا يُذكر مقارنة بما شهدته في منزل بالانت.

نهضت إيما بصعوبة مرة أخرى.

كان يتحتم عليها الاتصال بـ فيليب.

سيؤنبها بالطبع فور سماعه بمغامرتها الفردية. لكنه في النهاية سيضطر للاعتراف بأنها كانت محقة: أنتون بالانت جار غريب الأطوار للغاية، ويجب إبقاؤه تحت المراقبة.

جرت قدميها نحو مشجب المعاطف.

"مرحبًا فيليب؟ هل يمكنك من فضلك إخبار المحققين أن عليهم التحقق من المقيم في تويفيلزي-آلي 16أ؟ رجل أصلع يبتلع جبالًا من الحبوب، يعيش في منزل كئيب، ومن الواضح أنه مهدد من قبل شخص ما، واستمع لهذا فقط: يحشو منزله بحوامل الشعر المستعار. هناك حتى شعر امرأة في غرفة النوم — لا تسألني كيف اكتشفت ذلك".

هذا، أو شيء من هذا القبيل، هو ما أرادت إخباره به عبر الهاتف، لكنها لم تستطع؛ إذ أدركت برعب حين تحسست جيب معطفها... أن هاتفها المحمول قد اختفى.

لا! لا، لا، لا...

أسقطت إيما يديها إلى جانبيها في يأس.

كانت كلمة «اختفى» توصيفًا خاطئًا لما حدث لهاتفها.

فكرت: لقد أضعته، ثم شتمت بصوت عالٍ حين تكشف لها أن هناك مكانًا محتملًا واحدًا فقط يمكن أن يكون قد سقط فيه من جيبها.

في منزل أ. بالانت.

حين تعثرت بحامل الشعر المستعار وهي تغادر.

الفصل السابع والعشرون

شعرت إيما وكأن تياراً بارداً يصفعها، رد فعل جسدي ناجم عن التوتر. جزء من دماغها كان يلح عليها بالعودة لجلب هاتفها المحمول، والجزء الآخر يسألها إن كانت مجنونة حقاً لترغب في العودة إلى عرين الأسد.

ارتجفت من البرد، وتناولت روب الحمام السميك بلون السماء الأزرق من الخزانة في الردهة. كانت تفوح منه رائحة العطر الذي أخرجته بالأمس فقط، آملة أن تذكرها الرائحة التي اشتراها لها فيليب في أول يوم من شهر عسلهما في برشلونة بأسعد أيام الزمن السابق. لكن في تلك اللحظة، لم يفعل مزيج الكشمش الأسود والعنبر واللوتس سوى ترسيخ يقين إيما بأنها فقدت سعادة الماضي بلا رجعة.

بخطوات متثاقلة، جرت نفسها إلى المطبخ، حيث تناولت الهاتف المنزلي اللاسلكي من قاعدته بجوار آلة القهوة.

استندت بظهرها إلى الثلاجة المهتزة، ونظرت إلى الحديقة وهي تطلب رقم فيليب.

أرجوك أجب. أرجوك أجب...

حط غراب في منتصف الحديقة على الجذع المتشقق لشجرة "بتولا" مقطوعة الرأس، كانت قد ضربتها صاعقة قبل سنوات، وكان عليهما إزالتها

منذ زمن بعيد. في الخارج كان الظلام قد بدأ يحل، وأضواء المنازل المجاورة تتلألأ بدفء بين الأشجار كمصابيح كبريتية صغيرة.

في الزمن السابق، كانت لتصب لنفسها كوباً من الشاي في مثل هذا الوقت، وتشعل شمعة، وتشغل بعض الموسيقى الكلاسيكية، لكن الآن الموسيقى التصويرية الوحيدة المصاحبة لمزاجها المكتئب كانت رنين الهاتف اللامتناهي.

كانت تتوقع أن يحولها البريد الصوتي حين سُمعت نقرة على الخط، ثم سعال.

— "نعم؟ ألو؟"

ابتعدت إيما عن الثلاجة، لكن الاهتزازات ظلت تسري في ظهرها. وازدادت قوة حين أدركت من الذي أجاب على هاتف زوجها.

— "جورجو؟"

همس الشرطي:

— "هل كل شيء بخير؟"

— "نعم. أين فيليب؟"

— "إنه... انتظري ثانية."

سمعت حفيفاً، ثم خطوات، وأخيراً شيئاً يشبه إغلاق باب. تحدث جورجو بصوت أعلى الآن؛ وبدا صوته مشوهاً بغرابة، وكأنه يقف في غرفة فارغة.

— "لا يستطيع التحدث الآن."

— "أفهم."

— "إنه يلقي محاضرته حالياً. هاتفه كان معي طوال الوقت."

هل كان ذلك عذراً؟

ضغطت إيما السماعة بقوة على أذنها، لكنها لم تستطع تمييز أي ضجيج في الخلفية قد يؤكد أو ينفي مزاعم جورجو.

– "وأنت لا تريد الاستماع إلى صديقك المفضل وهو يتحدث؟"

– "لقد غادرت القاعة خصيصاً من أجلك. هل هناك مشكلة؟"

نعم. حياتي.

سألت:

– "كم سيستغرق الأمر بعد؟"

– "بعض الوقت. اسمعي، إذا كان الأمر يتعلق بزيارته لفندق (لو زين) مرة أخرى..."

فُتح صندوق ثلج في معدة إيما.

شهقت:

– "كيف عرفت بذلك؟"

كان التفسير بسيطاً بقدر ما كان محرجاً.

– "كان فيليب يضع هاتفه على مكبر الصوت في السيارة حين استمع لرسائله في وقت سابق."

رمشت بتوتر.

تباً.

لقد نسيت مكالمتها الأولى تماماً. وجورجو سمع كل شيء.

– "قبل أربعة أسابيع كان فيليب في الفندق بصفته المهنية. أنا أعرف ذلك، لأنني رافقته. طلبنا منهم أن يرونا كل الغرف في الطابق التاسع عشر مرة أخرى. ماذا كان بوسعه أن يقول غير ذلك حين وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه مع ذلك الطبيب البيطري؟ (مرحباً، أنا بانتظار مدير الفندق؟ نريد العثور على الغرفة التي اغتُصبت فيها زوجتي؟)"

أومأت إيما لا إرادياً.

أُغلق صندوق الثلج في معدتها مرة أخرى.

سأل جورجو بعد وقفة قصيرة:

— "ألم تستمعي لبريدك الصوتي؟"

— "عفواً؟"

— "لقد اتصل بك فيليب عدة مرات. لكنك لم تجيبي على هاتفك المحمول أو الأرضي."

لأنني اقتحمت منزل بالانت، حيث *فقدت هاتفي*، كادت إيما أن تقول ذلك.

يا لها من ورطة.

بمجرد أن يجد جارها الهاتف في ردهته، ستكون مسألة وقت فقط حتى يكتشف من الذي تسلل إلى منزله.

لقد رآني أيضاً في غرفة نومه!

تجمدت إيما عند ذكرى تلك العيون الواسعة التي لا ترمش.

— "هل يمكنك إخبار فيليب أنني متاحة مجدداً. فليتصل بي على الهاتف الأرضي. وشكراً على رسالتك."

ارتفع الصوت في الخلفية، وكأن جورجو وضع الهاتف على مكبر الصوت.

سأل:

— "أي رسالة؟"

— "أنت تعلم، تلك التي وضعتها في يدي قبل قليل. شكراً لأنك صدقتني."

— "أنا آسف، لكنني لا أعرف عما تتحدثين."

— "ماذا؟"

شعرت إيما بالدوار، وكأنها كانت تركض بسرعة مفرطة. جلست إلى المكتب وحدقت في الحديقة، باحثة عن نقطة ثابتة يمكن لعينها على الأقل التمسك بها، حتى لو كان عقلها قد خرج عن مساره.

رأت شجرة البتولا المتشظية مرة أخرى.

كان الغراب قد رحل.

– "لكنك... أنت أعطيت..."

الرسالة!

تحسست إيما جيوب بنطالها على عجل، لكنها لم تجدها. حاولت التركيز، لكنها عجزت عن تذكر أين وضعت رسالة جورجو. أحداث كثيرة وقعت في تلك الأثناء؛ ربما فقدتها عند الطبيب البيطري، أو في الطريق إلى منزل بالانت، أو حتى داخل منزله مع هاتفها.

سمعت جورجو يقول بصوت بدا فجأة حاداً بغرابة:

– "أنا لم أعطكِ أي رسالة."

أنت تكذب! كادت تصرخ، لكنها لاحظت جسماً على المكتب، كبيراً لدرجة يستحيل معها عدم ملاحظته. مثل المثل القائل عن الخشب الذي لا تراه بسبب الأشجار. ارتجفت إيما.

سمعت جورجو يسأل وكأنه من مسافة بعيدة جداً:

– "هل هناك أي شيء آخر؟"

لم تستطع إيما منع ارتعاشها من التحول إلى اهتزاز عنيف.

نقت بصوت مبحوح:

– "لا."

وأغلقت الخط، رغم أن ما أرادت حقاً صراخه هو:

نعم. هناك شيء آخر. شيء مروع!

كانت ترتجف بشدة لدرجة أنها أسقطت الهاتف اللاسلكي. رد الفعل المتطرف هذا لم يكن له علاقة بعيني بالانت أو هروبها من منزله.

بل بالطرد.

الشيء الذي أعطاها إياه سليم هذا الصباح لجارها الغامض.

لقد عاد مجدداً.

على المكتب.

في نفس المكان الذي وضعته فيه سابقاً.

وكأنه لم يبارح مكانه قط.

الفصل الثامن والعشرون

تمامًا كما يعي المدمن فداحة ما يفعله حين يرفع الكأس لرشفته الأولى، أدركت إيما ما كانت تفعله حين فكت الخيط المحيط بالطرد. كانت تشرع في أخطر فصول رحلة تدمير الذات، غائصة في أعماق عشوائيات وجودها العبثي.

كان أحد أوائل الأشياء التي تعلمتها في محاضرات الطب النفسي هو معنى كلمة «بارانويا»، وهي كلمة مشتقة من اليونانية وأفضل ترجمة لها هي «مخالفة لكل عقل أو منطق». وهذا بالضبط هو المسلك الذي تسلكه الآن: مسلك مخالف لكل منطق. بل إنها كانت ترتكب جريمة، رغم أن انتهاك قانون سرية المراسلات كان آخر همومها. كانت تخاف من نفسها أكثر بكثير.

ماذا لو كان الجميع على حق؟ الطبيب النفسي التابع للشرطة الذي ادعى أن إيما اختلقت قصة الاغتصاب لجذب الانتباه. وجورجو الذي أقسم أنه لم يعطها أي ورقة.

لكن الطرد ظهر مجددًا.

كانت إيما واثقة من أنه يحتوي على المفتاح لحل كل الأحداث المحيرة في الساعات، إن لم يكن الأسابيع، الماضية.

ولكن كم عدد الأشخاص الذين قابلتهم وهم يعانون من تشوه كامل في إدراك الواقع؟ كم عدد المرضى الذين عالجتهم، تلك الأرواح الضائعة التي لا تفعل شيئًا طوال اليوم سوى ليّ عنق ملاحظاتهم وتجاربهم ذهنيًا حتى تصلح في النهاية كدليل على أكثر نظريات المؤامرة والاضطهاد خبثًا؟ هل انتقلت هي إلى الضفة الأخرى؟ هل باتت تفعل الشيء نفسه؟

علمت إيما أن المرء يمكنه رؤية الأشياء بشكل مختلف. وأنها رغم اكتشافها لعدد من «التناقضات» في الساعات القليلة الماضية، لم تجد ذرة دليل تشير إلى أن هذا الطرد له علاقة بما فُعل بها. ومع ذلك، جرحت إبهامها بحافة الورق وهي تمزقه بعنف.

باعدت بين دفتي الكرتون، كاسرة الطرد تقريبًا، وبيدها اليمنى نبشت وسط كرات الفلين التي تحمي المحتويات أثناء النقل. استخرجت إيما علبًا بحجم علب الدواء، تعلوها كتابة أجنبية:

МОРФЕЙ N60 ТАБЛ.

كان هناك ما لا يقل عن عشر عبوات، من الورق المقوى الأبيض وعليها شريط أزرق سماوي. فتحت إيما إحداها.

أدوية فعلًا.

أقراص بلون بني بحجم قطرة ماء في شريط شفاف.

لكن أي نوع؟

تعلمت إيما الإنجليزية واللاتينية في المدرسة، لكنها لم تتعلم الروسية. التقطت العلبة المفتوحة مرة أخرى.

МОРФИЙ N60 ТАБЛ.

كان جزء من الكتابة يشير إلى جرعة الأقراص، وقد استطاعت استنتاج ذلك، لكنها جهلت الاسم التجاري أو المكونات.

عثرت إيما على نشرة تعليمات، محشورة بطريقة غير احترافية داخل العلبة. فردتها، فذكرتها الأحرف السيريلية بالأدوية الموجودة على طاولة سرير بالانت. واصلت النبش في كرات الفلين وعثرت على شيء لم يدفعها للصراخ، وهو أمر غريب، رغم أنها وجدت نفسها تمسك بسلاح قاتل.

مشرط بمقبض بلاستيكي.

شهقت إيما فقط حين فكت غلاف السيلوفان الممزق بالفعل لتكشف عن نصل ملون.

هل هذا دم؟

داهمها شعور سريالي بأن شخصًا ما خلفها يمد يده نحوها، فاستدارت، لكن لم يكن هناك أحد. ولا حتى سامسون، الذي تمنت لو كان هنا الآن.

دفعت المشرط جانبًا باشمئزاز وواصلت البحث في الطرد.

وجدت إيما زجاجة بنية اللون، ملصقها خالٍ من أي شعار أو طباعة، فقط بعض الكتابة بخط اليد:

ГАММА–ГИДРОКСИМАСЛАЯНЯ КИСЛОТА

فركت إيما عينيها واضطرت لإجبار نفسها على ألا تغمضهما لأكثر من لحظة. شعرت وكأنها سائق سيارة يحاول تجنب «الغفوة المفاجئة» أثناء القيادة.

يجب أن أركن السيارة وآخذ استراحة. فكرة جيدة.

تاقت نفسها إلى أريكتها (يا إلهي، نعم، مجرد تمدد صغير، أليس ذلك رائعًا؟)، لكن ذلك كان مستحيلًا. ماذا لو جاء بالانت لاستلام طرده؟

التقطت إيما المشرط ذي النصل الملطخ ودسته في جيب رداء الحمام الخاص بها.

ورغم وجود السلاح، شعرت بأنها عزلاء تمامًا؛ فبصرف النظر عن حقيقة أنها بالكاد في حالة تسمح لها باستخدام نصل إذا لزم الأمر، فإن المشرط سيكون عديم الفائدة ضد أكثر الأعداء رعبًا.

الشياطين التي تأكل عقلي.

ماذا لو أخذت قسطًا من الراحة واختفى الطرد مرة أخرى بعد أن يزول مفعول الديازيبام بالنوم؟

داعبت إيما فكرة التقاط صور كدليل لعلب الدواء المتناثرة على طاولتها، ولكن بماذا؟

هاتفها المحمول في منزل أ. بالانت، حيث بدا من أصوات الزوار الأجانب المتوحشين أنهم قادرون على قراءة هذه الهيروغليفية التي عجزت إيما عن فك طلاسمها... لحظة...

نظرت إلى جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها.

...الكمبيوتر يستطيع!

فتحت جهازها، وذهبت إلى إعدادات الدولة ووضعت علامة بجوار «روسيا».

كان ذلك سريعًا.

لكن الأمر استغرق وقتًا أطول بكثير للعثور على الأحرف الصحيحة على لوحة المفاتيح. لم تستطع المضي قدمًا إلا عن طريق التجربة والخطأ، لذا مر بعض الوقت قبل أن تنجح في كتابة МОРФИЙ N60 ТАБЛ و ГАММА–ГИДРОКСИМАСЛАЯНЯ КИСЛОТА في ترجمة جوجل.

وحين رأت النتائج في المربع الأيمن، تمنت لو أنها لم تفعل ذلك أبدًا:

مورفين وحمض غاما هيدروكسي بيوتيريك.

كل طفل يعرف الأول، وكل طبيب يعرف الثاني.

جي إتش بي (GHB). مخدر سائل لا يجعل المرضى في الجرعات العالية يرتخون ويصبحون بلا حول ولا قوة فحسب، بل يضعف ذاكرتهم أيضًا. وللأسف، اكتسب العقار سمعة سيئة في الصحافة باعتباره «مخدر الاغتصاب» بعد أن دسه العديد من المغتصبين سرًا في مشروبات ضحاياهم.

لهثت إيما، تتنفس بصعوبة.

كان الطرد يحوي المخدر الذي استخدمه «مصفف الشعر» مع جميع ضحاياه.

تراقص وميض أمام عينيها، وكأنها تحدق في أسفلت طريق ساخن في عز الصيف.

لقد وصلت إلى النقطة التي يجب أن يتوقف عندها هذا الجهد البحثي المنفرد. وبالمعنى الدقيق للكلمة، كانت قد تجاوزت تلك النقطة منذ فترة. وحيدة بشكل مريع، ومحطمة تمامًا، وبوهن مؤلم تقريبًا، نهضت إيما عن المكتب، وجرت جسدها نحو الأريكة وغاصت منهكة بين الوسائد.

فكرت في الطرد ومحتوياته، التي أملت أن تبدد شكوكها المرضية، لتكتشف أنها حققت العكس تمامًا.

فكرت في أ. بالانت الذي، تحت تهديد البلطجية، يبكي بصمت في ظلام غرفة نومه، وفي فيليب، الذي تركها وحيدة مع فراغها الداخلي والذي لا تستطيع التواصل معه الآن.

ليس لأن هاتفها المحمول ملقى بجوار حامل الشعر المستعار الخاص بـ بالانت في الردهة، لأن لديها هاتفًا أرضيًا. ولا لأنها خائفة من غضبه حين يكتشف أنها ارتكبت ثلاث جرائم اليوم بالفعل: التعدي على ممتلكات الغير، وانتهاك سرية المراسلات، والإضرار المتعمد بطرد بريدي.

لا، كان هناك سبب بسيط للغاية يمنع إيما من الاتصال بزوجها — عيناها كانتا تنطبقان.

آخر ما رأته من محيطها كان ظلًا يتحرك على بعد بضعة أمتار إلى يمينها عند باب غرفة المعيشة. ظل بدا وكأنه يتخذ شكل رجل مظلم. ورغم أن إيما انزعجت بشدة من هذا الطيف، إلا أنه لم يستطع إبقاءها مستيقظة. ومع كل خطوة كان يقترب فيها، كانت إيما تنزلق أبعد عن الوعي. وحتى صوت حفيف حذائه لم يستطع منعها من الانجراف إلى نوم عميق بلا أحلام.

الفصل التاسع والعشرون

بعد ثلاثة أسابيع

حين فتحت إيما عينيها واجهت صعوبة في تحديد موقعها.

كانت تدرك أين هي (في مكتب كونراد)، ومن تكون (مريضة مرتابة في قفص الاتهام)، ولماذا هي هنا (للإدلاء ببيان مهم — فالكثير على المحك). لكن لم تكن لديها أدنى فكرة أين اختفت الدقائق الأخيرة. عقرب الساعة على الرف تقدم ربع ساعة، وشاي «الآسام» في كوبها، الذي صبه كونراد للتو، لم يعد يتصاعد منه البخار رغم أنها لم تفعل سوى أن رمشت.

سألت كونراد بتثاؤب:

— "ماذا حدث؟"

أجابها:

— "لقد غفوتِ."

لم يعد يضع ساقًا فوق أخرى، لكن كان هذا التغيير الوحيد في وقفته التي لا تشوبها شائبة. كان يجلس مستقيمًا كعمود في مقعده، دون أن يبدو عليه أدنى توتر. كانت إيما تعلم أنه مناصر شغوف لتمارين الاسترخاء الذاتي منذ سنوات، وقد أتقن العقلية اللازمة للحفاظ على الهدوء.

سألت غير مصدقة وهي تدلك رقبتها المتشنجة:

— "غفوت؟ أثناء حديثنا؟"

— "في منتصف جملة. الدواء يجعلك متعبة، والجو حار جدًا هنا أيضًا. لقد خفضت شعلة المدفأة."

يا للأسف.

نظرت إيما إلى اللوح الزجاجي في الحائط، حيث كانت ألسنة لهب الغاز تتراقص بحيوية أقل، ولم تستطع منع نفسها من التثاؤب مجددًا.

رفع كونراد حاجبيه وسأل برفق:

— "ربما ينبغي أن نتوقف عند هذا الحد اليوم يا إيما."

— "هل عليَّ العودة؟"

ابتلعت ريقها. مجرد التفكير في «زنزانتها» خلق غصة في حلقها.

— "أخشى ذلك، لكنني أضمن أنهم لن يخدروكِ الليلة."

يا له من تقدم!

— "أظن أنني أرغب في البقاء لفترة أطول قليلاً."

— "حسنًا، لكن..."

— "لا، لا بأس. التعب ليس مرضًا، أليس كذلك؟ لا يزال لدي بعض القوة، لذا يجب أن نستغل الوقت. إخبارك بكل شيء يفيدني."

ضغط عليها كونراد:

— "كل شيء؟"

— "إلام تلمح؟"

أخذ نفسًا عميقًا وتوقف للحظة.

— "حسنًا، ألاحظ أن هناك بعض الأمور التي تمرين عليها مرور الكرام قبل أن تغيري الموضوع بسرعة."

— "مثل ماذا؟"

— "المال، على سبيل المثال."

– "أي مال؟"

ابتسم كونراد بمكر، وكأن هذا السؤال هو الدليل على صحة كلامه.

– "ألم تقولي إن العيادة البيطرية اشتكت من أن بطاقتك الائتمانية محظورة؟"

– "أوه، ذلك."

شبكت إيما يديها في حضنها.

– "ما قصة ذلك؟ هل كان خطأ بنكيًا؟"

اعترفت بصوت خافت:

– "لا."

– "إذًا كانت محظورة بالفعل؟"

– "نعم."

أومأت برأسها.

– "والبريد الإلكتروني الذي ذكرته عرضًا من قبل. ذلك الذي أشار إلى حظر حسابك، وظننته بريدًا مزعجًا..."

– "كان حقيقيًا، نعم."

ضيق كونراد عينيه:

– "هل كنتِ أنتِ وفيليب تعانيان من مشاكل مالية؟"

– "لا."

– "ماذا إذًا؟"

نحنحت إيما بحرج، ثم استجمعت قواها:

– "أنت سألت إن كنا نحن نعاني من مشاكل مالية. قلت لا، لأنني أنا فقط من كان في ورطة."

كان من الصعب تصور أن يقع فيليب في ضائقة مالية أبدًا. لقد ترك له والداه ثروة جمعاها من بناء محطات خدمة الطرق السريعة، قبل أن يختطفهما السرطان سويًا.

– "لقد طلبت الكثير، كل أنواع السخافات من التسوق عبر التلفاز والإنترنت، من مستحضرات التجميل الباهظة إلى شبابيك الميكروويف. أشياء عديمة الفائدة كنت أشتريها لأحاول صرف ذهني عن الأمور. وفي هذه الأثناء لم تكن عيادتي تدر سنتًا واحدًا."

سأل كونراد:

– "لكن بالتأكيد لم يتخلَ عنك فيليب في محنتك؟"

– "لا، أنت تعلم كم هو كريم. لم نوقع اتفاقية ما قبل الزواج، رغم أنه هو من جلب كل المال لزواجنا. لكنه كان يسدد بالفعل قرض عيادتي. استخدمت حسابي الخاص لإدماني على التسوق."

– "وحين فرغ الحساب، خجلتِ من إخباره؟"

خفضت إيما بصرها:

– "نعم."

قال كونراد وكأنه يشطب بندًا من القائمة، وبالفعل غيّر الموضوع.

– "فلنناقش ما أخبرتني به عن سيلفيا. ما الذي أثار غضبك أكثر؟ حين زعمت أنكِ استبدلتِ الحبوب، أم حين تحدثت عن الاغتصاب «المزعوم»؟"

ابتلعت إيما ريقها.

– "لا أعرف. أظن أنهما شيء واحد. لقد نعتتني بالكاذبة المجنونة التي تسعى لإيذائها."

أمال كونراد رأسه جانباً:

– "أفعلت حقًا؟ ألم تكن في الواقع تشكك في إدراكك الحسي؟"

قطبت إيما جبينها:

– "لا أرى فرقًا."

– "أوه، الفرق هائل. أنتِ تعلمين جيدًا كيف يمكن لثلاثة شهود على حادث سيارة أن يأتوا أحيانًا بأربع روايات مختلفة للحادث. لا أحد منهم يكذب، لكن في المواقف العصيبة، غالبًا ما يلعب الدماغ ألاعيبه."

– "ربما، لكنني سأعرف قطعًا ما إذا كنت قد استبدلت حبوبها عمدًا، وما إذا كنت قد اغتُصبت أم لا."

أومأ كونراد، وحدث شيء مريب. تغير، وبسرعة مذهلة، وكأن زرًا قد ضُغط. تلاشت ابتسامته الأبوية بسرعة تلاشي خطوط الضحك حول عينيه. أصبح تعبيره حادًا، يكاد يكون متصلبًا، وبحدة دبابيس الرسم على مكتبه. برزت عظام فكيه وأصبح تنفسه هادئًا جدًا.

هكذا يبدو الثعلب قبل أن ينقض على الأرنب، فكرت إيما، وبالفعل تحول مرشدها اللطيف إلى المحامي النجم سيئ السمعة الذي يخشى الشهود والمدعون العامون في جميع أنحاء ألمانيا استجواباته.

سأل:

– "إذًا أنتِ متأكدة؟"

– "نعم."

تحت بطانية الكشمير، قبضت إيما يديها.

– "بنفس درجة تأكدك من أنك عولجتِ قسرًا أثناء تجربة روزنهان؟"

– "كونراد، أنا..."

– "على الأقل هذا ما أخبرتِ به الجمهور في محاضرتك. عرضتِ عليهم فيديو. ورغم أن المرأة كان لها لون شعر مختلف، شرحتِ أنكِ أنتِ من كانت تتلقى الصدمات الكهربائية."

– "نعم، ولكن..."

وبهذا خرج السر للعلن. الـ «لكن» التي غيرت كل شيء. فركت إيما عينيها في محاولة يائسة لحبس الدموع.

– "لكن حتى أنا لا أعرف لماذا كذبت بشأن ذلك. حسناً، بلى، أعرف. أردت أن أسحب البساط من تحت قدمي زميل يُدعى شتاودر–ميرتنز. وغد متعجرف كان يحاول جعلي أضحوكة بأسئلته. كان تصرفًا غبيًا جدًا مني، ولكن..."

تركت الـ «لكن» الثانية معلقة في الهواء، لأنه لم يكن هناك ما يمحو خداعها.

قال كونراد:

– "تلك الأسئلة الناقدة من زميل ربما كانت المحفز لكذبتك. لكن ليست السبب."

– "أعرف ذلك."

التفتت نحو النافذة وحدقت في الثلج على البحيرة. تمنت لو كانت هناك في الخارج. تطفو بلا حياة، تحت الجليد.

ضغط عليها كونراد، مواصلًا:

– "بالطبع تعرفين. الكذب المرضي هو مجال تخصصك. تعرفين الظروف التي يمكن أن تؤدي للكذب الباثولوجي."

– "كونراد، أرجوك..."

التفتت إيما مرة أخرى ونظرت إليه بتوسل، لكن محامي الدفاع الجنائي لم يعرف الرحمة وشرع يعدد الأعراض:

– "إهمال في الطفولة. نبذ من قبل الوالدين، الأب مثلًا. خيال خصب للغاية يسمح للمرء بالهروب إلى عالم من الوهم حيث يختلق شخصية بديلة للتعلق بها، قد تُسمى آرثر."

– "توقف!"

أزاحت إيما البطانية عن ركبتيها وصرخت:

— "لماذا نتكبد عناء الحديث إذا كنت لا تصدق كلمة مما أقول؟"

همت بالقفز من الأريكة، لكنها قدرت قوتها بشكل خاطئ، فترنحت للخلف، موقعة كوب الشاي.

سقطت قطرات دسمة من طاولة القهوة على الجزء الأبيض من السجادة. لم تكن البقعة لتبدو واضحة بهذا القدر على الخيوط السوداء التي بهتت إلى البني عبر السنين.

امتلأت عيناها بدموع جديدة، وهذه المرة لم تكلف نفسها عناء مقاومتها:

— "أنا آسفة حقًا يا كونراد. يا للمسيح، لم أقصد ذلك."

سمعت كونراد، الذي قفز واقفًا بشكل غريزي، يقول:

— "لا مشكلة."

ومن حيث المبدأ كان محقًا. كانت بقعة صغيرة، ستزول بسهولة بالتنظيف، لكنها شعرت وكأنها دنست أقدس ما يملك.

لماذا كان يجب أن تكون سجادة الـ O؟

كانت تعرف ما تعنيه تلك القطعة الدائرية القديمة لـ كونراد. أحضرها قبل عقود من رحلة إلى التبت حين كان طالبًا. كانت أول مقتنياته الكبيرة، تميمته للحظ — وها هي قد لوثتها.

سأل كونراد حين حاولت النهوض من الأريكة مرة أخرى:

— "إلى أين تذهبين؟"

أشارت إلى الباب بجوار المخرج الذي يؤدي لمرحاض كونراد الخاص.

— "لأحضر بعض الماء والصابون."

هز رأسه برفق، عائداً ليكون صديقها القديم ومرشدها مرة أخرى.
حدث التحول في جزء من الثانية مجددًا، وحتى إن لم يكن يبتسم، بدا صوته دافئًا وودودًا كما كان من قبل:

– "السجادة ليست مهمة يا إيما. المهم هو أن تخبريني الحقيقة."

– "أنا أحاول، لكنك تخيفني."

هز كونراد كتفيه وكأنه يقول: «أعرف، لكن ماذا بيدي؟»

قال برفق وهو يجلس مجددًا:

– "لا تشعري بالرهبة مني. أنا فقط ألعب دور محامي الشيطان هنا. أثناء المحاكمة، سيحاول المدعي العام زعزعتك بحيل مختلفة تمامًا."

ابتلعت إيما ريقها، متمنية لو يعانقها، أو على الأقل يمسك يدها، لكنه اكتفى بمراقبتها تجلس مرة أخرى. عندها فقط نهض، وأخرج منديلاً كبيرًا من جيب بنطاله ومسح الطاولة الزجاجية. تجاهل البقعة الداكنة على الأرض.

– "سيكشف المدعي العام كل أسرارك المظلمة، وهذا واجبه. ففي النهاية، هو يريد أن يراكِ مسجونة مدى الحياة."

– "أعرف."

حكت إيما أعلى جبهتها، مقاومة الرغبة في تفقد طول شعرها. مسحت أنفها بمنديل ورقي، ثم قالت:

– "لم أخطط لحدوث أي من هذا، هل تصدقني؟"

نقر كونراد على شفتيه، ثم ضمهما وأجاب بعد تفكير قصير:

– "عادة في هذه المرحلة أقول دائمًا إن ذلك ليس مهمًا. لا يهمني ما إذا كان موكلي يكذب أم يقول الحقيقة. لكن في هذه الحالة الأمر مختلف."

– "لأننا أصدقاء؟"

– "لأنني لا أعرف القصة كاملة بعد يا إيما. احكيها لي! وليس فقط ما أعرفه مسبقًا من الملفات. عليكِ الغوص أعمق والتحدث عن الأشياء التي تجدينها مؤلمة."

زاغ بصر إيما.

ناظرة عبر كونراد، فهمت بالطبع ما يعنيه. أراد أن يسمع عن الجثث.

حسنًا إذًا...

ركزت عيناها مجددًا، جالت عبر النار والمكتب الضخم إلى النافذة، التي تقع خلفها بحيرة ربما لن تمشي عليها ثانية في حياتها.

في المقابل، كانت في رأسها صور سترافقها في كل مكان، مهما بلغت سرعة هروبها من نفسها.

على سبيل المثال، البرميل ذو الأطراف المقطوعة.

نعم، هذه فكرة جيدة.

لما لا أخبره عن البرميل؟

لكن قبل ذلك، كان عليها أن تشرح كيف انتهى بها المطاف في الكوخ أصلاً، ولماذا اضطرت لمغادرة المنزل لمرة ثانية، دون أن تلاحظ أنها كانت مراقبة من قبل رجل التوصيل...

كل شيء في وقته.

وهكذا استلقت إيما مرة أخرى على الأريكة، واستجابت لطلب كونراد بالذهاب إلى حيث تجد الألم الأكبر.

عائدة إلى المنزل في "تويفيلزي–آلي"، حيث ستفقد قريبًا كل شيء كان مهمًا لها يومًا ما.

الفصل الثلاثون

قبل ثلاثة أسابيع

ظلت هادئة تمامًا.

كانت إيما قد غفت وهي جالسة، فانزلق رأسها إلى الجانب واستقر الآن على حافة وسادة الأريكة، مما جعل الغرفة تميل بزاوية خمس وأربعين درجة عكس اتجاه عقارب الساعة.

الكوب على طاولة القهوة، وإطار الصورة على رف المدفأة، والمزهرية ذات الزهور المجففة في النافذة — بدا كل شيء وكأنه يتحدى الجاذبية.

بما في ذلك الرجل الذي يقف على بعد ثلاث خطوات منها.

للحظة، ظنت إيما أنها عالقة في حلم، وفي البداية دهشت لأنها تستطيع الحلم رغم تناولها الحبة المنومة. ثم دهشت من دهشتها تلك، لأنها عادة لا تميل للتأمل في حالة وعيها أثناء النوم. وأخيرًا أدركت أنها فتحت عينيها وأن كل ما حولها حقيقي: الغبار على طاولة القهوة، والجمر الخامد في المدفأة، ورداء الحمام الذي أغرقته بالعرق خلال نومها القصير والعميق.

وذلك الرجل ذو الحذاء الشتوي الضخم، الذي كان يقطر ثلجًا ذائبًا على ألواح الأرضية.

الرجل!

اعتدلت إيما في جلستها بسرعة جعلتها تشعر بالدوار للحظة، وبدأ العالم يدور من حولها.

مدت يدها إلى مفتاح المصباح القائم وضغطت عليه. غمر ضوء دافئ وناعم غرفة المعيشة التي كانت غارقة في عتمة الغسق.

قال الرجل رافعًا يده:

— "مرحبًا".

قالت إيما وهي تتحسس المشرط في جيبها:

— "ماذا تريد؟"

بشكل غريب، كانت أقل خوفًا بكثير مما ينبغي لها أن تكون عليه وهي تحدق في رجل اقتحم منزلها أثناء نومها.

كانت مضطربة، متوترة، تشعر بما قد تشعر به قبل امتحان لم تراجع دروسه، لكنها كانت بعيدة كل البعد عن أن تشلّها الصدمة أو حتى عن الصراخ. ليس استسلامًا لقدرها، بل لأن الرجل بدا أقل إثارة للرعب مما كان عليه في المرة الأولى التي رأته فيها.

قبل أقل من ساعة.

حين كان ينتحب في غرفة نومه.

سألت:

— "سيد بالانت؟"

أومأ الدخيل بصمت.

كان أصلع من قبل، لكنه الآن يرتدي شعرًا مستعارًا قصيرًا وبنيًا داكنًا، تحول إلى اللون الأسود بسبب المطر الثلجي.

كان طويل القامة، يقارب طول سيلفيا، ونحيلًا، بل هزيلًا. كان معطفه الماطر الأسود يتدلى فوق كتفيه الغائرتين مثل قماش مشمع. كانت أزراره صفراء، وبدت عصرية بشكل يثير الفضول لشخص لا يبدو عليه

الاهتمام بمظهره في سائر الأمور. وسرواله المخملي، الذي كان رقيقًا جدًا لمثل هذا الطقس، بدا أكبر من مقاسه بعدة درجات، وكأن بالانت مضطر لارتداء ملابس أخ أكبر. ومع ذلك، لا بد أنه في الستين من عمره على الأقل.

أكثر ما يلفت الانتباه فيه كان نظارته. مسخ بلاستيكي بيج اللون بعدسات سميكة لدرجة تكاد تحجب عينيه خلفها. هل يستطيع رؤية أي شيء على الإطلاق بدونها؟

سألت إيما مرة أخرى، آملة ألا يكون بالانت قد تعرف عليها في غرفة نومه:

— "ماذا تريد؟ وكيف دخلت إلى هنا؟"

دفعت إيما نفسها ناهضة عن وسائد الأريكة، وشعرت وكأن عليها أن تعتذر، رغم أن جارها هو من اقتحم منزلها، واقتحام المنازل جرم أخطر من الإتلاف الجنائي، أليس كذلك؟

قال:

— "أنا آسف. آمل ألا أكون قد أخفتكِ، لكن بابكِ الأمامي كان مفتوحًا".

الباب الأمامي؟

تذكرت إيما حين كانت ملقاة تنتحب على الأرض وسمعت سيلفيا تصفق الباب الأمامي بغضب. بقوة جعلتها تشعر بالارتجاج في غرفة المعيشة.

ربما ارتد لسان القفل ولم ينغلق بإحكام.

لم أتحقق من الأمر — يا لي من بقرة غبية!

أشاح بالانت بوجهه عنها ونظر ناحية المكتب.

إلى الطرد!

الممزق وكأن طفلًا نافد الصبر قد فتحه في عيد الميلاد، ومحتوياته مبعثرة بين كرات الفلين على المكتب.

قالت بشعور بالذنب وهي تشير إلى الطرد:

– "أنا آسفة. أنا... حسنًا... لستُ في حالة جيدة. كانت فكرة غبية أن أعبث بالبريد بعد تناول قرص منوم. ظننتُ أن الطرد لي. آسفة".

قال بالانت:

– "لا مشكلة".

بدت كلماته ودودة ودافئة، لكن صوته كان ضعيفًا.

– "كما قلت، أنا من يجب أن يعتذر".

هزت إيما رأسها دون وعي، فتابع بالانت:

– "بلى، بلى. ما كان ينبغي لي أبدًا أن أقتحم المكان هكذا لاستلام طردي".

دس يده في الجيب الخلفي لسرواله وأخرج بطاقة سليم.

– "لقد طرقتُ الباب، لكنني لم أجد جرسًا..."

– "إنه بالخارج عند بوابة الحديقة".

– "أوه، نعم، صحيح. لم أعد إلى البوابة بمجرد صعودي الدرج. أنا غير ثابت على ساقي قليلًا، كما ترين".

نظر إلى الأسفل وكأنه يتفحص ساقيه الهزيلتين ليتأكد من أنهما لا تزالان متصلتين بجسده الضامر.

– "على أية حال، عندما لم يجب أحد، خشيت أن يكون هذا المنزل قد تعرض للسرقة أيضًا".

سألت إيما:

– "أيضًا؟"

وفجأة حضر الخوف. لأنها بالطبع كانت تعرف عما يتحدث بالانت.

قال جارها وهو يحك مؤخرة رأسه:

— "أوه، لقد سُرقت عدة مرات، بما في ذلك اليوم".

— "اليوم دخلوا حتى غرفة نومي وراقبوني".

تجمدت أطراف إيما. فتحت فمها عازمة على طرح الأسئلة التي قد يطرحها شخص بريء على الفور: من تعني؟ ماذا أرادوا منك؟ هل اتصلت بالشرطة؟

لكن لم يخرج أي صوت من شفتيها.

ليس حين رأت الشعر المستعار يتحرك على رأس بالانت وهو يواصل الحك.

تمتم بشيء بدا مثل «هذه الحكة اللعينة...» وفي الوقت نفسه تحولت نظارته الضخمة إلى حوض سمك من الدموع.

لقد بدأ بالانت في البكاء.

الفصل الحادي والثلاثون

قال بالانت وهو ينشق أنفه وينظر حوله كما لو كان يبحث عن شيء محدد في غرفة المعيشة:

– "هل تمانعين...؟"

بدا أنه وجد ضالته، إذ تحول عن إيما وخطا خطوة إلى اليمين.

– "هل تمانعين لو جلست؟"

ودون انتظار الرد، ارتمى بوهن في المقعد الذي يقف بزاوية مائلة أمام الأريكة، حيث يحب فيليب قراءة الصحيفة أيام الآحاد. كان مقعدًا من الجلد الأخضر الداكن بمساند ذراعين بلون الأسمنت، في مظهر صناعي قبيح من وجهة نظر إيما، لا يتناسب البتة مع الأثاث الريفي لبقية المنزل. لكنه كان إرثًا من والدة فيليب وكان متعلقًا به. بدا بالانت مرتاحًا فيه أيضًا؛ على الأقل أطلق تنهيدة ارتياح، ومسح الدموع عن وجنتيه بظهر يده، وأغمض عينيه.

كانت إيما، التي وقفت مترددة بجوار طاولة القهوة، تخشى أن يغفو جارها، حين فتح بالانت عينيه مجددًا.

– "أجد الأمر محرجًا للغاية يا سيدة شتاين، لكنني لست على ما يرام، كما ترين ربما."

سيدة شتاين.

تساءلت إيما للحظة من أين للجار أن يعرف اسمها، إذ لم يكن مكتوبًا على الباب. ثم تذكرت أن سليم لابد قد كتبه على إشعار الاستلام.

سألت، رغم أنها كانت في الحقيقة تبحث عن إجابات أخرى:

— "مما تشكو؟"

هل وجد هاتفي المحمول، كبداية؟ ما خطب شعره؟ هل يلعب معي لعبة القط والفأر، ونحن الآن في مرحلة الهدوء التي يُفترض بـ إيما أن تظن فيها أن بالانت الضعيف المتألم لا يشكل خطرًا، بينما في الحقيقة ينتظر اللحظة المناسبة لينقض على عنقها؟

قال باقتضاب:

— "لدي سرطان. ورم في الكبد. وانتقالات سرطانية في الرئتين."

— "أهذا سبب الأدوية؟"

نظر كلاهما إلى المكتب.

قال بالانت بصراحة:

— "مورفين وGHB. واحد يذهب بالألم، والآخر إما يحفزني أو يساعدني على النوم حسب الجرعة. اليوم، على الأرجح، تناولت جرعة زائدة وفوتّ موعد رجل التوصيل."

ضحك بحزن:

— "لم أكن لأظن يومًا أنني سأصبح مدمنًا. طوال حياتي مارست الرياضة، وأكلت طعامًا صحيًا، ولم أشرب الخمر قط — حسنًا، لم يكن مسموحًا لي بذلك في مهنتي."

تحدث بالانت بسرعة، بذلك المزيج من الانفعال والخجل المعهود لدى الأشخاص الوحيدين الذين يجدون أخيرًا، بعد زمن طويل، فرصة للحديث مع أحد، حتى لو كان غريبًا تمامًا.

أوضح قائلاً:

– "كنت في السيرك. كانوا يسمونني (العنكبوت أبو طويلة). ربما سمعتِ عني. لا؟ أوه حسنًا، كان ذلك منذ زمن بعيد. على أية حال، سميت بذلك لأنني أملك ساقين طويلتين أيضًا، لكن يمكنني جعل نفسي صغيرًا جدًا. يا إلهي، كنت مرنًا للغاية. كنت أحظى بأعلى التصفيق لفقرة الحقيبة."

سألت إيما:

– "فقرة الحقيبة؟"

– "نعم، كان بإمكاني ثني جسدي لأدخل في حقيبة صغيرة."

ابتسم بالانت بحزن:

– "كانت لدي عظام مطاطية آنذاك. هذه الأيام يؤلمني مجرد ربط حذائي."

ابتلعت إيما ريقها. لم تستطع التخلص من فكرة رجل يحشر نفسه في أقصى زاوية بالغرفة ليتجنب الانكشاف قبل أن يخلد ساكنها للنوم.

لكن في فندق (لو زين) لم تكن هناك زاوية واحدة للاختباء. ولا حتى لبهلوان.

نظرت إيما إلى النافذة. كانت ندف الثلج تدور تحت رأس مصباح الشارع كسرب من العث حول الضوء في الصيف. شعرت بألم مكتوم يضغط على جبهتها من الداخل. لم تستطع منع نفسها من التفكير في أن نصف حبة من تلك الأقراص على مكتبها سيكون كافيًا لقتل الألم، مهما اشتدت نوبة الصداع النصفي التي كانت تتشكل الآن.

لاحظت أن بالانت قد تبع نظرتها المتأملة نحو الطرد، فقالت:

– "الأمر لا يعنيني، لكن، حسنًا، أنا طبيبة."

أطلق بالانت ضحكة ذات صرير:

– "وتريدين معرفة لماذا أطلب هذه الأدوية المقلدة الرخيصة من السوق السوداء؟"

أومأت إيما.

شرح بالانت:

– "كانت فكرة غبية. كما ترين، لم يكن لدي تأمين صحي قط. ما الفائدة؟ طوال حياتي كنت بصحة جيدة، وظننت أنه إذا ساءت الأمور، يمكنني العيش على مدخراتي في منزل والدتي."

– "السيدة تورنوف؟"

– "كان هذا اسم عائلتها قبل الزواج. استعادته بعد الطلاق. هل كنتِ تعرفينها؟"

بدا بالانت مسرورًا وابتسم برفق.

قالت إيما:

– "كنا نلتقي في الشارع من حين لآخر. لم أرها منذ دهر."

– "إنها في تايلاند. في دار رعاية على الشاطئ مباشرة."

أومأت إيما. كان ذلك منطقيًا. المزيد والمزيد من المتقاعدين الألمان يقضون سنوات تقاعدهم في آسيا، حيث يمكنهم الحصول على رعاية صحية أفضل بمال أقل بكثير. وحيث لا يكون الشتاء باردًا كما في الوطن.

– "يُفترض بي رعاية المنزل في غيابها."

هم بالانت بإضافة شيء ما، لكنه وضع يديه على فمه فجأة. هزت نوبة سعال مفاجئة جسده بالكامل.

– "آسف..."

حاول قول شيء، لكنه اضطر لمقاطعة نفسه مرارًا، وبدا كأنه لا يحصل على كفايته من الهواء.

أحضرت له إيما كوب ماء من المطبخ. حين عادت كان وجهه أحمر قانياً، وبالكاد فُهمت كلماته وهو يزفر:

– "هل تمانعين إعطائي حبة دواء؟"

ناولته المورفين من المكتب.

بلهفة ابتلع حبتين دفعة واحدة، ثم سعل لثلاثين ثانية أخرى حتى استقر واسترخى أخيرًا.

قال وجفناه يرتجفان:

– "عذرًا."

كان قد أزال نظارته لفترة وجيزة ليمسح دموعه بظهر يديه.

– "أحيانًا أستيقظ بألم شديد لدرجة أنني لا أستطيع منع نفسي من البكاء."

أعاد بالانت نظارته إلى جسر أنفه وابتسم معتذرًا:

– "أعرف أنني أبدو كفزاعة بهذه النظارة، لكن إن لم أرتدها، يمكن أن تنهضي وتغادري الغرفة وسأستمر في التحدث لوسائد الأريكة."

قطبت إيما أنفها بعفوية وجلست مرة أخرى على الأريكة.

هل هذا صحيح؟

ربما كان هذا هو السبب في تصرفه بتلقائية معها. خاصة وأنه حين استيقظ سابقًا ربما كان يعاني الألم الذي يتحدث عنه. وبدون نظارته والدموع في عينيه، لم يكن ليتمكن من رؤيتها واقفة بجوار سريره.

ربما لم يجد هاتفي المحمول بعد؟

أرادت ذاتها المرتابة رؤية الأمور من منظور مختلف بالطبع، معتبرة أنطون بالانت ممثلاً موهوباً يتظاهر بالمرض ليوقعها في شعور زائف بالأمان، فهو يرتدي شعراً مستعاراً في النهاية! لكنها كانت تتوق لتفسير

بريء ومنطقي لكل الأحداث الغامضة التي عاشتها وشهدتها اليوم، ولهذا سألت إيما جارها بصراحة:

– "هل فقدت شعرك بسبب العلاج الكيماوي؟"

أومأ بالانت:

– "نعم، يبدو الأمر مروعًا، أليس كذلك؟"

رفع الشعر المستعار قليلاً، واستطاعت إيما رؤية بقع الشيخوخة تنتشر في جميع أنحاء رأسه.

– "إنه شيء رخيص من الإنترنت ويسبب حكة رهيبة. لكنني لا أجرؤ على الخروج للشارع بدونه. برأس أصلع أبدو كمغتصب."

أطلق ضحكة حنجرية، وحاولت إيما التظاهر بالشجاعة برفع زاويتي فمها هي الأخرى.

مصادفة، قالت ذاتها المتفائلة.

إنه يتلاعب بكِ، ردت هويتها المرتابة.

انحنت إيما للأمام على الأريكة، كما اعتادت أن تفعل في جلسات علاجها حين تريد إيهام المرضى بأنهم يحظون باهتمامها الكامل.

– "قلت إن الأدوية الأجنبية كانت فكرة سيئة؟ ألا تجدي نفعًا؟"

أومأ بالانت:

– "إنها نسخ رخيصة. ما كان ينبغي عليّ أبدًا التعامل مع الأشخاص الذين يزودونني بها."

– "روس؟"

– "لا. ألبان. يحصلون عليها من السوق السوداء ويرسلونها بالبريد، دون كشف هويتهم بالطبع، لأنهم لم يحصلوا عليها بطرق قانونية تمامًا."

– "إذًا ما المشكلة؟"

– "أولئك الأوغاد محتالون. حين تطلبين الأدوية، تكلف أقل من ثلث المنتجات العادية، ولهذا اخترتها. لا أستطيع تحمل تكلفة أي شيء آخر، كما ترين. كل مالي ذهب على العلاجات البديلة. شامانات، علاج جيني، معالجون بالمعجزات – أهدرت كل مدخراتي وآمالي عليهم. لكن بعد التسليم الأول، طالبني الأوغاد فجأة بأكثر من ألف يورو. أنا لا أملك مالاً كهذا."

– "وهكذا يقتحمون منزلك؟"

بهذا السؤال ضغطت إيما على زر ما. تصلبت ملامح بالانت الطيبة والجدّية. تحولت شفتاه إلى خطين رفيعين، ثم اختفتا، بينما اكتست عيناه بتعبير غريب.

– "نعم، لتحصيل المال."

رفع يده اليمنى وأشار باتجاه إيما. كانت أصابعه ترتجف كشخص مصاب بمرض باركنسون[2].

قال بانفعال:

– "التهديدات كانت أكثر دهاءً في البداية."

غضبه من الأشخاص الذين يبتزونه أنساه انتقاء كلماته بتهذيب كما فعل سابقًا.

– "أولئك الأوغاد يستمرون في إرسال المخدرات لي. والجودة تتدهور باستمرار. بالكاد تعمل الآن، تفعل ما يكفي فقط لمنعي من الموت قبل أن يحصلوا على مالهم."

[2] مرض عصبي يسبب الرعشة وفقدان التحكم الحركي.

مسح بالانت بعض اللعاب عن شفته السفلى، ثم بدا أنه لاحظ مدى توتر إيما. مذهولة ومصدومة من تقلب مزاجه المفاجئ، كانت تحبس أنفاسها.

قال بالانت:

— "أنا آسف، لقد انفعلت."

وهدأ الغضب فيه بالسرعة التي اشتعل بها.

تساءلت إيما عما إذا كان مرضه قد أطلق اضطرابًا ثنائي القطب. وقررت ألا تستهين به، فدعت بالانت للمتابعة.

— "حسنًا يا سيدة شتاين، ماذا عساي أن أقول؟ إنهم يفعلون كل ما في وسعهم لترهيبي. على سبيل المثال، يضعون قصاصات صحف عن جرائم قتل مروعة في طرد."

أو مشرطاً داميًا.

— "كتحذير بأن اسمي قد يظهر في الصحف أيضًا، هل ترين؟ لكنهم لم يعودوا يكتفون بالتلميحات. إنهم يفتشون منزلي، ويهددون بضربي. لم أعد أستطيع إغلاق بابي، لقد كسروه في المرة الأخيرة. وكانوا هناك اليوم."

— "لماذا لا تذهب للشرطة؟"

تنهد بالانت بوهن:

— "لم يكن للإبلاغ عنهم أي جدوى حتى الآن. أعني، لا أعرف من هم ولا أين يعيشون. لا أعرف أي أسماء. ماذا يمكن للشرطة أن تفعل؟ تضع حراسة على مدار الساعة لمنزل مريض بالسرطان؟ أخشى أن لديهم أشياء أهم ليفعلوها."

— "كيف وصلوا إليك؟"

— "طلبت عبر موقع إلكتروني روسي."

— "وماذا تعني بـ (حتى الآن)؟"

– "عفوًا؟"

– "قلت إنه لم يكن هناك جدوي للإبلاغ عنهم حتى الآن. ما الذي تغير؟"

– "أوه، فهمت. نعم، المبتزون ارتكبوا خطأً. لقد أضاعوا هاتفًا محمولاً."

ابتسم بالانت بانتصار، بينما ارتفعت درجة حرارة جسد إيما عدة درجات.

رددت كالصدا:

– "هاتف محمول؟"

– "نعم. وجدته في الردهة. يمكنك الحصول على رقم صاحبه منه، أليس كذلك؟"

هزت إيما كتفيها. بدأ جفنها الأيمن يرتعش.

نعم، يمكنك. مثل فتاة مطيعة وضعتُ رقم اتصالي في حال فُقد يومًا.

شعرت بالغثيان.

– "هل أبلغت أحدًا عن الاقتحام بعد؟"

لارتياح إيما، هز رأسه نفيًا.

– "لا. حين وجدت بطاقة التسليم قررت المجيء إليكِ أولاً لأخذ أدويتي. لدي مورفين في المنزل، لكن القطرات تنفد مني."

نهض بالانت.

– "شكرًا جزيلاً لاستماعك إلي. وبالطبع، لشربة الماء. وأرجو المعذرة مرة أخرى إن كنت قد أفزعتكِ بدخولي هكذا. أوه، هل لديكِ كيس؟"

– "كيس؟"

أشار بالانت إلى الطرد الممزق.

– "لأدويتي. ثم يمكنني العودة للمنزل وفحص الهاتف."

سألت إيما بقلق:

– "لماذا؟"

– "لا فكرة لدي. لست متأكدًا حقًا بعد. في الحقيقة، لست من كبار المعجبين بالشرطة. لكن ربما يمكنهم فعل شيء إذا أعطيتهم اسم الشخص صاحب الهاتف."

الفصل الثاني والثلاثون

قلما وجدت إيما نفسها عاجزة عن التعامل مع موقف ما كهذا الموقف.

لم تعد تشعر بالتعب حقًا، رغم أن الغفوة التي انتزعها منها جارها كانت أقصر من أن ترمم قواها. ولكن، تمامًا كما حدث في منزل بالانت قبل قليل، كان للخوف من الانكشاف مفعول السحر في بث النشاط فيها.

كان لزامًا على إيما أن تحول دون افتضاح أمر «اقتحامها».

لا ينبغي لـ بالانت، تحت أي ظرف، أن يتصل بالشرطة. كيف سيبدو الأمر لو شاع أنها، بسبب لوثة عقلية أصابتها، اقتحمت منزل رجل عجوز يحتضر؟ فمعظم الناس يشككون في قواها العقلية بالفعل. حتى فيليب اقترح عليها اليوم بصراحة تامة أن تخضع للعلاج، وصديقتها المقربة تتهمها بأنها سممتها.

ولو عُرف أمر تسللها، لتدمرت سمعتها إلى الأبد. وسيقول الجميع إن الأطباء الذين تورطوا دون قصد في «تجربة روزنهان» كان الأجدر بهم إخضاعها للعلاج القسري في نهاية المطاف. لأنها كانت بالفعل حالة ميئوسًا منها.

سأل بالانت حين خرجت من المطبخ وهي تحمل كيسًا بلاستيكيًا:

— "هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة جدًا".

– "ماذا، أوه، نعم، لا، أنا بخير. كنتُ شاردة فقط".

ناولته الكيس، فتوجه هو إلى المكتب بينما بقيت هي بجوار المدفأة.

سأل جارها:

– "فيم كنتِ تفكرين؟"

تزامن سؤاله مع خشخشة الكيس كلما ابتلع علبة دواء.

فكرت إيما وهي تحدق في ظهره العظمي: لم أسأله إن كان يرغب في خلع معطفه. وفجأة لمعت في رأسها فكرة.

سألت:

– "هل لمسته بعد؟"

التفت بالانت إليها قائلًا:

– "عفوًا؟"

– "الهاتف المحمول. هل أمسكت به بالفعل؟"

– "سأكون صادقًا معكِ، نعم. لماذا؟"

– "حسنًا، زوجي ضابط شرطة".

لم يبدُ عليه الاضطراب من هذه الإجابة الغريبة نوعًا ما.

– "أوه، حقًا؟"

كذبت قائلة:

– "نعم، غالبًا ما يتعامل فيليب مع قضايا الابتزاز هذه. وعادة ما تكون مرتبطة بالجريمة المنظمة".

سعل بالانت، ثم قال:

– "أتخيل ذلك. أراهن أن أولئك الوحوش الذين يطاردونني هم جزء من عصابة منظمة".

وضع آخر علبة في الكيس واستدار ليغادر.

اعترضت إيما طريقه:

— "أنا أعمل طبيبة نفسية وأساعد زوجي أحيانًا حين يجمع التقارير، لذا أعرف القليل عن عمله. أخشى أنك قد تسببت للتو في مشكلة للتحقيق".

خلع بالانت نظارته وفرك عينيه المتعبتين:

— "بسبب بصمات أصابعي؟"

— "نعم. هؤلاء المافيا لديهم محامون بارعون. ربما كانوا يرتدون قفازات، ولهذا السبب قد تكون بصماتك هي الوحيدة الموجودة على الهاتف".

قال بالانت، لكن صوته بدا غير واثق قليلًا:

— "لكن هذا لا يهم، لأنهم إذا تتبعوا الرقم فسيرون أنه ليس هاتفي، أليس كذلك؟"

— "هذا لو كان اللصوص أغبياء لدرجة استخدام هاتف بعقد مسجل. لكني أراهن بمالي على أنه هاتف مسبق الدفع".

— "أوه".

صرت الألواح الخشبية تحت قدميه بينما كان بالانت ينقل ثقله من ساق إلى أخرى. بدت عيناه ودودتين، لكن تعبيرات وجهه كانت متوترة. كان الوقوف بوضوح غير مريح بالنسبة له.

قال وهو يعيد وضع نظارته ويهم بالمغادرة أخيرًا:

— "حسنًا، لا يهم. الأمر يستحق المحاولة، أليس كذلك؟"

لكنها أجبرت نفسها على لمس ذراعه.

— "لو كنتُ مكانك لتوخيتُ الحذر".

توقف مرة أخرى:

— "لماذا؟ ما الذي يمكن أن يحدث؟"

– "حسنًا. تتصل بالشرطة، فيأتون ويفحصون الهاتف، ويتحققون من الأرقام المطلوبة، لكنهم لا يستطيعون إثبات أي شيء في النهاية. ولكن لأن الضباط قد فحصوا تلك الأرقام، تكون قد أثرت الجرذان في جحورها يا سيد بالانت، وفي المحصلة لم تحقق شيئًا سوى جعل تجار الأدوية هؤلاء أكثر غضبًا عليك".

– "هممم".

أصابت كلماتها الهدف. وراح عقله يعالجها.

– "ربما أنتِ محقة. يجب أن أترك الأمر؛ لا أريد المزيد من المشاكل. ومع ذلك..."

نظر في عيني إيما بحيرة.

– "اللعنة! أريد لكل هذا أن يتوقف. سيعودون بالتأكيد لاستعادة الهاتف، أليس كذلك؟ لا يمكنني الاستمرار هكذا، آملًا أن تُحل الأمور من تلقاء نفسها".

قالت إيما دون أن تتمكن من تقديم حل لـ بالانت يخرجه من مأزقه ويخرجها هي أيضًا من ورطتها:

– "أنا أتفهم ذلك".

اقترحت وهي ترسم خطة بينما تتحدث:

– "أعطني إياه".

– "أنتِ؟"

– "بفضل زوجي، أعرف خدعة شرطية صغيرة يمكنها أن تخبرك ما إذا كان الهاتف مسجلًا أم لا. كل مصنع لديه وظيفة نظام مخفية".

كان ذلك بالطبع هراءً، وكومة من الأكاذيب، لكنه أتى بالمفعول المطلوب.

– "هل تفعلين ذلك من أجلي؟"

- "بالتأكيد".

سأفعل بضعة أشياء قبل أن تكتشف لمن يعود الهاتف حقًا.

التفتت إلى النافذة، كانت رقاقات الثلج ترتطم بالزجاج وكأنه الزجاج الأمامي لسيارة مسرعة. تساءلت للحظة عما إذا كان بإمكانها أن تطلب من بالانت إحضار الهاتف إليها. لكن قبل أن يغير رأيه، كان من الأفضل ألا يضيعا أي وقت.

قالت إيما وهي تشد رداء الحمام المبلل بالعرق والذي أصبح رطبًا الآن:

- "حسنًا إذن... عليّ فقط أن أرتدي شيئًا دافئًا قبل أن نذهب".

الفصل الثالث والثلاثون

أخبرها آرثر ذات مرة عن مفتاح للطقس أخفاه والداها في القبو. كان ذلك بعد فترة من توقف إيما عن الخوف من رفيقها الخيالي، ولاسيما لأنه لم يظهر لها ثانية بخوذته المرعبة. كانت إيما تتجاذب أطراف الحديث مع الصوت داخل الخزانة، سرًا حتى لا يكتشف والداها الأمر.

منذ تلك الليلة التي رأت فيها آرثر لأول مرة، لم تدخل غرفة نوم والديها قط. ولا حتى أثناء النهار.

كما لم تعد "ماما" تأتي لغرفتها لتقرأ لها قصة قبل النوم. توقف ذلك في اليوم الذي فقدت فيه الأم الجنين — ولفترة ما لامت إيما نفسها على ذلك، رغم أنها لم تدرك السبب بالضبط. واساها آرثر وأخبرها أنه ليس خطأها أنها لن تحظى بأخ صغير. وتولى هو مهمة قراءة قصص ما قبل النوم. أو على الأقل حتى لاحظ والدها في إحدى الليالي أن إيما تتحدث إلى الخزانة، وفي صباح اليوم التالي رتب موعدًا مع طبيب نفسي للأطفال.

بعد أكثر من عشرين جلسة، سُر الوالد لأن ابنته تخلت عن شطحات خيالها. لكن في الحقيقة، شعرت إيما وكأنها فقدت صديقًا. افتقدت الصوت الذي حكى لها كل تلك القصص المضحكة، كقصة مفتاح الطقس الذي يسمح لك بتغيير الفصول، بحيث يمكن للآباء الذين لا يرغبون في الذهاب إلى الملعب مع بناتهم تحويل الشمس إلى مطر جليدي.

ولأن هذه النظرية لم تبدُ أقل معقولية من قصة الرجل ذي اللحية البيضاء الذي ينجح في توصيل ملايين الهدايا لكل أطفال العالم في ليلة واحدة، نزلت إيما ذات يوم إلى القبو لتبحث عن المفتاح الأسطوري.

كل ما وجدته، للأسف، كان صمام العزل في غرفة الغلاية، ولهذا السبب أصبح المنزل أبرد بكثير لفترة ما بعد أن نجحت في إيقاف التدفئة.

بقي مفتاح الطقس غير مكتشف. لسوء الحظ. لأنه حتى اليوم، كانت إيما تود لو تملك شيئًا يوقف هذا الظلام المبكر، والصقيع، وخصوصًا الرياح القارسة التي تغرس أنيابها الحادة في وجهها لحظة إغلاقها الباب الأمامي ومغادرة حماية الرواق.

تذمر بالانت وهو يسبقها:

— "هذا ما أسميه طقسًا."

رفعت إيما ياقة سترتها المنتفخة ووجدت صعوبة في مجاراته. لم تستطع إلا أن تشعر بالاحترام لظهر جارها المستقيم وحركته المتحكمة. سرطان أم لا، بدا أن حياة بالانت السابقة كفنان استعراضي لا تزال تؤتي ثمارها اليوم. على عكسها، لم يكن يجر قدميه بتردد وارتعاش، ولا اتخذ وضعية الكلب المضروب المنكمش في وجه هبات الثلج. بدل الكيس الذي يحوي أدويته من يد لأخرى وألقى نظرة خلف كتفه.

— "هذا لطف شديد منكِ. لكنكِ لست مضطرة لفعل هذا من أجلي."

أستعيد هاتفي المحمول قبل أن تتعرف عليه؟ أوه نعم، لو تعلم فقط كم أنا مضطرة لفعل ذلك.

لم يكن الأمر مسألة «رغبة» على أية حال. كان سيئًا بما يكفي أن إيما عرضت نفسها لرعب العالم الخارجي مرة واحدة اليوم، وهي لا تفكر في الطقس، بل في الشوارع، والمصابيح، والغرباء!

بدأ مفعول «الديازيبام» في التلاشي، مما عنى أنها لم تعد تتثاؤب كل بضع ثوانٍ، لكن الخوف عاد ليجثم على كتفيها.

في كل سيارة متوقفة كان هناك ظل يتربص في المقعد الخلفي. ضوء مصابيح الشارع ينير الأجزاء الخاطئة من طريقها، تاركًا عالمًا كاملاً من المخاطر في الظلام. والسبب الوحيد لعلو صوت الرياح التي تدفع الثلج هو ابتلاع كل الأصوات التي قد تحذرها من كارثة وشيكة. في الواقع، كانت تعصف بعنف حول أذنيها المكشوفتين (في عجالتها نسيت إيما ارتداء غطاء الرأس هذه المرة) لدرجة أن الريح طغت حتى على الدوي المستمر لحركة المرور في شارع "هيرشتراسه".

كانا يمران بالمدخل المفتوح لمنزل في الزاوية، نثر أصحابه بحكمة الحصى لمنع الانزلاق، حين باغت بالانت إيما بصدمة. التفت إليها وصرخ:

– "هل زرتِ منزلي من قبل؟"

ارتكبت إيما خطأ النظر إليه، وفشلت في رؤية الحفرة المغطاة بالثلج فتعثرت. شعرت بألم حاد يندفع إلى ركبتها، رفعت يديها وفقدت توازنها. ثم أُطبقت حلقة حول معصمها كالأصفاد، وسحبتها قوة غاشمة إلى الأمام، حيث ارتطمت بشيء صلب لف نفسه حولها أيضًا كطوق.

بالانت!

كان قد أمسك بذراعها، وجذبها نحوه ومنعها من السقوط.

قالت إيما بصوت أخفت من أن تسمعه الرياح، وهي غير واثقة تمامًا من وجودها بين ذراعي جارها العظمي، الذي لابد أنها استهانت بقوته تمامًا:

– "شكرًا."

تحسست المشرط في جيبها وأطلقت أنينًا حين أدركت أنها بالطبع لن تجده في سترتها الشتوية. المشرط الآن في سلة الغسيل على الدرج المؤدي للقبو، حيث حشرته دون تفكير في جيب رداء نومها الرطب قبل ارتداء السترة المنتفخة.

أنا عزلاء، فكرت.

وهذه الفكرة ضاعفت خوفها.

أرادت أن تقول: أعتقد، ربما، أن هذه لم تكن فكرة جيدة. الأفضل أن أعود للمنزل الآن، قبل أن تستدير وتركض عائدة.

لكن كل ما استطاعت قوله هو:

— "أعتقد... أنني نجوت بأعجوبة."

كانت الدموع في عيني إيما، من الألم والخوف وبالطبع الطقس. رمشت خوفًا من أن يتجمد الماء على عدساتها اللاصقة.

قال بالانت حين استعادت توازنها وتركها، ويداه لا تزالان ممدودتين بحماية، كأب يقف بجوار طفله في أول مرة يركب فيها الدراجة دون عجلات مساعدة:

— "أعني، هل زرتِ والدتي حين كانت تعيش هنا؟"

هزت إيما رأسها نفيًا.

قال بالانت:

— "توقعت ذلك."

وإذا لم تكن إيما مخطئة، بدا وكأنه يقهقه بخفوت، لكن الرياح ابتلعت ذلك أيضًا.

— "لطالما كانت منعزلة بعض الشيء."

واصلا ما تبقى من الطريق القصير جنبًا إلى جنب في صمت، حتى وقفت إيما أمام المنزل رقم 16أ للمرة الثانية في ذلك اليوم. صعدت

الدرجات المسقوفة للمرة الثانية، وبعد لحظات رأت داخل المنزل لأول مرة في الضوء.

اعتذر بالانت وهو يهم بأخذ سترة إيما، لكنها كانت تشعر ببرد شديد يمنعها من خلعها:

— "اعذريني، منزلي ليس دافئًا كمنزلك."

وفقًا لمقياس حرارة زئبقي قديم على الحائط، كانت الحرارة بالكاد ست عشرة درجة في الردهة. ولم يكن الحال أفضل في الغرف الأخرى، كما أقر بالانت.

— "أخشى أن ميزانيتي لا تسمح بتدفئة كل الغرف ليل نهار. لكن ما رأيك أن أصنع لنا بعض الشاي ونجلس بجوار الموقد في غرفة المعيشة؟"

رفضت بأدب لكن بحزم:

— "هل الهاتف معك؟"

— "نعم، بالطبع. انتظري دقيقة من فضلك."

وضع بالانت أدويته على خزانة ذات أدراج ودخل عبر باب إلى اليسار، افترضت أنه يؤدي للحمام.

أهناك يحتفظ بهاتفي؟

استغلت إيما غيابه المؤقت لتلقي نظرة أخرى حول الردهة.

لم يعد البريد على الأرض عند الباب الأمامي، وشماعة المعاطف لا تزال فارغة. وكذلك الحامل ذو الرأس المصنوع من الـ «ستايروفوم» بلا فم أو عينين، والذي يفترض أنه لشعر بالانت المستعار.

في الضوء المرتعش للمصباح المتوهج القديم المتدلي عاريًا من السقف، ألقى حامل الشعر المستعار ما بدا كظل حي. اقتربت إيما ورأت وميضًا خاطفًا، لمعانًا على السطح الذي يُفترض أن يكون باهتًا.

مدت يدها، ومسدت الـ «ستايروفوم» الخشن ثم نظرت إلى أصابعها.

لا! صرخت في صمت داخل نفسها. ضربت صدرها، ومسحت يدها بفخذها، ثم جرّبت مرة أخرى على معطفها، لكن الشعر—ذلك الشعر الطويل الأشقر لعاشِقةٍ—الذي التقطته من حامل الشعر المستعار، لم يَنْتزِع عن إصبعها.

قال بالانت خلفها، وقد خرج من الحمّام من جديد:

– "هل كل شيء على ما يرام؟"

استدارت إيما نحوه، نحو عينيه خلف النظارات، وابتسامته المتوترة — وإلى أصابع الجرّاح النحيلة المغلّفة بقفازات لاتكس ضيقة، وهو يمسك كيسًا مُجمّدًا.

الفصل الرابع والثلاثون

قال بالانت، وهو يبتسم في لحظة، ثم تغرورق عيناه بالدموع خلف نظارته في اللحظة التالية:

— "وجدتها في الخزانة الموجودة أسفل الحوض".

ثم أردف وهو يشهق:

— "أنا آسف. دائمًا ما أصبح عاطفيًا حين أفكر في أمي. إنها بعيدة جدًا الآن".

رفع يديه وهز أصابعه المغلفة بالقفازات الجراحية.

— "كانت أمي تستخدمها دائمًا لصبغ شعرها المستعار".

تاقت نفس إيما للصراخ، لكن للخوف أصابعه الخاصة، التي راحت في تلك اللحظة تلتف حول عنقها وتقطع عنها الهواء.

— "على عكسي، هي تحب ارتداء هذه الأشياء المشعرة".

سار بالانت عبر الردهة نحو الخزانة المصنوعة من الخشب المضغوط، التي استقر الكيس فوقها. كان معطفه الواقي من المطر يُصدر خشخشة وتجعدًا مع كل خطوة.

تملصت إيما إلى الوراء، ضاغطةً يديها بشكل دفاعي على صدرها، الذي كان قلبها يعدو تحته بضربات جامحة. ولما كان بالانت يسد طريقها الآن نحو الباب الأمامي، راحت تمسح محيطها بحثًا عن فرص أخرى

للهروب. أو عن أسلحة لصد الهجوم الذي كانت تتوقعه. المشجب؟ ثقيل جدًا، وعلى أية حال هو مثبت ببراغي في الحائط. رأس البوليسترين؟ عديم الفائدة — خفيف للغاية.

الباب الموجود في الأمام على اليسار؟ بقليل من الحظ، وساقين غير مشلولتين تمامًا من الرعب، قد تتمكن من الوصول إلى المطبخ، ولكن ما الضمان أنها ستجد حامل سكاكين يمكنها الوصول إليه قبل أن يجذبها بالانت من شعرها؟ لقد أصبح شعرها الآن طويلًا بما يكفي لتتمكن قبضة رجل من الإمساك به.

— "هل يمكنكِ إمساك هذا لثانية؟"

انتفضت إيما.

شعرت في يدها بقطعة بلاستيكية مرنة؛ كيس صغير. كان بالانت قد أعطاها كيس التجميد واستدار عائدًا إلى خزانة الأدراج. فتح الدرج العلوي.

وبعد بضع ثوانٍ استدار وعلى شفتيه الجافتين ابتسامة رضا. وفي يده هاتف إيما المحمول.

— "ها هو ذا".

أومأ لها مشجعًا. ومن الواضح أنه أساء تفسير تعبير وجه إيما، إذ قال:

— "نعم، أعلم. القفازات ربما تكون غير ضرورية، ولكن على الأقل لن تكون هناك أي بصمات جديدة عليه. هل تأذنين لي؟"

أشار إلى يدها.

نظرت إيما إلى أصابعها التي كانت تمسك بكيس التجميد.

طلب منها بالانت أن تفتح الكيس ليتمكن من وضع الهاتف بداخله.

قال:

– "هكذا تتعاملون مع الأدلة، أليس كذلك؟" ثم توقف لحظة وأضاف: "متى سيتمكن من فحصه؟"

رمشت إيما بتوتر وعضت شفتها السفلى التي بدأت ترتجف بشكل لا يمكن السيطرة عليه.

كان الذعر أشبه بوحش ليلي غير مرئي. حتى لو تحققت من أنه لا يختبئ في الخزانة أو تحت السرير، فستظل مستلقيًا هناك لفترة في الظلام، وقلبُك يخفق بشدة، غير قادر على الوثوق في السكون المحيط بك.

سألت إيما، التي كانت قد نسيت للحظة الكذبة التي لفقتها:

– "يفحصه؟"

كان وجهها مغتسلًا بالعرق، ولكن حتى مع نظارته السميكة، بدا أن بالانت لم يلاحظ ذلك، أو ربما ظن أنها بقايا الثلج الذائب على جبين إيما.

ذكرها قائلًا:

– "الوظيفة الخاصة. تلك التي تتيح لكِ معرفة لمن يعود الهاتف..."

صمت فجأة وانتفض، وكأنه تلقى صدمة كهربائية. وتوافق رد الفعل اللاإرادي هذا مع الطنين الكهربائي والوميض في يده اليمنى.

الهاتف المحمول.

أضاء الجهاز فجأة، واهتز بين أصابع بالانت المغلفة باللاتكس، واستغرق الأمر منه وهلة ليدرك ما يراه على الشاشة: صورة لشخصين. رجل. وامرأة. يجلسان متلاصقين جنبًا إلى جنب. صورة التُقطت خلسة في مطعم، حيث كانا في وضع حميمي يغرسان شوكتيهما في كعكة بطاطس.

إنها صورة كعكة البطاطس التي تعلن عن مكالمة واردة من فيليب!

الفصل الخامس والثلاثون

تسللت دلالة ما يراه بالكامل إلى وعي بالانت بين الرنة الرابعة والخامسة.

قال بصوت خافت:

— "ماذا بحق الشيطان...؟"

مدت إيما كلتا يديها، لكن هذه المرة كان بالانت هو من تراجع.

قالت وهي تحاول الإمساك بالهاتف المحمول:

— "يمكنني أن أشرح."

لكنه سحب يده.

صاح بالانت وهو يشير إلى الشاشة:

— "أنتِ؟"

ضُغط الزر مرة أخرى. ففي لحظة واحدة فقد بالانت أعصابه. لكن بخلاف المرة السابقة في غرفة معيشة إيما، لم يكن غضبه الأعمى موجهًا ضد المبتزين. بل ضدها.

— "إنها أنتِ!"

أومأت إيما:

— "نعم، لكن الأمر ليس كما تظن!"

— "كنتِ هنا؟"

– "نعم..."

– "اقتحمتِ منزلي؟"

– "لا..."

– "إذاً كان صوتك الذي سمعته في غرفة النوم!"

– "نعم، ولكن..."

– "صرختكِ الحادة..."

– "نعم."

– "كنتِ تحاولين إماتتي رعباً!"

– "لا."

انكمشت مفردات إيما لتصبح كمفردات طفل صغير.

هل هي في خطر؟

تغيرت نظرة بالانت بشكل جذري. لم يعد فيه شيء يذكر بذلك العم العجوز المحبوب الذي يعاني من مرض خطير. بدا وكأنه في عالم آخر.

زأر فيها:

– "لماذا لا تتركونني وشأني فحسب؟"

تتركونني؟ بصيغة الجمع؟

حاولت إيما إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتبنت نبرة هادئة وودودة، تشبه تقريباً تلك التي تستخدمها حين يثور مرضاها أثناء الاستشارات.

– "أرجوك امنحني لحظة لأشرح لك."

لم يستمع بالانت. صرخ:

– "أين كنتِ؟ هل كنتِ في الخارج أيضاً؟"

– "في الخارج؟"

– "في الحديقة. هل وجدتِه؟"

– "وجدت ماذا؟"

صرخ فيها وهو يوجه لـ إيما الضربة الأولى:

– "لا تكذبي عليّ!"

صفعة، مباشرة على الوجه. لثانية بدا مصدوماً مما اقترفه، وأملت إيما أن يعني ذلك أنه سيهدأ. لكن العكس هو ما حدث؛ أصبح أكثر عدوانية، مثل كلب صيد فقد كل كوابحه عن العض. صرخ فيها بصوت أعلى وقبضتاه المضمومتان تحومان فوق رأسها.

– "بالطبع وجدته. لهذا فتحتِ الطرد أيضاً، أليس كذلك؟ لترسليني للسجن؟ لكنك لن تنجحي. لن يفلح الأمر!"

أرادت إيما التراجع أكثر، لكن ظهرها كان ملتصقاً بالحائط بالفعل. أمسك بالانت بكتفيها.

– "لن أذهب للسجن. أبداً!"

هزها بعنف لدرجة أنه لو كانت إيما رضيعة لعانت على الأرجح من تلف دماغي مدى الحياة. ثم، في نوبة غضب مفاجئة أخرى، دفعها بعيداً عن الحائط. تعثرت وتشبثت بشماعة المعاطف. رغم أنها كانت مثبتة بمسامير في الحائط، لم تكن مثبتة بإحكام، وهكذا اقتلعت المثبتات وسقطت بها على الأرض.

فقد بالانت صوابه تماماً الآن. صرخ:

– "أيتها الساقطة اللعينة."

ركل إيما، وانحنى ليمسك بشعرها، لكن يده انزلقت لأنه كان مبتلاً جداً (أو ربما كان قصيراً جداً؟). وجهت إيما كوعها للخلف، ضاربةً عظمة أخرى بشكل مؤلم، ربما ذقنه أو جانب رأسه. لم تكن تعلم لأنها لم تنظر للخلف، بل للأمام فقط. لكن الردهة أمامها كانت تؤدي في الاتجاه الخاطئ – أعمق داخل المنزل.

داخل منزل الرجل الذي كان يمسك بكاحليها (لابد أنه تعثر بشماعة المعاطف أيضاً) ويصرخ بجمل مجنونة: «كان عليّ فعل ذلك. لم يكن لدي خيار آخر. لا أملك مالاً! لماذا لا يفهم أحد ذلك؟ لماذا لا تتركونني جميعاً وشأني؟»

سددت إيما ركلة، غارسة قدمها في وجهه. هذه المرة استدارت ورأت الدم يسيل من أنفه وهو باقٍ جاثياً على ركبتيه.

لكن بالانت لم يتركها؛ بل أسقطها أرضاً مرة أخرى. وبينما كانت تسقط، أطاحت بأحد قواطعه بركلة، مما أدى أخيراً إلى النتيجة المرجوة: أرخى قبضته عنها، وهو يعوي، واضعاً يديه على وجهه المدمى.

حبت إيما على أطرافها الأربعة نحو الباب الذي عرفته لأنها وقفت خارجه قبل ساعات قليلة.

وبينما كانت تستند إلى مقبض الباب لتنهض، سمعت نفسها تصرخ صرخة هي خليط من الخوف والكراهية. فكرت للحظة في الذهاب إلى المطبخ للبحث عن سلاح، ليس للدفاع عن نفسها بعد الآن، بل لتحسم الأمر نهائياً.

ثم خيل إليها أنها رأت ظلاً خلف بالانت، عند الباب الأمامي. شعرت بنسمة هواء على وجهها الملطخ بالدموع وشاهدت بالانت يستعيد توازنه ويمسح اللعاب المدمى عن فمه. وبتعبير ثعلب مسعور صرخ فيها:

— "لن تدمري حياتي أيتها العاهرة!"

انتزعت إيما الباب لتفتحه، وأوصدته خلفها فوراً، ثم ركضت بمحاذاة الأريكة تحت عيون الخيول الجاحظة في اللوحة المعلقة على الجدار، متجهة إلى باب الحديقة. لم تكن إيما لتضيع وقتاً في اكتشاف ما إذا كان لا يزال عالقاً، ولم يعد عليها القلق بشأن إحداث ضجيج الآن. لذا التقطت حامل المظلات القبيح بجوار الباب، متجاهلة الوخز في أسفل

ظهرها وهي ترفعه عالياً، وقذفت بتمثال كلب اللابرادور المبتذل عبر لوح الزجاج.

دوى صوت التحطم كصرخة، لكن ربما كان ذلك من وحي خيالها، إشارة مغلوطة من حواسها المضطربة تماماً. أدارت ظهرها للحديقة وحمت وجهها بذراعيها، ثم اندفعت بظهرها للخارج، ممزقة سترتها المنتفخة على الشظايا المتبقية في إطار الباب.

ركضت عبر الشرفة، إلى الحديقة، وغاصت قدماها في الثلج الذي يغطي الكاحلين. أرادت الاتجاه يميناً حول المنزل، لكنها سمعت صوت رجل قادماً من ذلك الاتجاه. ليس صوت بالانت، ربما شريكه؟

لذا واصلت إيما الركض في خط مستقيم، عازمة على تسلق السياج في نهاية الحديقة والانعطاف إلى طريق الخدمة الذي يمتد بين العقارات هنا. طريق مهمل يستخدمه معظم الجيران كمرحاض لكلابهم، لكنه قد يكون الآن فرصتها للنجاة.

لكن الأمر لم يبدُ كذلك.

حين استدارت، رأت بالانت على بعد بضعة أمتار فقط.

وبينما كانت آثارها معلّمة بآثار الأقدام والريش المتطاير من سترتها، ترك بالانت خلفه دليلاً من الدماء.

للحظة تساءلت كيف تمكنت من رؤيته بوضوح، ورؤية رأسه الأصلع – لابد أنه تخلص من شعره المستعار.

ثم انتبهت لمصدر الضوء. مصابيح حديقة تعمل بحساسات الحركة على الأرجح، ميراث من والدته التي حافظت على المنزل والحديقة في حالة ممتازة قبل تسليمها لابنها (مصفف الشعر؟).

استطاعت إيما سماع بالانت خلفها، وتستشعر أنفاس غضبه على رقبتها. تتبعت الأضواء فوق الأرضية المغطاة بالثلج، والتي قادتها إلى كوخ أدوات رمادي.

الباب كان مواربًا.

هل أدخل؟

لم يكن هناك سوى نعم أو لا، صواب أو خطأ. لكن لا وقت للموازنة بين الإيجابيات والسلبيات. ربما كان الخوف من الانزلاق على السياج، وفقدان قوتها، وسحبها لأسفل مجدداً من قبل بالانت هو ما جعلها تختار الكوخ. وربما، بدلاً من اتخاذ قرار واعٍ، اتبعت مجرد غريزة بقاء فطرية تفضل، عند الشك، باباً قابلاً للقفل على أرض مفتوحة. بافتراض أن باب الكوخ قابل للقفل.

اجتاح أنف إيما مزيج نفاذ من زيت المحركات، والكرتون المبلل، والمطهرات. وكان هناك شيء آخر. خليط من معطر الجو ونقانق الكبد المتعفنة.

أوصدت باب الألمنيوم الرقيق للكوخ وراحت تبحث عن مفتاح. لم يكن في القفل ولا على إطار الباب، رغم أنها بالكاد استطاعت رؤية يدها في العتمة لأن جزءاً ضئيلاً فقط من ضوء المصابيح الخارجية كان يتسلل عبر النافذة الصغيرة المتسخة.

ولكن حتى لو كان هناك مصباح بقوة 80 ألف واط لمساعدتها، ما كانت إيما لتتمكن من تفتيش الكوخ. لم تملك الوقت حتى لالتقاط أنفاسها.

كان الباب الذي يفتح للداخل يرتجف تحت وطأة ضربات قبضتي بالانت. كان بإمكانها إغلاقه بمزلاج رفيع، لكن هذا المزلاج صُمم فقط

لمنع الباب من التأرجح بفعل الرياح. ولن يصمد أمام هجوم جسدي طويلاً.

صرخ بالانت:

– "اخرجي من هناك! اخرجي فوراً!"

كانت مسألة ثوانٍ فقط قبل أن يلقي بوزن جسده بالكامل على الباب ويحطمه. ولن تتمكن إيما أبداً من الدفاع عنه بجسدها.

عليّ أن أضع حاجزاً خلفه.

جالت عيناها في أرجاء الكوخ، مارة بطاولة عمل تعمها الفوضى، ورفوف معدنية، وصندوق أخضر عسكري لوسائد الحديقة، لتستقر على صندوق قمامة للمخلفات العضوية. حاوية سعة 240 لتراً تحمل شعار المدينة لجمع وإعادة تدوير النفايات. وكان صندوق عدة يستقر فوق الغطاء.

أزاحت إيما صندوق العدة إلى الأرض وأمسكت بالحاوية، التي كانت ممتلئة بما يكفي لارتياحها. حتى مع وجود العجلات، كان سحبها صعباً للغاية، لكن المسافة لم تكن بعيدة، وربما يسعفني الحظ ويكون الشيء بالارتفاع المناسب لأحشره تماماً تحت...

«المقبببببض!» تحولت أفكارها مباشرة إلى صرخة حين أدركت أن الأوان قد فات. وأنها لم تدفع الحاوية للأمام بالسرعة الكافية، مانحة بذلك بالانت بضع ثوانٍ إضافية حاسمة.

لقد ألقى بنفسه على الباب بكل قوته، ضارباً إياه بعنف لدرجة أن القفل انكسر وسقط هو داخل الكوخ، مطيحاً بـ إيما جانباً.

حين اصطدم كوعه بمنتصف بطنها، انقطع نفسها وشعرت بالدوار. ولتفادي السقوط الحتمي، تشبثت بمقبض، غير مدركة من أين جاء. لكن

بمجرد أن لمست البلاستيك البارد أدركت أنها تقبض على حاوية النفايات العضوية، التي انقلبت معها.

بينما كانت إيما تسقط ارتطم رأسها بصندوق العدة، لكنها لم تحظَ بنعمة فقدان الوعي. وهي تحدق للأعلى، أرادت أن تصرخ حين رأت غابة من معطرات الجو تتدلى من سقف الكوخ. ثم صرخت إيما بالفعل حين وقف بالانت بجانبها حاملاً شيئاً يشبه سكين تقطيع.

الآن كانت تغرق في نتانة أفقدتها صوابها، إن لم تفقدها وعيها بعد. وفي هذه الحالة، كلمة «تغرق» كانت وصفاً حرفياً تقريباً.

سمعت بالانت يصرخ:

– "لاااا!"

كان من الواضح أن عقله قد وصل بالفعل إلى المنطقة المحرمة من الروح التي كانت إيما تتجه إليها أيضاً.

ساعدني يا الله، فلينتهِ هذا الأمر!

كانت مستلقية في سائل لزج كريه الرائحة، انسكب من الحاوية فوق الأرضية. عصارة عضوية حلوة المذاق، زنخة، ومثيرة للغثيان.

أرادت إيما أن تتقيأ في مكانها، لكنها لم تستطع. ولا حتى حين رأت الساق المبتورة.

بقدم لكن بلا ركبة، وجلد قليل جداً يغطي الساق وقصبة الرجل. ومع ذلك، كانت مأهولة بجيش لا ينتهي من الديدان. عششت الديدان اللزجة في الأشلاء المقطعة التي انقلبت من الحاوية العضوية جنباً إلى جنب مع الفضلات المتحللة وأجزاء الجسم الأخرى.

الفصل السادس والثلاثون

مع كل نفس، كان طعم الموت يتسرب إلى رئتي إيما، ناشبًا مخالبه في أقصى الشعب الهوائية وكأنه وحش كاسر. لم يكن لأعلى صرخة أو لأسوأ نوبة سعال أن تفلح في طرده. أدركت إيما أنها حتى لو نجت من هذه المواجهة (وهو أمر بدا بعيد المنال)، فإن شيئًا ما في أعماقها سيظل حيًا للأبد: بذرة من الرعب، وأرض خصبة لأبشع الكوابيس.

صرخ بالانت صرخة امتزج فيها الغضب بالنحيب:

— "اتركيها بسلام!"

كان التحديق في وجه الموت قد منح إيما لحظات من الصفاء الذهني، وأكدت كلمات بالانت الآن شكوكها بأن تلك القدم العظمية والساق السفلية المتحللة تعود لامرأة. كما لم يعد لديها أدنى شك في أن بالانت، الذي يلوح بسكين الأشغال[3] فوقها، هو حتمًا «مصفف الشعر».

كانت إيما في حكم الهالكة. لا تزال جالسة على الأرض الرطبة بجوار صندوق العدة. كانت مسلحة الآن هي الأخرى، بعد أن التقطت بيديها المضطربتين أول شيء وجدته في الصندوق؛ أداة طويلة تناسب قبضة يدها ولها حافة مسننة حادة. لكن ماذا عساها تفعل بمنشار؟

---

[3] *utility knife* سكّين الأشغال متعددة الاستخدامات / هو سكين من النوع القابل للطي أو ذو النصل القابل للاستبدال، يُستخدم في قص الكرتون، والأشرطة، والمواد الخفيفة...

ضربت به ساق بالانت، لكنه بالكاد شعر بشيء عبر بنطاله السميك.

صرخ قائلًا:

– "سأجعلكِ تدفعين ثمن ذلك!"

ولكمها لكمة مباشرة في وجهها بالقبضة التي تقبض على السكين.

ارتد رأسها إلى الخلف وفقدت إيما وعيها أخيرًا، وسقط المنشار من يدها، وللمفارقة، أيقظها الألم مرة أخرى حين ارتطم رأسها بحافة صندوق العدة للمرة الثانية.

تذوقت إيما طعم الدم وشعرت وكأن جلد رأسها قد تمزق. كانت يد بالانت تشد شعرها بقوة. سمعت صوت «طقة». فتحت عينيها. لترى سكين الأشغال يحوم أمام حدقتيها مباشرة. لم يكن يفصل حافة النصل عن عينها سوى مسافة دمعة.

فكرت: سيسلخ فروة رأسي.

قفز عقلها غريزيًا إلى فندق «لو زين»...

اخرجي. قبل فوات الأوان...

في اللحظة ذاتها كادت تصرخ لأنها لم ترغب في أن تكون تلك الصورة المروعة لمرآة الفندق هي آخر ذكرى تودع بها هذا العالم.

كانت هناك لحظات أجمل بكثير، لحظات مفعمة بالحياة. مثل بشرة فيليب المتغضنة في الصباح، حين تترك الوسادة أثرًا متموجًا على خديه طوال الليل.

وزوج الأحذية الصغير المصنوع من صوف الحمل، مقاس أربعة، الذي ظل على منضدة زينتها لفترة استعدادًا لإنجاب الأطفال – بني فاتح، لأنهما لم يعرفا ما إذا كان المولود صبيًا أم فتاة. حتى الانبعاج في سيارة الشركة الخاصة بـ فيليب، الذي أحدثته عمدًا بقدمها وهي تترجل منها، بعد جدال سخيف حول برنامج «أنا مشهور» (الذي وجده هو مضحكًا

بينما رأته هي غير إنساني). نعم، حتى هذا الإقرار السخيف بأنها لا تستطيع التحكم في أعصابها أحيانًا كان ليكون مشهدًا ختاميًا أفضل من المرآة في «لو زين».

تبًا، لا أريد أن أموت. ليس هكذا.

سحب بالانت يده للخلف ثم هوى بها.

فكرت إيما: كم هو غريب، أن تكون هذه اللحظة تحديدًا — ولأول مرة منذ أسابيع — هي اللحظة التي تشعر فيها بالتحرر من القلق وبالهدوء التام. استنتجت أن السبب ربما يعود إلى أنها حصلت أخيرًا على الدليل بأنها لم تكن مصابة بالبارانويا كما كانت تخشى سرًا. أو ربما كانت قد استسلمت وحسب. وكانت فكرتها التالية هي دهشتها من أن الموت خالٍ تمامًا من الألم.

فكرت: إذن، هكذا هي النهاية.

حين شق النصل جبهتها وصنع الدم شلالًا أمام عينيها. حجاب أحمر، اختفى بالانت خلفه.

أغمضت إيما عينيها، وسمعت صوت أنفاسها، لكن هذا الصوت شرد عنها، ممتزجًا بصرخة عميقة ومتحشرجة.

تغير صوت بالانت منذ أن استعد للطعنة الثانية. أصبح صوته أعمق، وكأنه اكتسب وزنًا.

صرخ منادياً:

— "إيما!"

بدا الصوت قادمًا من مكان أبعد، بينما سقط وزن لا يطاق فوق جسدها.

تدحرج رأسها بوهن عن صندوق العدة، وللحظة سريالية خشيت أن يكون قد فُصل عن جسدها، ولكن بعد ذلك، وفي تجربة الاقتراب من الموت، رأت بالانت يرحل مبتعدًا عنها.

جارها، الذي كان قد ارتمى عليها للتو (لأي سبب كان)، مفرغًا الهواء من صدرها، كان يبتعد عنها.

أم أنا من يبتعد عنه؟

رأت عينا إيما ضوءًا، ليس في الأفق البعيد كما يزعم الناس دائمًا، بل قريبًا وساطعًا، ومحاطًا بحواف حمراء. كان يسطع مباشرة في عينيها.

ثم تحرك الضوء إلى الجانب. افترضت أن هذا هو الجزء من الحياة الآخرة الذي ترى فيه الأشخاص الذين كانوا الأكثر أهمية في حياتك، رغم أن إيما تساءلت لمَ كان هذا الرجل تحديدًا هو أول من ظهر.

قالت لعامل التوصيل:

— " سليم؟"

الذي كان جاثيًا بجوارها.

الذي سأل إن كانت تسمعه.

الذي لم يكن رؤيتها الأخيرة.

بل منقذها الأول.

والذي كان يسلط المصباح اليدوي في عينيها، المصباح نفسه الذي ضرب به بالانت من الخلف وأفقده الوعي. والآن يرقد جارها بجوار صندوق النفايات مع جثة المرأة، وبدا ميتًا تمامًا كما ظنت إيما نفسها قبل لحظات قليلة.

سمعت سليم يقول:

— "كل شيء سيكون على ما يرام".

ومع هذه الكذبة، غابت عن الوعي.

الفصل السابع والثلاثون

شعرت إيما بالبرودة تتسلل عبر حِجر بنطالها وتبلل ملابسها الداخلية، لكن الهواء هنا في الخارج كان نقيًا ومنعشًا لدرجة أن خيولًا جامحة ما كانت لتتمكن من إجبارها على مغادرة المقعد البلاستيكي في الحديقة الذي أجلسها عليه سليم.

من هنا، كان بوسعها رؤية كل شيء: الكوخ، بابه المحكم بحزام سليم؛ والنافذة الصغيرة أسفل المصباح الرخيص فوق الباب، حيث توقعت ظهور وجه بالانت في أية لحظة. لكن سليم طمأن إيما بأن جارها لن ينهض مجددًا في أي وقت قريب.

– "لقد أطفأت أنوار ذلك الوغد!"

لم تستطع رؤية سليم في تلك اللحظة. كان يتجول حول الكوخ للمرة الثانية، ويصدر حذاؤه صوت طقطقة عاليًا في الثلج.

قال برضا حين عاد من خلف الزاوية:

– "لا يوجد مخرج آخر. ذلك المجنون لن يهرب."

ما لم يحفر نفقًا، فكرت إيما، لكن قاعدة الكوخ كانت صلبة كالخرسانة، والأرض تحتها لابد أنها متجمدة تمامًا. ومع ذلك، لم تشعر بالأمان. ولم يكن ذلك بسبب الألم الحاد الذي تشعر به الآن من الجرح فقط.

للتحكم في النزيف، كانت تضغط على جبهتها قطعة قماش زرقاء من الألياف الدقيقة، ربما كان سليم يستخدمها لتنظيف الزجاج الأمامي لسيارته من الداخل، لأن رائحتها كانت تشبه رائحة منظف الزجاج، لكن العدوى كانت آخر همومها في تلك اللحظة.

سألت سليم:

— "لماذا؟"

في البعيد، سمعت صوت قعقعة قطار الضواحي، الذي غالبًا ما يحمل في هذا الوقت من اليوم الباحثين عن المتعة. شباب في طريقهم إلى منطقة "ميتي"، يبدؤون ببعض المشروبات في حانة أو يتجهون مباشرة إلى حفلة.

— "لا فكرة لدي عما أصابه. رأيتكِ تدخلين منزله معه يا سيدة شتاين، وبدا الأمر غريبًا بعض الشيء. حين تعثرتِ، لم يبدُ أنكِ تتبعينه برضاكِ."

هزت إيما رأسها قائلة:

— "لم أقصد ذلك."

وتساءلت كم سيستغرق وصول الشرطة. كان سليم قد اتصل بهم من هاتفه المحمول.

— "لماذا عدت؟ مناوبتك انتهت منذ دهر."

مناوبتك الأخيرة.

— "ماذا؟ أوه نعم."

اكتست ملامح سليم بتعبير الشعور بالذنب.

قال بنبرة نادمة:

— "بسبب سامسون."

وخطر ببالها أن الطبيب البيطري لم يتصل بها بعد بنتائج المختبر.

أم فعل؟

ربما كانت هناك رسالة من الدكتور بلانك على هاتفها المحمول، الذي لا يزال في ردهة منزل بالانت، بعد أن سقط من يديها للمرة الثانية أثناء صراعهما.

قال سليم وهو يزفر سحبًا كبيرة من البخار المتكاثف:

— "لست متأكدًا، لكنني أظن أنني ارتكبت خطأً فادحًا."

— "لقد سممت سامسون!"

ولدهشة إيما، لم يعترض، بل سأل بقلق:

— "إذًا هو في حالة سيئة؟"

حك سليم لحيته وقبّض ملامحه كمن يريد صفع نفسه.

— "اسمعي يا سيدة شتاين، أنا آسف للغاية. أظن أنني عن طريق الخطأ أعطيت المسكين لوح الشوكولاتة من جيبي الأيمن وليس بسكويت الكلاب الذي أحتفظ به دائمًا في الأيسر."

شوكولاتة.

بالطبع!

مسحوق الكاكاو قد يكون قاتلًا للكلاب، حتى بكميات ضئيلة جدًا.

الآن وقد عرفت، ميزت إيما الأعراض النموذجية للتسمم بالثيوبرومين: تشنجات، قيء، خمول، إسهال.

من الواضح أن سامسون يتأثر بالشوكولاتة بشكل سيئ للغاية.

— "لم أدرك ذلك إلا حين كنت أغير ملابسي في المنزل."

أشار سليم إلى نفسه. بدلاً من زي البريد، كان يرتدي ملابس ضيقة لركوب الدراجات النارية — سترة «هارلي» الإلزامية، وبنطال جلدي، وحذاء مطابق بمقدمة فولاذية.

— "لم يكن لدي رقم هاتفك وأنتِ لستِ مدرجة في دليل الهاتف، فظننت أن الأفضل أن أعود بنفسي."

أشار بيده الموشومة إلى الكوخ.

– "لم أتوقع أن أجد شيئًا كهذا."

حاول سليم رسم ابتسامة حزينة، وسأل وهو يعود إلى الكوخ ليتأكد من أن حزامه لا يزال يحكم إغلاق الباب:

– "أظن أن هذا ما يقصده الناس حين يقولون (رب ضارة نافعة)، أليس كذلك؟"

في تلك اللحظة، ومضت أضواء زرقاء في سماء المساء وتراقصت على الثلج في الحديقة كأضواء الديسكو.

الشرطة تصل.

بأعداد كبيرة ولكن بلا صفارات إنذار.

ثلاث سيارات دورية وشاحنة شرطة، تدفق منها أربعة ضباط بزي قتالي أسود. ركضوا عبر الممر إلى الحديقة، نحوها، يقودهم شرطي أعزل بملابس مدنية، لم يكن يرتدي ملابس دافئة بما يكفي – بدلة، وحذاء جلدي، وبلا معطف واقٍ فوق سترته.

سأل حين وصل إلى إيما:

– "ماذا حدث هنا؟"

وللحظة لم تصدق أنه هو.

قالت وهي تنفجر في البكاء وتنهض من المقعد لترمي بنفسها بين ذراعي فيليب:

– "شكرًا لك."

الفصل الثامن والثلاثون

في مخيلة إيما، كان الرجال ذوو أقنعة التزلج السوداء يصطفون واحدًا تلو الآخر أمام باب السقيفة.

أربعة رجال، أسلحتهم جميعًا مشهرة.

الأقصر بينهم، ذو البنية المكتنزة لكمال الأجسام (بقدر ما يمكن للمرء أن يميز تحت زيه الرسمي)، كان يقف في المقدمة على الأرجح، وقد قطع القفل بالفعل بسكينه القتالي. كانت يده على مقبض الباب، متأهبًا لفتحه للثلاثة الآخرين.

لا بد أن فيليب يقف في مكان ما بعيدًا عن السقيفة، خارج زاوية رؤيتها من النافذة. يا له من حظ أنه عاد إلى برلين مبكرًا. لقد ساوره القلق حين أخبره جورجو أنها أغلقت الخط ببساطة خلال مكالمتها الأخيرة. وبعد ذلك، تعذر الوصول إليها مرة أخرى. وحين اتصل بها فيليب على الهاتف المحمول الذي كان بحوزة بالانت، كان ينوي إخبارها بأنه سيعود خلال عشر دقائق.

والآن هو هنا، منتظرًا أن يعطي الضابط المسؤول الأمر باقتحام السقيفة.

وكما علمت من الأفلام، سيدخل الرجال من خلفه وهم يصرخون بصوت عالٍ وبنادقهم مجهزة للإطلاق. وستضيء المصابيح المثبتة على فوهات البنادق كل زاوية من زوايا السقيفة.

"يا إلهي!" سمعت إيما صرخة فيليب في رأسها حين رأى الحاوية المقلوبة وبداخلها الجثة. أو حين رأى بالانت غارقًا في بركة من الدماء لأن سليم ربما هشم رأسه. لكن كل هذا لم يكن سوى تكهنات.

كانت إيما ترى وتسمع وتشعر بذلك في عقلها فقط. كانت تجلس على بعد أربعين مترًا من الحدث، على نقالة سيارة إسعاف ركنت خارج مرآب بالانت.

قال مسعف أو طبيب شاب (لم تكن إيما تصغي حين قدم نفسه):

— "هذا سيحتاج إلى خياطة".

كان يشبه نسخة أصغر من بوريس بيكر: طويل القامة، مفتول العضلات، وذو شعر كثيف أشقر مائل للحمرة. مسح الدم عن وجهها وعالج الجرح برذاذ مطهر ولف ضمادة بلون الجلد حول رأسها. وحين انتهى، سمعت صوت عراك عنيف قادم من الحديقة. بلا كلمات، صرخات فحسب.

سألت إيما بصوت مسموع لدرجة أن سليم، الذي كان ينتظر عند درجات سيارة الإسعاف، استطاع سماعها:

— "ماذا يحدث؟"

أخبرها قائلًا، رغم أن ذلك لا بد وأنه مجرد تخمين:

— "لقد بدأ الأمر".

كان ضابط بزي رسمي يتأكد من عدم دخول أي أشخاص غير مصرح لهم إلى الممتلكات. ولكن بقدر ما استطاعت إيما أن تتبين من خلال الأبواب المفتوحة لسيارة الإسعاف، لم يجرؤ أي من المتفرجين على

الخروج أصلاً، ربما لأن الجيران قد ارتعدوا من حشد سيارات الشرطة ذات الأضواء الوامضة التي تسد شارع تويفيلزي ـ آلي. وربما أيضًا لأن الثلوج كانت تتساقط بغزارة أكبر من ذي قبل، وبالكاد يمكن رؤية شيء.

جلست إيما وحيدة مع سليم في سيارة الإسعاف لأن المسعف الشبيه بـ بيكر ذهب إلى مقصورة السائق لكتابة تقريره، ثم ظهر فيليب.

قال وهو يطل برأسه من الباب:

– "لا شيء!"

نهضت من النقالة وسألته:

– "لا شيء؟"

– "أشلاء، نعم. لكن لا أثر للجار".

– "ما الذي تقوله؟"

كان ذلك مستحيلاً.

التفت فيليب إلى سليم وسأله:

– "إذن أنت طرحت السيد بالانت أرضًا وقيدته؟"

هز عامل التوصيل رأسه:

– "لم أقيده. لكنه كان فاقد الوعي".

– "سيد شتاين؟"

ظهرت شرطية خلف فيليب وقالت إن الضابط المسؤول بحاجة ماسة للتحدث معه.

قال لها:

– "ابقِ مكانك".

لكن بالطبع لم تكن إيما لتجلس في سيارة الإسعاف بعد الآن.

تبعته لبضع خطوات قبل أن تعترض الشرطية طريقها، فصاحت إيما:

– "أرجوكِ دعيني أمر!"

يجب أن أرى ذلك. السقيفة الفارغة.

حقيقة أن سليم قد رآه أيضًا هي الشيء الوحيد الذي حال دون أن تظن أنها فقدت عقلها تمامًا.

– "أريد الذهاب لزوجي. أنا شاهدة!"

التفت فيليب إليها. كان على وشك أن ينادي «إيما» بتلك النبرة التي يوبخ بها الآباء أطفالهم المشاغبين، لكنه اكتفى بهز كتفيه، واستجابة لإشارة غير مرئية، سمحت الشرطية لـ إيما بالمرور.

قال لها، رغم أن الرياح القوية التي كانت تذرو الثلج في كل مكان ابتلعت نصف كلماته:

– "ربما يمكنك مساعدتنا حقًا".

دلف فيليب إلى السقيفة المفتوحة، حيث كان شخص ما قد عثر على مفتاح الإضاءة.

بجانبه لم يكن هناك سوى ضابط واحد آخر بالداخل، يفترض أنه قائد العملية. كان قناع التزلج يغطي أنفه، وانتظر القادمين الجدد بتعبير بدا وكأنه يقول: "انظروا إلى هنا، أيها الضعفاء. أنا أقف بحذائي في وسط سائل الجثة هذا، ومع ذلك أحتمل الرائحة العفنة".

قال لـ فيليب:

– "عليك أن تلقي نظرة على هذا. هناك المزيد من الأشلاء هنا".

استدار فيليب نحو إيما ونصحها:

– "من الأفضل أن تبقي بالخارج".

وكأنها لم تترك ما يكفي من الآثار في السقيفة بالفعل، ولكن ما الهم؟ سأقف عند المدخل.

في الخارج، كانت رائحة التعفن أسهل احتمالًا.

من الباب، راقبت إيما زوجها وهو يخطو فوق الساق المبتورة، محاولًا قصارى جهده تجنب الدوس في البركة المتعفنة بجوار صندوق النفايات العضوية المقلوب، حيث كانت ترقد بقية جثة الأنثى العارية.

مسحوقة مثل أحشاء الذبيحة.

رغم اشمئزازها، لم تستطع إيما إلا أن تتفحص جسد المرأة التي مرت بما نَجت هي منه.

فكرت: كان من الممكن أن أكون أنا الملقاة هناك بدلًا منكِ، ناعية هذا المخلوق المجهول الذي لا شك أن اسمه سيتصدر الصفحة الأولى لكل صحيفة قريبًا جدًا. جنبًا إلى جنب مع اسمها هي، الذي لا شك أن الصحافة ستهتم به أيضًا.

لعن فيليب في الزاوية اليمنى الخلفية للسقيفة:

— "أوه، يا يسوع المسيح!"

كان قد ألقى نظرة داخل صندوق الوسائد، الذي كان غطاؤه موضوعًا بطريقة تحجب محتوياته عن إيما. إذا كان وجه زوجها قد اصفر لونه، فإن ما ينظر إليه لا بد أن يكون أكثر إثارة للاشمئزاز من جثة الأنثى الملقاة على الأرض.

همس فيليب للضابط المسؤول:

— "هل هناك صناديق أخرى هنا؟ مخزن لمزيد من الجثث؟"

هز الضابط رأسه:

— "ولا مكان يمكن للمجنون أن يختبئ فيه أيضًا. لقد فتشنا كل شيء".

كانت ساقا إيما ترتجفان. وكان الشعور بتكرار الحدث (ديجا فو) لا مفر منه.

غرفة ذات سر.

«لا يوجد أحد هنا».

هذا مستحيل.

سمعت إيما نفسها تقول بصوت رتيب، يكاد يكون همسًا:

– "كان يعمل في السيرك".

التفت الرجلان إليها وسألا:

– "ماذا قلتِ؟"

– "كان اختصاصه هو حيلة الحقيبة".

نظر إليها فيليب وكأنها بدأت تتحدث لغة أجنبية.

– "ما الذي تحاولين قوله؟"

أنه يستطيع جعل نفسه صغيرًا لدرجة أن يتسع داخل حقيبة يد.

سألت بقلق، رغم أنها كانت تعرف الإجابة بالفعل:

– "هل هي بملابسها؟"

بالطبع. لم يكن هناك تفسير آخر.

– "ماذا تعنين؟"

صرخت الآن تقريبًا:

– "الجثة، بحق السماء. التي في صندوق الوسائد. هل ترتدي ملابسها؟"

لأن هذا كان الشيء الوحيد المنطقي.

لم يجدوا أي أشلاء جديدة.

بل «أبو طويلة».

«بالانت»، الذي جعل نفسه صغيرًا وسيقفز من الصندوق في أي لحظة...

قال فيليب بهدوء شديد، وكلماته كإبرة تفجر فقاعة أسوأ مخاوفها:

– "لا، ليست كذلك. هناك أشلاء مبتورة. جذع. رأس، ساق كاملة. عارية. ومليئة بالديدان!"

ثم قال شيئًا غيّر كل الموازين:

– "لكن هناك ملابس هنا، بجانب الصندوق".

انحنى الضابط القائد ورفع معطفًا بفوهة بندقيته.

معطف واقٍ من المطر أسود بأزرار صفراء.

إذن بالانت خلع ملابسه! لماذا؟

في تلك اللحظة، لم تكن إيما قد حلت اللغز بعد.

حتى حين وقع بصرها للمرة العاشرة على الأقل على صندوق النفايات الذي يحمل الملصق، الجزرة التي كانت بمثابة حرف «I» في كلمة «BIO» (عضوي).

فقط حين جثت بجوار الحاوية المقلوبة وتجاهلت الرائحة الكريهة، دارت تروس الإدراك في مكانها الصحيح، لأن إيما فعلت الشيء المنطقي الوحيد وركزت فقط على التنفس.

ليس تنفسها هي.

بل تنفس الجثة.

تحرك صدرها أولًا. ثم الجسد العاري بأكمله.

وبالسرعة التي لا يملكها إلا رجل كان يُعرف يومًا باسم «أبو طويلة» والذي انطلق الآن، رغم مرضه، من مخبئه في صندوق النفايات مثل الرصاصة.

كادت إيما تصرخ قبل أن تندلع الجحيم:

– "إنه حي!"

الفصل التاسع والثلاثون

بعد ثلاثة أسابيع

— "سبع عشرة طعنة."

فتح كونراد تقرير تحقيق شعبة الجرائم ووضعه في حضنه. وليستوعب شهادتها بشكل أفضل، كان قد أحضر الملف من مكتبه بعد أن ناول إيما كوباً من الماء.

— "ثلاث في العين. ومعظمها في العنق والحنجرة، واثنتان فقط في الجبهة، وواحدة — الأخيرة — في الأذن اليسرى."

هزت إيما كتفيها:

— "دفاع عن النفس."

— "هممم."

نظر كونراد إلى الملف وكأنه قائمة طعام في مطعم لا يجد فيها صنفاً يروق له.

— "دفاع عن النفس؟"

— "نعم."

— "يا إيما، لقد شُلّت حركته تماماً بعد الجرح الأول، حين قطعتِ شريانه السباتي."

— "لكن مع ذلك..."

– "لكن مع ذلك، تصاعد الأمر ليصبح هجوماً دموياً وحشياً. باستخدام سكين التقطيع..."

رفع نظره عن الوثائق وقطب جبينه:

– "كيف حصلتِ على تلك السكين مجدداً؟"

حتى تلك اللحظة، كانت إيما تحدق بجمود عبر النافذة، تتفحص كتل السحب الداكنة الواطئة فوق بحيرة "فانزي"، والتي بدا لونها الرمادي المسود انعكاساً لحالتها العاطفية، رغم أن السماء لم تكن تثلج — في الوقت الحالي على الأقل. كانا يتحدثان منذ ثلاث ساعات، لكن على عكسها، لم يبدِ كونراد أدنى علامة على التعب. وبدا وكأنه يملك مثانة فولاذية. كانت ترغب بشدة في الذهاب للمرحاض، لكنها عجزت عن استجماع الطاقة حتى لفعل ذلك.

خلال الأسابيع القليلة الماضية، تعلمت بمرارة كيف يعاني المكتئبون حين يُساء فهم مرضهم من قبل أولئك الذين لا يعرفون مثل هذا الحزن الكثيف. في الحقيقة، يكون المرء في حفرة نفسية عميقة لدرجة أنه يعجز حتى عن سحب الغطاء فوق رأسه. وهذا يفسر ارتفاع معدل الانتحار حين يتناول المكتئبون الأدوية لأول مرة لتخفيف أعراضهم. فبدلاً من منحهم رغبة جديدة في الحياة، لا تمنحهم الأدوية سوى القوة لإنهاء حياتهم أخيرًا.

أجابت على سؤال كونراد:

– "كانت السكين لا تزال على الأرض. قبلها بقليل، كان يحاول قتلي بها، أتذكر؟"

– "نعم. لكن اعذريني لتوضيح أن الهجوم، في نظر القانون، كان قد انتهى بشكل قاطع. لقد وقع قبل ربع ساعة كاملة. وجرحك كان قد عولج بالفعل."

قالت إيما وهي ترسم علامات تنصيص بأصابعها:

– "وماذا عن اللحظة التي قفز فيها من حاوية النفايات ملطخاً بالدماء؟ كيف (يرى القانون ذلك)؟"

– "كهروب."

قرّب كونراد أطراف أصابعه المشذبة بعناية نحو فمه ونقر على شفتيه بكلتا سبابتيه.

– "هروب؟"

– "كان عارياً وأعزل. لم يشكل أي خطر. هكذا سيرى المدعي العام الأمر على أية حال، خاصة بوجود شرطي مسلح بالجوار."

– "الذي لم يطلق النار!"

– "لأنه لم يستطع. كنتِ أنتِ وبالانت كتلة واحدة متشابكة على الأرض. خطر إصابتك كان كبيراً جداً. وعلى أية حال، الخطر في تلك اللحظة لم يكن نابعاً منه، بل منكِ..."

– "هاه!"

نخرت إيما ساخرة.

– "هذا عبث. رجل مريض يقطع أوصال امرأة ويحشرها في حاوية، ويتجرد من ملابسه، ويخزن أشلاء الجسد في صندوق وسائد ليتنكر كجثة عارية. وأخيراً يقفز هذا الرجل، الذي ركلني ولكمني وكاد يسلخ فروة رأسي، من مخبئه – وأنا الآن من يقف في قفص الاتهام؟"

كان جواب كونراد مقتضباً، وبالتالي مؤلماً بشكل مضاعف. اكتفى بالقول:

– "سبع عشرة طعنة. كنتِ مسعورة. الرجلان كلاهما، زوجك والضابط المسؤول، واجها صعوبة بالغة في انتزاعكِ عن بالانت. كنتِ تطعنين بغضب شديد لدرجة أنكِ جرحتهما أيضاً."

– "لأنني كنت خارجة عن شعوري من الرعب."

– "دفاع مفرط عن النفس. ليس نادراً، لكنه للأسف ليس مبرراً. في أفضل الأحوال هو عذر، والذي – (كما يراه القانون) – حجة دفاعية أضعف للأسف من حالة الخطر الحقيقي."

ورسم علامات التنصيص بأصابعه هذه المرة.

ازداد الضغط خلف عيني إيما، نذيرًا بطوفان من الدموع.

– "أنا في ورطة حقيقية، أليس كذلك؟"

لم يجاملها كونراد بنفي ذلك بهز رأسه.

– "ولكن كيف كان لي أن أعرف حقيقة ما يعنيه كل ذلك؟"

كانت عيناها تؤلمانها بشدة. مسحت إيما دموعاً غير مرئية عن وجنتيها؛ لم تبدأ في البكاء بعد.

ليس بعد.

قال كونراد:

– "لقد أخطأتِ التقدير. وهذا بشري أيضاً يا إيما. الكثير منا في ذلك الموقف كانوا ليستنتجوا استنتاجات خاطئة ويعتبروا بالانت مجرماً."

أغلق كونراد الملف وانحنى للأمام.

– "في الحقيقة، لم يكن يضمر لك أي شر. ليس في البداية على الأقل. ولهذا، أخشى أن مهمتي في الدفاع عنك ستكون بالغة الصعوبة."

لم تستطع تحمل نظرته الثاقبة. ولا التحديق في ألسنة اللهب، التي ارتفعت مجدداً وبدت كأنها تحرق وجهها. لكن ربما كان ذلك مجرد خزي الإدراك.

سأل كونراد بهدوء، وقد استعاد «أفضل مستمع في العالم» وجه البوكر الخالي من التعبير:

– "ماذا حدث بعد ذلك؟"

– "تعني كيف اكتشفت أنني كنت مخطئة بشأن بالانت؟"

تنهدت إيما والتقطت كوب الماء لترطب شفتيها.

– "ليت ذلك كان أسوأ أخطائي في تلك الأمسية."

ألقت نظرة خاطفة أخرى على البحيرة، ثم أغمضت عينيها.

كانت إيما تجد الحديث عن أحلك لحظاتها أسهل إذا حجبت الضوء والعالم الكامن فيه.

الفصل الأربعون

قبل ثلاثة أسابيع

كانت إيما تدرك أنها في منزلها، راقدة في سريرها. وتدرك أيضًا أنها غاصت في نوم محموم، بعد أن أنهكها الإعياء الجسدي والذهني جراء يقينها بأنها قتلت رجلًا عقب العراك الدامي في سقيفة بالانت.

لذا، كانت تعلم أنها تحلم، لكن ذلك لم يجعل الأمر أهون عليها.

كانت إيما تجثم في حمام الفندق، ترفع بصرها من الأرضية المبلطة إلى الرسالة المكتوبة على المرآة.

اخرجي.

وإلا سأؤذيكِ.

سُمع صوت طرق، لكن إيما نفسها هي التي كانت تقف عند الباب لا المرأة الروسية. كانت تبدو كضحية لداء إشعاعي: رأس أصلع، تغطيه القشور في مواضع، وتتخلله خصلات وخيوط شعر شاردة بقيت كأعشاب ضارة منسية، جاهزة للاقتلاع.

لكن الأسوأ مما تراه (الدم الجاف على جبهتها وخدها، الأزرار المزررة بشكل خاطئ في بلوزتها، المخاط في فتحتي أنفها) كان ما لا تراه: تعبيرًا على وجهها، أو حياة في عينيها.

تلك الحياة التي أُطفئت في ظلمة غرفة الفندق. ولم يتبقَ سوى طنين ماكينة الحلاقة الكهربائية في أذنيها والضغط في ذراعها العلوي عند موضع الحقن، الذي ينبض الآن كضرس بعد الحفر.

صفقت باب الغرفة رقم 1904. ركضت حافية القدمين نحو المصاعد. لكن حين انفتح باب المصعد، لم تتمكن من الدخول. كانت الكابينة مشغولة بالكامل تقريبًا بحاوية نفايات عضوية. مسخ بغطاء بني وملصق في المقدمة يحمل اسم «إيما»، حيث شُكّل حرف الميم الثاني بحزمة من الجزر.

سمعت إيما، لا بل شعرت، بضجيج ينبعث من قاع الحاوية السحيق، وكأن عمقها يبلغ مئات الأمتار. كان شيء ما يشق طريقه من أغوار بئر الرعب هذه، شيء إذا أُطلق سراحه، لن يمكن الإمساك به مجددًا أبدًا.

عوى أنتون بالانت:

— "أيتها العاهرة اللعينة. كان عليّ أن أفعل ذلك. لم يكن لدي خيار آخر. ليس لدي مال! لماذا لا يستطيع أحد فهم ذلك؟ لماذا لا تتركونني جميعًا بسلام؟"

اقتربت إيما أكثر. نظرت داخل الحاوية، التي كانت في الواقع بئرًا يقبع بالانت داخلها. كانت الديدان تزحف من عينيه الساكنتين. شفتاه فقط كانتا تتحركان.

— "كان عليّ أن أفعل ذلك. لم يكن لدي خيار آخر. ليس لدي مال! لماذا لا يستطيع أحد فهم ذلك؟ لماذا لا تتركونني جميعًا بسلام؟"

صرخ من البئر:

— "لكن ليس لدي أي مال!"

وحين قفزت الجثة العارية الملطخة بالدماء، والتي تفوح منها رائحة التحلل، في وجه إيما، استيقظت.

كاد قلبها يثب من صدرها. كل شيء فيها كان ينبض: جفنها الأيمن، الشريان في عنقها، والجرح في جبهتها.

تحسست الضمادة، وسعدت بوجودها هناك. كانت تغطي جزءًا كبيرًا من رأسها، بما في ذلك شعرها — الذي كانت لتتقيأ لو لمسته الآن.

كانت إيما قد أُعطيت بعض الأدوية لهذا أيضًا.

«إيبوبروفين» للألم، و«فومكس» للغثيان، و«بانتوبرازول» لمنع كوكتيل الأدوية من تهييج معدتها.

تمكنوا من رتق الجرح. والشيء الوحيد الذي يحتاج الآن إلى خياطة عاجلة هو حياتها، التي تمزقت إلى أشلاء حين قتلت «مصفف الشعر». وربما كانت قد تمزقت قبل ذلك بوقت طويل.

«مصفف الشعر». «مصفف الشعر». «مصفف الشعر».

مهما كررت هذا الاسم، ظل هو إنسانًا. إنسانًا. إنسانًا.

قتلتُ إنسانًا.

نظرت إيما إلى نفسها ولم تكن لتتفاجأ لو رأت يدها مقيدة إلى إطار السرير بقيد معدني.

كان فيليب قد تمكن من ترتيب الأمور بحيث سُمح لها بالذهاب إلى الفراش بعد الإدلاء ببيان أولي مقتضب في غرفة المعيشة.

غدًا صباحًا، لن ينتهي الاستجواب بهذه السرعة.

وعلى الأرجح، لن يكون وديًا حين يجهز تقرير الطبيب الشرعي.

لم تكن لديها أي فكرة عن عدد المرات التي طعنت فيها بالانت، لكنها علمت أنها كانت أكثر من أن تُحصى. وأن الأمر لم يكن مجرد دفاع عن النفس، بل رغبة في إنهاء الأمر برمته.

بالعودة إلى السقيفة، لم تكن لتقتل بالانت فحسب، بل أي شخص يحاول منعها من تخليص العالم من هذا الخطر إلى الأبد.

الانتقام.

لم يكن هناك رد فعل آخر يبدو أكثر أهمية حين يتعرض المرء للظلم. ولا رد فعل يورث شعورًا بالذنب أكبر بمجرد تنفيذه.

تحسست إيما مفتاح الإضاءة واصطدمت بكوب شاي وضعه فيليب بمراعاة بجوار سريرها، وقد بردت محتوياته الآن. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف بقليل. لقد نامت لأكثر من ساعة.

همست إيما وهي تهز رأسها وتضع وسادة خلف ظهرها لتجلس منتصبة في السرير:

— "ليس لدي أي مال".

لماذا كانت هذه هي الكلمات التي استلهمتها من حلمها؟

لم تكن إيما تؤمن بتحليل الأحلام كوسيلة للعلاج النفسي. فليس لكل رؤية تظهر في الليل معنى في ضوء النهار البارد. الأمر ببساطة هو أن هذه الكلمات، حتى خارج الحلم، بدت قليلة المعنى.

لماذا قالها بالانت؟

حتى لو كان تحليل فيليب الجنائي لا يتطابق مع الواقع في بعض النقاط، على سبيل المثال مسألة الثراء، فإن هناك سمات عالمية، وشبه مؤكدة، تحدد هوية المعتدي الجنسي. فهم لا يحركهم الهوس الجنسي بقدر ما تحركهم الرغبة في السلطة، ومحركهم هو الاندفاع، والمال نادرًا أو أبدًا ما يلعب دورًا لدى المغتصب المتسلسل.

ومع ذلك، نطق بالانت بهذه الكلمات وهو في حالة من الكرب والهياج الشديدين. في لحظة لم يعد بإمكانه فيها التفكير، بل التصرف بغريزة حيوان محاصر يقاتل باستماتة من أجل حياته.

ويختار هذه اللحظة ليعبر عن مشاكله المالية؟

في غمرة رعبها، لم تضيع إيما ثانية واحدة في التفكير في بطاقتها الائتمانية المحظورة وحقيقة أنها بحاجة ماسة لمطالبة فيليب بتعبئة حسابها مرة أخرى.

ثم كان هناك شيء آخر، شيء غريب حقًا: كان بالانت مريضًا بمرض عضال ويتعرض لمضايقات من غرباء. وحتى لو أظهر قوة مفاجئة في بعض الأحيان، فإن الأمر برمته لم يكن متسقًا. إذا كان «مصفف الشعر» في حالة جسدية سيئة لدرجة تعجزه عن إبعاد المبتزين، فكيف بحق السماء كان قادرًا على اغتصاب وقتل النساء؟

أزاحت إيما اللحاف عنها.

شخص ما – ربما فيليب – ألبسها بنطال بيجاما حريريًا قبل أن يضعها في السرير. كانت ترتدي جوارب رياضية، وهو أمر مفيد لأنها لن تضطر الآن للبحث عن خفها قبل النزول إلى الطابق السفلي للتحدث مع فيليب عما يثير توترها – كانت قلقة من أن الخطر الذي يمثله «مصفف الشعر» لم يختفِ بعد.

تحققت مرة أخرى مما إذا كانت ضمادتها في مكانها، وبينما كانت تتنفس في يدها لترى ما إذا كانت الرائحة سيئة بقدر الطعم في فمها، رأت إيما الضوء الأحمر.

صمام ثنائي صغير على شاشة هاتفها المنزلي بجوار وحدة الشحن.

كان يشير إلى أن الجهاز سيحتاج قريبًا إلى إعادة الشحن.

سمعت صوت بالانت يصرخ في عقلها: "ليس لدي أي مال. لن أذهب إلى السجن. أبدًا!"، ولم تستطع منع نفسها من التفكير في الجثة داخل الحاوية، وهو تناقض آخر.

ضحايا «مصفف الشعر» الأخريات تُركن في مسرح الجريمة.

أعطاها هذا فكرة.

التقطت إيما الهاتف من على الطاولة الجانبية، وعطلت خاصية إظهار رقم المتصل، آملة ألا يكون فيليب قد أعاد تعيين الأرقام المحفوظة مؤخرًا.

الفصل الحادي والأربعون

– "لشتنبرنك؟"

كان صوت هانز–أولريش على الهاتف لا تخطئه الأذن. أنفي، يكاد يبدو وكأنه مصاب بنزلة برد، وبنبرة حادة أعلى بكثير مما يُتوقع من بروفيسور في الستين.

من كلمة واحدة، ميزت إيما رئيس قسم الطب الشرعي في عيادة "شاريتيه".

في المقابل، حاولت هي تمويه صوتها كي لا يخمن البروفيسور لشتنبرنك من يحدثه حقًا، رغم أنه من المستبعد أن يتذكرها. نادرًا ما تحدثا في الماضي.

عرفت نفسها قائلة:

– "أنا كبيرة المحققين تانيا شميدت."

مستخدمة اسم ضابطة الشرطة التي استجوبتها سابقًا في غرفة المعيشة. وذكرت اسم القسم المسؤول عن تحقيق شتاين/بالانت.

– "وصلتكم هذا المساء جثة أنطون بالانت، ضحية اعتداء في ويست إند."

سأل لشتنبرنك بغضب:

– "من أين حصلتِ على هذا الرقم؟"

كذبت إيما:

— "إنه في الكمبيوتر."

في الواقع كان مخزنًا في ذاكرة الاتصال السريع بهاتفهما: الزر رقم 9. تعاون فيليب ولشتنبرنك لبعض الوقت في قضية قاتل الأحجية. على مدى عدة أشهر، وضع قاتل متسلسل في برلين أشلاء ضحاياه في أكياس بلاستيكية وتركها في أماكن عامة. في الأسبوع الأخير، قبل القبض على القاتل بقليل، كانا يتصلان ببعضهما يوميًا تقريبًا، وتحولت علاقتهما المهنية إلى صداقة عارضة، ولهذا السبب ظل رقم لشتنبرنك الخاص مخزنًا في الهاتف.

اعترض عالم الطب الشرعي:

— "هذا أمر مشين! هذا الرقم مخصص للطوارئ فقط ولعدد قليل مختار من الأفراد. أطالبك بحذفه فورًا."

وعدته إيما:

— "سأفعل. لكن بما أنك معي على الخط..."

— "أنا في منتصف تشريح جثة."

ممتاز!

— "اسمع، لا أريد مقاطعتك حقًا. كل ما في الأمر أننا على وشك استجواب المشتبه بها، إيما شتاين، للمرة الثانية، وسيكون عونًا كبيرًا لنا لو عرفنا سبب وفاة الضحية الأنثى التي عثر عليها في حاوية النفايات العضوية."

— "أوف..."

من مجرد هذا الزفير عرفت إيما أنها كسرته. لم يطق علماء الطب الشرعي حقيقة أنهم في الكتب والأفلام يصورون عمومًا كغريبي أطوار لا يُستدعون إلا بعد فوات الأوان. كانوا يميلون للشعور بأن عملهم لا يُقدَّر

حق قدره. فهم في النهاية لا يشرّحون الجثث فحسب، بل غالبًا ما يلعبون دورًا رئيسيًا خاصة في استجواب الشهود والمشتبه بهم. في إحدى المرات تمكن لشتنبرنك من الإيقاع بمشتبه به بفضل اتصال هاتفي بين غرفة التشريح وغرفة الاستجواب في مركز الشرطة. كلما حاول القاتل تصوير موت ضحيته كحادث مأساوي، كان لشتنبرنك، من خلال تحليل الجروح، قادرًا على تقديم دليل عكس ذلك، بالتوازي مع الاستجواب.

والآن بدا أن الخبير الشهير لا يريد تفويت فرصة التأثير الحاسم في تحقيق آخر.

— "حسنًا، سبب الوفاة غير مثير للدهشة. التقرير ليس نهائيًا بعد، لكنني أراهن بمالي على فشل متعدد في الأعضاء نتيجة لنقص التروية الدموية المرتبط بالشيخوخة."

كادت إيما تصرخ، وقد أنستها ذعرها تمويه صوتها حين تحدثت تاليًا:

— "هل... تمزح معي؟ سبب وفاة طبيعي؟ المرأة كانت مقطعة الأوصال."

— "بعد الوفاة. تبدو كحالة كلاسيكية من الاحتيال للحصول على الإعانات[4]."

تساءلت إيما عما إذا كان لشتنبرنك قد أصيب بجلطة. أو ربما هي، لأن كلماته لم يكن لها أي معنى ما لم يكن يحاول السخرية منها.

— "حالة احتيال كلاسيكية يتسلق فيها المحتال إلى حاوية بلا ساقين؟"

— "ليس المحتال. ذلك هو أنطون بالانت، بالطبع."

[4] ينص القانون في معظم الدول أن صرف المعاش لا يتم إلا طالما صاحبه ما زال على قيد الحياة.

– "أنا لا أفهم."

كان لشتنبرنك يتنفس بصعوبة مرة أخرى، لكنه بدا مستمتعًا بدوره كعالم خبير قادر على تعليم شرطية ساذجة شيئًا أو شيئين.

– "انظري يا سيدة شميدت. لم أرَ مسرح الجريمة، لكنني أراهن بعشرة مقابل واحد أن الجاني يعيش في فقر. يعود يومًا إلى المنزل ويجد أمه ميتة في السرير..."

قاطعت إيما لشتنبرنك:

– "أمه؟"

فأضاف بضيق ملموس:

– "ألم أذكر ذلك؟ الجثة في حاوية النفايات هي شبه مؤكد والدة بالانت. ما زلنا ننتظر تحليل الأسنان النهائي، لكنها فوق الثمانين على أية حال."

ثم توسع في نظريته، التي استمعت إليها إيما وكأنها داخل جرس غطس: مكتومة، وبأذنين مخدرتين.

– "على أية حال، بعد لحظة من الحزن، يقول الابن: (اللعنة، لدي صلاحية الوصول لحساب ماما. من يقول إن عليّ الاتصال بالشرطة لمجرد أنها ماتت؟) ويقرر إبقاء والدته حية، بالنسبة للسلطات، ليتمكن من صرف معاشها التقاعدي."

«أنا لا أملك مالاً!»

– "يخبر الجيران عن إقامة طويلة في الخارج، قضاء وقت في منتجع صحي أو شيء من هذا القبيل، لكن لقول الحقيقة، في برلين لا أحد يتساءل إذا توقف شخص مسن عن الظهور. في مرحلة ما تصبح الرائحة ملحوظة، ولهذا ينظم الجاني دفنًا في حاوية نفايات. يحشر البقايا في الحاوية، وهو أمر فوضوي بعض الشيء لأن الجثث عادة لا تتسع دون بتر أطراف. ثم

يترك الحاوية في القبو أو الكوخ، ويلقي فيها فضلات القطط أو يرش لترات من معطر الجو. الحالة الكلاسيكية."

فكرت إيما: إذًا حلمي وضعني على الطريق الصحيح.

لم يكن بالانت هو مصفف الشعر، ولم تقتل هي سفاحًا، بل في أسوأ الأحوال محتال إعانات سريع الغضب لم يرتكب جرمًا أسوأ من منع والدته من الرقد بسلام لمجرد حاجته للمال.

مما يعني أن الخطر لا يزال حاضرًا وبقوة!

لم تكن إيما واثقة كيف تمكنت من تجنب صراخ فكرتها الأخيرة هذه عبر الهاتف. ظنت أنها شكرت الطبيب وودعته بسرعة، لكنها لم تتذكر كلمة أخرى قيلت.

منهكة، ارتمت مرة أخرى بين الوسائد.

لقد قتلت إنسانًا!

ليس مصفف الشعر!

لم تكن لـ بالانت أدنى علاقة به.

شعره المستعار، الأدوية، الطرد... في نوبة ارتيابها لوت الحقائق، مما كلف رجلاً بريئًا حياته.

أغمضت إيما عينيها ولم تستطع منع نفسها من التفكير في الدم الذي تدفق من جسد بالانت. بعد أن طعنته مرة تلو الأخرى.

وهو ما ذكرها بدوره ببركة الدماء التي اضطرت لمسحها في غرفة المعيشة هذا الصباح.

سامسون!

لم تفكر فيه ولو لمرة منذ استيقاظها. في أمل قلق بأن يكون هو، على الأقل، قد تحسن، طلبت الرقم للوصول لبريدها الصوتي من الهاتف الأرضي. هاتفها المحمول صادرته الشرطة كدليل.

أعلن الصوت الآلي:

– "لديكِ ثلاث رسائل جديدة."

وبالفعل كانت الأولى من الدكتور بلانك، يطمئن إيما بأن سامسون تجاوز مرحلة الخطر. الحمد لله. لكن سيتعين عليهم انتظار النتائج النهائية يوم الاثنين قبل أن تتمكن من اصطحابه، وماذا سيحدث الآن بخصوص الدفع؟

الثانية كانت من فيليب، يبدو قلقًا ويخبرها بأنه سيعود للمنزل خلال دقائق قليلة.

وأخيرًا سمعت صوتًا آخر بدا مضطربًا لدرجة أن إيما لم تتعرف عليه في البداية. ولم يساعد أن جورجو كان يهمس تقريبًا.

– "إيما؟ أنا آسف بشأن ما حدث سابقًا. أعني أنني كذبت عليكِ. بالطبع أعطيتكِ تلك الرسالة."

الرسالة!

شيء آخر نسته إيما مؤقتًا في خضم محنتها.

أصدر الهاتف صفيرًا لانخفاض البطارية. كان بحاجة لإعادته للقاعدة، لكن حينها لن تتمكن من إجراء المزيد من المكالمات، ولهذا قررت إيما النزول للطابق السفلي حيث تأمل أن تجد السماعة الثانية مشحونة بالكامل.

سمعت جورجو يقول:

– "زوجك لديه برنامج تجسس على هاتفه. إنه يسجل تلقائيًا كل مكالمة واردة."

برنامج تجسس؟ ما هذا بحق الجحيم؟

صفر الهاتف ثلاث مرات أخرى قبل أن تصل لباب غرفة النوم.

لكن كان هناك ما يكفي من الشحن لبضع كلمات أخرى من جورجو.

– "لم أرد أن يكتشف زوجك أمر الرسالة حين يستمع لمحادثتنا لاحقًا. لذا أرجوك اتصلي بي على هاتفي المحمول. أرجوك. الأمر مهم. اكتشفنا شيئًا ما. فيليب لا يريد إخبارك، لكنني أعتقد أنه يجب أن تعرفي. في الفندق، في (لو زين)..."

بيب.

مات الخط وأصبحت الشاشة مظلمة كظلام الردهة في الطابق الأرضي.

تحسست إيما طريقها لمفتاح الضوء بينما كلمات جورجو الأخيرة تتردد ببطء في رأسها.

«اكتشفنا شيئًا ما...»

ذهبت للمطبخ أولاً، لكن السماعة الثانية لم تكن في القاعدة.

«فيليب لا يريد إخبارك...»

في الطريق لغرفة المعيشة خفت صوت جورجو، لكنها الآن خُيل إليها أنها تسمع طنين ماكينة الحلاقة في رأسها، إلا أن هذه المرة لم يكن طنينًا طويلاً وثاقبًا، بل تمتمة متقطعة.

«في الفندق، في (لو زين)...»

مثل مثقاب.

حشرة.

ذهبت إيما للمكتب حيث مزقت طرد بالانت بعد الظهر. لم تجد هاتف المنزل الثاني هنا أيضًا، رغم أنها حددت مصدر الطنين: هاتف فيليب المحمول.

مع كل رنة كان يدور على إيقاع الاهتزازات. ومض اسم المتصل بشكل ينذر بالخطر.

استدارت إيما، لكن هاجسها الغامض بأن زوجها سيقف هناك فجأة لم يكن له أساس.

التقطت الهاتف المحمول بتردد وضغطت الرمز الأخضر للرد على المكالمة.

سألت بقلق:

– "ماذا اكتشفتم في الفندق يا جورجو؟"

صرخ الصوت على الطرف الآخر:

– "ساعديني!"

الفصل الثاني والأربعون

ميزتها على الفور، رغم أن إيما لم تسمع هذا الصوت غريبًا إلى هذا الحد من قبل.

مكتوم، يختنق بغرغرة في الخلفية.

قالت:

— "سيلفيا؟"

فبدأت صديقتها بالنشيج كإجابة.

— "ما الخطب؟ هل أنتِ مصابة؟ كيف يمكنني مساعدتك؟"

ولماذا تتصلين من هاتف جورجو؟

تلعثمت سيلفيا:

— "أنا... أنا أحتضر".

كان الذعر والرعب لا يزالان يسكنان صوتها، لكن قوة صرختها الأولية قد تلاشت.

— "لا، لستِ كذلك. هل تسمعينني؟ أنتِ لا تحتضرين. سأجلب المساعدة وكل شيء سيكون على ما يرام".

— "لا. لن يكون... بخير... أبدًا... بعد الآن!"

كادت إيما تسمع سيلفيا وهي تتلاشى بعيدًا. وكلما ضغطت الهاتف بقوة على أذنها، بدا الصوت أكثر خفوتًا.

في مخيلتها، رأت صديقتها وسكين الأشغال مغروس في عنقها، جالسة في بركة من الدماء التي سعلتها بغزارة. لم تعد سيلفيا تتحدث الآن، بل تسعل وتلهث فقط، مهما توسلت إليها إيما بصوت عالٍ لتخبرها بما حدث بحق السماء.

— "أين أنتِ؟"

صرخت إيما الآن، لأن هذا السؤال يمكن أن ينطبق على كل من سيلفيا وفيليب، الذي كانت بحاجة ماسة لمساعدته.

أسرعت إيما عبر غرفة المعيشة، والهاتف لا يزال على أذنها. رأت مفاتيح فيليب على الخزانة ذات الأدراج، وسترته معلقة على المشجب، إذن لا يمكن أن يكون بالخارج. على أية حال، هو لا يغادر المنزل أبدًا دون هاتفه المحمول، لكنه ترك الهاتف في غرفة المعيشة، وهو ما يفعله فقط عندما...

قالت إيما في الهاتف:

— "سيلفيا، هل لا تزالين هناك؟"

فرد عليها صمت بارد.

...ينزل إلى مختبره...

نظرت إيما إلى باب القبو القديم. كان الضوء المنبعث من سلالم القبو يتسرب إلى الردهة عبر فجوة كبيرة بين الأرضية وحافة الباب السفلية.

...حيث لا توجد تغطية لهاتفه المحمول!

— "سيلفيا، ابقِ على الخط. لا أستطيع أخذك معي إلى القبو، هل تفهمين؟ سينقطع الاتصال، لكنني سأعود فورًا. لا تغلقي الخط!"

لا رد.

تساءلت إيما للحظة عما إذا كان من الأذكى أن تقطع الاتصال بـ سيلفيا وتتصل بالشرطة، لكن ماذا لو لم تكن صديقتها في المنزل؟ قد يكون اتصال الهاتف هو الطريقة الوحيدة لتحديد موقعها.

وضعت الهاتف المحمول على الخزانة ذات الأدراج، وفتحت باب القبو بعنف، وصرخت وهي تنزل الدرجات الخرسانية:

— "فيليب؟ بسرعة. عليك مساعدتي. فيليب؟"

كان سقف القبو منخفضًا جدًا لدرجة أن البائع وافق على خفض السعر قليلًا حين رأى أن إيما نفسها تضطر للانحناء أثناء تفقدهما للمكان.

بعد الانتقال، قاما بكسوة السقف فوق الدرج بالخشب، مما يعني أن المساحة أصبحت أضيق الآن. منحنية الظهر، أسرعت إيما بالنزول، متخذة المنعطف الحاد لليمين ثم مباشرة إلى «المختبر».

كانا قد خصصا المنطقة في الأصل لتخزين المكنسة الكهربائية والمقشة والممسحة، لكن فيليب استبدل الستارة الكتانية القديمة بباب قابل للطي وصنع لنفسه مكتبًا صغيرًا خلفه. في الداخل، كان هناك مكتب صغير جدًا عليه كمبيوتر محمول متصل بالإنترنت، ورفان معدنيان على الجدار، مكدسان تمامًا بالمؤلفات المتخصصة وشتى أنواع الصناديق البلاستيكية الصلبة القابلة للتكديس والتي تحتوي على عدسات مكبرة، وملاقط، ومجاهر وأدوات أخرى. كان يستخدمها لفحص الصور وتحليل التوقيعات أو الأدلة الأخرى الضرورية لعمله كمحلل جنائي.

هنا في الأسفل، في «كهفه»، معزولًا عن بقية العالم، كان فيليب قادرًا على التركيز بشكل أفضل. وأثناء عمله، عادة ما يستمع عبر سماعات الرأس لموسيقى تهدئه، لكنها كانت لتصيب إيما بفقدان السمع في بضع ثوانٍ: فرق مثل «رامشتاين» و«أومف» و«آيسبرشر».

لذا لم يكن من المستغرب أنه لم يستجب لندائها. ولا أنه أصيب بفزع عمره حين فتحت إيما الباب القابل للطي وانتزعت سماعات الرأس.

– "ما هذا الجحيم..."

– "فيليب... أنا——"

حدقت إيما في يديه، اللتين كانتا ترتديان قفازات لاتكس رمادية باهتة.

صدحت ضربات الطبول العميقة من سماعات الرأس في الغرفة الصغيرة، لترافق أنفاسها المتقطعة.

كانت إيما تلهث بحثًا عن الهواء، ولم يكن ذلك نتيجة الخطوات القليلة والاندفاع السريع إلى الأسفل، ولا بسبب قلقها على سيلفيا. السبب هو أنها لم تستطع العثور على تفسير بريء لما كان أمام فيليب.

سكين الأشغال.

القفازات.

الطرد!

كانت تتساءل أين ذهب خفها. الطرد بحجم علبة الأحذية الذي طلبته عبر الإنترنت ويمكن وضعه في الميكروويف. وضع فيليب طرد الطعام في الثلاجة وعدساتها اللاصقة كانت في الحمام.

لكن الطرد الخفيف المغلف بورق بني عادي؟ كان هنا في الأسفل. مباشرة تحت مصباح القراءة الخاص بـ فيليب، بجوار جهاز الكمبيوتر المحمول على المكتب الصغير.

الورق مفتوح.

الدفتان مباعدتان.

بعض محتوياته مفرودة تحت عدسة المكتب المكبرة، والبقية لا تزال داخل الصندوق المبطن بالقطن.

لم يكن خف الميكروويف.

من الواضح أن إيما كانت مخططة وأغفلت التحقق ممن وُجه إليه الطرد.

لأن خصلات الشعر البني الطويلة والكثيفة والنابضة بالحياة التي أرسلت في هذا الصندوق لم تكن لها.

بل لـ فيليب.

الفصل الثالث والأربعون

سألت إيما:

– "ما هذا؟"

كان عقلها يلتمس تفسيرًا منطقيًا، والأهم من ذلك، بريئًا.

– "هل أرسل لك مصفف الشعر تلك الخصلات؟"

بالتأكيد. لقد اتصل القاتل به. إنه يؤدي عمله هنا فقط ويفحص الغنائم.

سأل فيليب الذي نهض من كرسيه:

– "ماذا تعنين؟"

قالت إيما:

– "أنت تعرف، الشعر."

انغلق طوق جليدي حول قلبها وهي تشاهد فيليب يفتح درج المكتب ويغلق على خصلة الشعر الداكنة بداخله.

– "أي شعر؟ أنا لا أعرف عما تتحدثين يا حبيبتي."

ثم أدار حاسوبه المحمول لتتمكن من رؤية الشاشة.

سمعت نفسها تتلعثم:

– "ماذا... كيف... أين...؟"

تغيرت أسئلتها المقتضبة بتزامن مع الصور التي ظهرت على الشاشة فيما يشبه عرض الشرائح.

صور لنساء.

لنساء جميلات.

فتيات ليل. صُورن خلسة خارج أبواب مختلفة. أبواب غرف فنادق، يفتحها رجل هو نفسه دائمًا، بينما تتغير العاهرات.

قالت إيما وهي لا تزال تحاول يائسة إنكار الواضح:

— "أنت؟ هل قابلت هؤلاء الفتيات؟"

فتيات الليل. الضحايا؟

— "إذًا أنت من قتلهن؟"

سأل فيليب بتعبير جعلها تظن أنه يتصنع الدهشة، بينما يضغط على مسطرة المسافة في لوحة المفاتيح:

— "إيما، هل تشعرين أنكِ بخير؟"

واستدعى صورة مختلفة تظهر ضحية أخرى.

صرخت إيما حين ميزت نفسها.

حقيبة بعجلات في يد، بجوار باب مظلم تهم بفتحه. مثل كل المقاطع الأخرى، كانت الإضاءة سيئة، لكن رقم الغرفة على قشرة الجوز كان من السهل تمييزه: 1904.

صرخت إيما في وجه فيليب:

— "إنه أنت! أنت مصفف الشعر!"

كيف أمكنني أن أكون مخطئة إلى هذا الحد؟

مخدوعة هكذا؟

مشغولة بالطرد الخاص بجارتها المجهولة، لم تنتبه إيما للثاني. وبالتالي لم تنتبه للعدو في عقر دارها.

بعد أن تاهت في متاهة أفكارها المرتابة، دمرت إيما حيوات بريئة.

— "يا لك من وغد!"

ابتسم زوجها وتحدث بنبرة مفعمة بقلق بالغ، لم تتماشَ مع ابتسامته الشيطانية.

— "إيما، اهدئي، من فضلك. أنتِ تهذين."

قال ذلك وهو يضغط على لوحة المفاتيح مرة أخرى في الوقت ذاته، مما أحال الشاشة إلى السواد.

صاحت إيما، ولا فكرة لديها عما يجب أن تفعله، وقد شلها الذهول والرعب:

— "ماذا تنوي أن تفعل؟ هل تحاول دفعي للجنون؟"

— "ماذا تعنين؟ أنا قلق من أنكِ ترين أشياء غير موجودة مرة أخرى يا حبيبتي."

نعم. هذا هو الأمر. لا أعرف لماذا، لكنه يغذّي شكوكي وجنوني.

نظرت إيما حولها، باحثة بشكل غريزي عن أداة للدفاع عن نفسها إذا هاجمها فيليب. ثم رأت كاميرا صغيرة في السقف، مثبتة بحيث تكون إيما في الصورة طوال الوقت، بينما لا يظهر زوجها في التسجيل.

قالت بانهيار:

— "أنت تصورني؟"

أجاب بورع مصطنع:

— "لكن يا حبيبتي، أنتِ طلبتِ مني تأمين القبو. خوفًا من اللصوص."

صرخت فيه:

— "لم أقل شيئًا أبدًا عن الكاميرات."

وبينما كانت الدوافع وراء تصرفات فيليب لا تزال غامضة تمامًا بالنسبة لها، صدمها إدراك مروع آخر:

سيلفيا.

لم تكن تتصل من هاتف جورجو.

بل من هاتفها الخاص.

في هذه النقطة على الأقل، كانت واثقة من اللعبة التي كان فيليب يلعبها معها طوال الوقت.

الأمر تمامًا كما فعل مع طليقته.

لقد حفظ رقم سيلفيا تحت اسم مختلف.

أي نوع من الرجال يفعل ذلك؟

رجل لديه ما يخفيه.

علاقة غرامية.

حتى لا يثير أي انتباه إذا اتصلت عشيقته عدة مرات في اليوم، أو أرسلت رسائل نصية أو تركت مكالمات فائتة.

انقبضت معدة إيما.

بالطبع، كم هو ذكي.

جورجو هو شريك فيليب، لذا كان طبيعيًا أن يجري الكثير من المكالمات. على الأقل كان هناك تفسير جاهز حين ترى الزوجة الساذجة في المنزل الاسم على الشاشة وتسأل.

كم هو ذكي ومخادع.

بالنسبة له كانت سيلفيا هي جورجو، بينما سيلفيا تناديه بيتر.

وهي تملك شعرًا طويلاً رائعًا. تمامًا مثلي.

وتمامًا مثل كل ضحايا مصفف الشعر الأخريات.

قالت إيما بصوت مبحوح، وكأن الحقائق قد سدت مجرى تنفسها:

— "لكن لماذا توجب عليك قتلهن جميعًا؟ العاهرات، عشيقاتك. حتى سيلفيا؟ لماذا توجب عليها أن تموت؟"

وكأن اسم المرأة التي اعتبرتها يومًا صديقتها المقربة كان إشارة البدء، تلاشت الابتسامة الشيطانية عن وجه فيليب ولأول مرة بدا قلقًا بجدية.

سأل، وكأنه يجهل حقًا أنها حاولت الاتصال به وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

– "ما خطب سيلفي؟"

ربما كانت لحظة الضعف الخاطفة التي خُيل إليها أنها لمحتها في عينيه، أو حقيقة أنه نادى عشيقته الأخيرة باسم التدليل الخاص بها، هي التي أطلقت غضبًا عدوانيًا جامحًا في داخل إيما.

ولكن من المحتمل أن تكون مجرد شجاعة اليأس هي التي انتزعتها من شللها.

الفصل الرابع والأربعون

صرخ فيليب:

— "إيما، توقفي!"

لكنها لم تكن تضمر أي نية للاستسلام وهي بلا مخرج.

أطاحت بذراعه التي حاول الإمساك بها، واستدارت لتركض صاعدة الدرج بأقصى ما أوتيت من سرعة، لكنها لم تكن سريعة بما يكفي.

أمسك فيليب بقدمها بسهولة وثبتها في مكانها. كان أضخم منها، وأقوى، وأسرع. ولم يكن يعاني من جرح في الرأس ينبض كحشرة حية تحت الضمادة، مرسلًا موجات جديدة من الألم مع كل حركة.

تعثرت إيما وارتطمت راحتا يديها بقوة بحافة الدرجات الخرسانية.

انقلبت على ظهرها وبدأت ترفس بقدميها كما فعلت مع بالانت قبل بضع ساعات فقط. لكن الفارق الآن أنها كانت ترتدي الجوارب فقط؛ وبدون حذائها الثقيل لم تستطع حتى إيذاء فيليب، ناهيك عن التخلص منه.

صرخ زوجها وقد أحكم قبضته الآن على كاحليها:

— "إيما!"

انغرست حواف الدرجات في ظهرها، ومع ذلك استمرت في التخبط وكأن مسًا أصابها.

حتى صرخ فيليب:

– "كفي عن هذا!"

واندفع نحوها ليصفعها.

بقوة. بقوة أكبر من تلك الصفعة التي وجهها لها هذا الصباح ليعيد إليها صوابها.

ارتطم رأس إيما بالدرج خلفها ورأت أضواءً ساطعة. وحين فتحت عينيها مرة أخرى، بدا وكأنها تنظر إلى فيليب عبر منظار مشكال (كاليدوسكوب) مشروخ.

رأت أن شفته تنزف، مما يعني أنها ركلته في وجهه على الأرجح.

ليس جيدًا.

تلك الإصابة الطفيفة لم تزدْه إلا غضبًا كحيوان جريح، مانحة إياه قوة إضافية بدلًا من إضعافه.

في المقابل، لم تعد إيما تملك أي طاقة للمقاومة. بالكاد استطاعت تحمل ضغط أصابعه حول معصميها.

أرادت للأمر أن يتوقف.

أن ينتهي أخيرًا.

الألم. العنف.

الأكاذيب!

منح استسلامها المفاجئ فيليب دافعًا جديدًا. تسلق فوقها وجثم عليها بكل ثقله، مثل زوج شبق يستميت لمضاجعة زوجته الطيعة على سلالم القبو، الفارق الوحيد هو أنه لم يكن يريد ممارسة الحب، بل العكس تمامًا.

صرخت إيما:

– "النجدة!"

رغم أنها لم تكن تعرف لمن توجه نداءها. في رأسها، كان صراخها أعلى بكثير مما هو عليه في واقع درجات القبو ذات الإضاءة الخافتة.

أغمضت عينيها، فتلاشى الغلاف الخشبي البسيط على الجدران، وكذلك حوض الزرع البلاستيكي أسفل الدرابزين، وصندوق المصاهر عند المدخل الذي لا يمكنها رؤيته إلا إذا أمالت رأسها للخلف، وباب «مختبر» فيليب.

وفيليب نفسه تلاشى، وإن كانت صورته فقط هي التي غابت. أما كلماته فظلت حاضرة.

سمعته يقول بنبرة ودودة تثير القشعريرة:

– "كل شيء سيكون على ما يرام".

سمعت أنفاسه، وأحست بيد (اليمنى على الأرجح) تندفع تحت رأسها، وشعرت به يمسح على جبينها (بظهر يده اليسرى غالبًا) – ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك.

كان ملمس اللاتكس على وجهها، وتلك الرائحة المميزة للمطاط وبودرة التلك، بمثابة خنجر يغرس في قلبها، يلتوي، ويلتوي، ويلتوي مع كل حركة.

حين فتحت إيما عينيها، رأت فيليب يبتسم، وتفترض أنها الابتسامة ذاتها التي ارتسمت على وجهه في ظلمة غرفة الفندق. اقترب رأسه منها، وفكرت في نطحه برأسها في وجهه. لكنها مرة أخرى كانت أضعف من أن تسبب له أي ضرر جسيم؛ ولن تزيد الطين إلا بلة بإغضابه أكثر.

بدأت إيما في البكاء وسمعته يصدر أصوات «شيش» تهدف بلا شك إلى تهدئتها. لكن تلك الأصوات ذكرت إيما بالأفاعي، وفي اللحظة التالية مباشرة، ركلته بركبتها بقوة بين ساقيه.

أنّ فيليب وأرخى قبضته، مما منحها الفرصة لتوجه ضربة بحافة يدها إلى فكه.

صرخ، واستدار إلى الجانب، وضغط بيده على فمه وبصق دمًا. لقد ضربته بقوة لدرجة أنها لا بد وأنها أطاحت بسن من أسنانه. أو ربما عض لسانه، فقد كان النزيف غزيرًا.

أفلتها تمامًا الآن؛ لم تعد إيما تشعر بأي ضغط على جسدها أو حول معصميها وكاحليها.

نهضت أخيرًا على قدميها، وركضت صاعدة الدرج، لكنها مرة أخرى كانت بطيئة جدًا. ومرة أخرى أمسك بها فيليب، هذه المرة من قدمها، وبدأ يسحبها عائدة. إليه.

نحو الهاوية.

تحسست إيما الدرابزين، وحاولت التشبث به، لكن يدها انزلقت واصطدمت بحافة صلبة، فأطبقت عليها غريزيًا.

رغم أنها بدت كمقبض، إلا أنها لم تكن مثبتة في الحائط، ولكن لماذا قد يوجد مقبض على سلالم القبو، إلا إذا...

...إنه يخص طفاية الحريق.

وبينما كانت تترنح، رأت إيما فرصتها. وبينما كان جسدها لا يزال يحاول استعادة توازنه، دفعت طفاية الحريق للأعلى، ودارت على مشطي قدميها، وترنحت محاولة السقوط إلى الأمام، باتجاه فيليب. لكن الجاذبية كان لها رأي آخر، وهكذا سقطت مرة أخرى على ظهرها فوق الدرج.

أثناء سقوطها، لم تكن هناك أي وسيلة لتقذف طفاية الحريق الثقيلة نحو فيليب، الذي كان فوقها مجددًا.

كل ما رأته هو يده ترتفع، ثم تحول كل شيء إلى البياض. القبو، الجدران، السلالم، فيليب، وهي نفسها. كما في عاصفة رملية، أصبح كل شيء محاطًا بحجاب من الغبار في لمح البصر.

سمعت إيما هسهسة، ثم ضغطت بقوة أكبر بيدها اليمنى، التي كانت تتحكم بوضوح في الغبار وصوت الهسهسة، ولجزء من الثانية انفتحت فجوة في الضباب.

في الفجوة وقف فيليب.

مغطى بمحتويات طفاية الحريق التي كانت ترشها مباشرة عليه. مع الرغوة التي كان يحاول مسحها من عينيه، بدا فيليب كشبح بفم ملطخ بالدماء.

سمعته يصرخ:

— "إيماااا".

تمكن من الإمساك بالدرابزين وهو يتعثر. والآن بدأ يتحرك مرة أخرى. ببطء وحذر. خطوة بخطوة كان يقترب.

وببطء شديد يبعث على الألم، خطوة بخطوة، زحفت إيما على بطنها صاعدة الدرج.

كادت تصل إلى القمة حين أمسك بقدمها من الخلف وجذبها إليه بقوة.

تحسست إيما بحثًا عن شيء تتمسك به، لكنها لم تنجح سوى في سحب سلة الغسيل، التي انسكبت محتوياتها فوقها.

تذكرت سائل الجثة في سقيفة بالانت، واستطاعت شم رائحة العفن العالقة بالغسيل المتسخ. جينز، بلوزة، ملابس داخلية. كل ما خلعه فيليب عنها ولا بد أنه حشره في السلة. لا شيء يمكن أن يساعدها الآن، لأنه كيف يمكنني الدفاع عن نفسي برداء حمام؟

رداء الحمام!

اخترقت الفكرة عقلها بالتزامن مع الألم الذي شعرت به حين سُحبت درجة أخرى لأسفل وارتطم فكها بالسطح الصلب.

كان فيليب قد فقد صوابه؛ استمر في صراخ شيء قد يكون اسمها، لكنه بدا أيضًا كصوت الألم، والتعذيب، والموت.

لكن إيما لم تفلت ما بيدها. وبينما هي ملقاة على بطنها، تشبثت برداء الحمام.

نبشت في الجيب الأيمن.

تبًا.

الجيب الأيسر.

وأخيرًا أصبح في يدها.

وفي اللحظة التي أمسك فيها فيليب بخصرها ليديرها نحوه، أطبقت أصابعها على المقبض البلاستيكي.

استجابت إيما لقوة زوجها، واستغلتها لتمنح ذراعها زخمًا خلفيًا، رافعة يدها عاليًا.

قابضة على النصل الدامي.

من طرد بالانت.

وفي حركة دائرية خاطفة، مررت المشرط ونحرت عنق فيليب.

الفصل الخامس والأربعون

بعد ثلاثة أسابيع

كان غريباً أنها لم تكن تبكي.

في ساعات الوحدة في الوحدة النفسية، كان مجرد التفكير في فيليب كافياً لاستدرار الدموع من عينيها، لكن الآن، بعد أن اعترفت بأفعالها المروعة لـ كونراد، وسردت لأول مرة كل شيء بأدق تفاصيله، بدا وكأن مخزون دموعها قد جف. ورغم أنها كانت تشعر بالضغط المكتوم والمسبب للصداع خلف عينيها، ظلت وجنتاها جافتين.

قالت:

— "لقد انتهيت."

وكلاهما يدرك أنها لم تكن تعني شهادتها.

رجلان، كلاهما قُتل على يدها في اليوم ذاته.

فقط بسبب طرد للجار.

لو لم تقبل استلامه، لما فقدت هاتفها المحمول في منزل بالانت. ولو لم تفتح الطرد، لما كانت بحوزتها مشرط.

— "ألم تلاحظي؟"

كان كونراد ينظر إليها، واقفاً عند رف الكتب الذي يحوي أعمال شوبنهاور. كان يحمل ملفاً كرتونياً رقيقاً، ولم تستطع إيما معرفة كيف

وصل إلى هناك. لم تكن حتى واعية بأن كونراد قد نهض وتجول عبر الغرفة. لابد أن دقيقتين قد مرتا منذ نطقت بكلمتها الأخيرة، دقيقتان حدقت خلالهما بجمود في بقعة الشاي على السجادة الدائرية، مقارنة حدودها بخريطة نيوزيلندا.

وخزت يدها، وشعر لسانها بالخدر — أعراض انسحاب نموذجية. سيتعين عليها تناول أقراصها مرة أخرى قريباً، لكنها لم تجرؤ على طلب كوب ماء آخر من كونراد، وأيضاً لأن الضغط على مثانتها بات لا يُحتمل تقريباً.

سألت بعد برهة من التأخير، منهكة وتتفاعل بسرعة سكير:

— "ما الذي لم ألاحظه؟"

— "أنه كان زوجك هو من اغتصبك يا إيما. هل تعتقدين حقاً أنكِ ما كنتِ لتلاحظي؟"

بصرف النظر عن استخدامه لاسمها الأول، لم تعد هناك أي حميمية في كلماته. بعبارة واحدة فقط، تمكن مرة أخرى من تغيير موقعها. لم تعد على الأريكة، بل في قفص الاتهام.

حيث أنتمي، في نهاية المطاف.

قالت إيما محاولة الإجابة على السؤال الذي طرحته على نفسها مراراً وتكراراً:

— "كانت في جسدي عقاقير مشلة شوهت حواسي."

لم يقتنع كونراد.

— "زوجك يتجسد في غرفتك الفندقية من العدم مثل ديفيد كوبرفيلد، فقط ليفعل ما كان يمكنه الحصول عليه منكِ بسهولة أكبر بعد يوم واحد داخل جدران منزله الأربعة؟ وبرضاكِ أيضاً!"

– "أنت تعلم تماماً أن الاغتصاب بالنسبة للمغتصب يتعلق بالسلطة أكثر منه بالجنس."

– "هل تخبرينني أنكِ داعبته وتحسستِه آلاف المرات، ومع ذلك في هذه المرة لم تشعري ولو بذرة شك؟"

– "أعرف ما تفكر فيه يا كونراد. قلتها لي في وجهي سابقاً. من يكذب مرة، يكذب دائماً، أليس كذلك؟"

رمقها كونراد بنظرة حزينة، لكنه لم يعترض.

– "لكنك مخطئ. نعم، كذبت حين ادعيت بحماقة أنني المرأة في فيديو روزنهان. لكن في هذه الحالة الأمور مختلفة جداً."

– "كيف؟"

– "حسناً، وجدوا شعراً يعود لجميع الضحايا في مختبر فيليب. جميعهن!"

– "باستثنائك."

فتح كونراد الملف وأخرج منه أربع صور كبيرة بالأبيض والأسود.

– "ماذا تعرفين عن هذه الصور؟"

نشرها على الطاولة الزجاجية.

أشاحت إيما بنظرها عن النساء. لم تكن بحاجة لرؤية عيونهن الواسعة، ووجناتهن العالية، وبالتأكيد ليس شعرهن الكثيف لتتعرف عليهن. في الصور كن يضحكن، أو يزممن شفاههن لقبلة، أو ينظرن بوقاحة وشقاوة إلى الكاميرا. لم يعد لديهن فرصة لفعل ذلك في الحياة بعد الآن.

قالت:

– "الضحايا."

– "صحيح، هؤلاء هن فتيات المرافقة اللواتي قتلهن مصفف الشعر."

سمرها كونراد بنظرة مبهمة.

– "هؤلاء النساء لديهن الكثير من القواسم المشتركة معك يا إيما. ارتُكبت بحقهن أفعال شنيعة. يملكن شعراً رائعاً، حتى أنهن يشبهنكِ إلى حد ما. لكن بافتراض أنكِ أخبرتني الحقيقة بشأن الأمور المهمة، فهناك فرق جوهري واحد بينك وبين هذه المخلوقات المسكينة، ولا أعني بذلك أنهن جميعاً في عداد الموتى."

... بافتراض أنكِ أخبرتني الحقيقة بشأن الأمور المهمة...

شعرت إيما بإرهاق يفوق ما شعرت به حين تناولت «الديازيبام» في وقت سابق.

– "عما تتحدث؟"

– "هؤلاء النساء حُلقت رؤوسهن وقُتلن، ولكن..."

نقر كونراد على كل صورة بالترتيب، ووضع علامة تعجب خلف كل كلمة من كلماته:

– "لكن! هؤلاء! النساء! لم! يُغتصبن!"

صمت. ليس تماماً، فالمكتب كان يعج بالهدير المستمر لمدفأة الغاز، لكن السكون الذي تبع انفجار كونراد كان خانقاً رغم ذلك.

أرادت إيما قول شيء ما. شعرت أن الكلمات مدفونة في أعماقها، وعليها الآن أن تتجمع لتشكل جملة ذات معنى ومنطقية، لكنها لم تقوَ على قول شيء سوى:

– "أنت تكذب."

– "أنا أكذب؟ لم يكن هناك أي دليل جنائي على إيلاج قسري. مع أي من الضحايا."

– "لكن في الأخبار..."

قاطعها كونراد:

– "انسي الأخبار. الصحيفة الأولى التي طبعت المعلومات الكاذبة، بحروف ارتفاعها عشرون سنتيمتراً على صفحتين متقابلتين، كذبت لتزيد مبيعاتها. وكل تلك الأخبار العاجلة، والتغريدات، والمنشورات، وتقارير الإنترنت التي جُمعت على عجل، والتي صدقها عدد أكبر من الناس ولم يكلف أحد نفسه عناء التحقق منها، نشرت الكذبة. ولاحقاً، تبعتها المجلات الجادة، والأسبوعيات، والتحقيقات التلفزيونية. كذبوا هم أيضاً، لكن هذه المرة بطلب من ضباط التحقيق."

– "لكن... لكن لماذا؟"

– "لماذا حُجبت المعلومات عن الجمهور؟"

أجاب على سؤاله بنفسه:

– "لا حاجة لي لإخبارك عن المشاكل التي تواجهها الشرطة مع المعتوهين نفسياً الذين يتبجحون بارتكاب جرائم مذهلة لم يقترفوها."

الكذابون المرضيون.

– "ولهذا لا تُنشر التفاصيل الدقيقة عن القتلة في وسائل الإعلام. ليتمكنوا من التحقق من صدق الاعترافات."

توقف كونراد ليضفي على كلماته ثقلاً أكبر.

– "عادة ما تكون هذه طريقة لتصفية الأشخاص الذين يحاولون فقط ركوب الموجة. لكنها لا تُستخدم غالباً مع الضحايا."

نهض وذرع مكتبه جيئة وذهاباً وكأنه في قاعة محكمة، ويداه معقودتان خلف ظهره.

– "هل لديكِ أدنى فكرة عن عدد النساء اللواتي اتصلن بخط الشرطة الساخن بعد أن قصصن شعرهن بأنفسهن؟ نساء قلن إنهن اغتُصبن لكنهن تمكنّ من الهرب؟"

قالت إيما وهي ترتكب خطأ تمرير يدها خلال شعرها كما فعلت طوال حياتها كلما توترت:

— "أنا لست واحدة منهن. لقد تحدثت مع المدعي العام. هل تعرفين ما يعتقده؟ أنكِ كنتِ تحاولين إجبار فيليب على البقاء معك بسبب مخاوفك المالية. أراد تركك فتظاهرتِ بالحمل. لكن لأن هذه كذبة لا يمكنك الاستمرار فيها للأبد، اختلقتِ قصة الاغتصاب لتبرير الإجهاض. في الوقت نفسه كنتِ تسعين لكسب التعاطف بصدمتك النفسية. لكن حين أدركتِ أن شيئاً من هذا لم يكن كافياً لإبقاء فيليب، قتلتِه، لتصبحي وريثته الوحيدة."

— "كونراد... كيف... كيف... يمكنك حتى التفكيرفي... أنا أعرف ما حدث. أعني، أنا لست مجنونة."

— "لا؟"

لا؟

هل سأل ذلك حقًا للتو؟

خطا كونراد بضع خطوات نحوها وأصبح يقف قريباً جداً مرة أخرى لدرجة أنها لو رفعت يدها فقط لتمكنت من لمس لحيته المشذبة بعناية.

قالت حين شعرت أنه سيلمسها:

— "اتركني وشأني."

احتجت قائلة:

— "ابتعد!"

لكن احتجاجها كان شكلياً أكثر منه قوة حقيقية. ولم تنفض يده حين وضعها على يدها.

همس برفق:

— "لقد أُسيء إليكِ نفسياً. لكن ليس جسدياً!"

— "بلى، لقد حدث. لقد... لقد اغتُصبت والآن أريدك أن تتوقف عن لعب دور محامي الشيطان، وإلا..."

صرخ كونراد بصوت عالٍ لدرجة جعلتها ترتجف:

— "إيما!"

— "افتحي عينيكِ واسمعيني. هذا ليس أسلوب تفاوض. أنا لا أتحدث إليكِ كمحامٍ، بل كصديق."

أخذ نفساً عميقاً.

— "زوجك أساء إليكِ. لكن نفسياً فقط. لم يمس جسدك بسوء. ولا أجساد الضحايا الأخريات."

لا، لا هذا مستحيل.

— "فيليب لم يكن مصفف الشعر؟"

— "لا."

كل ما استطاعت رؤيته في عيني كونراد كان يقيناً حزيناً. أشاحت إيما بوجهها. لم تستطع تحمل النظرة التي بدت وكأنها تخبرها أنها بقتلها لـ بالانت وزوجها، قد قتلت رجلين بريئين.

الفصل السادس والأربعون

سألته:

– "إذن من الفاعل؟"

كان جسد إيما بأكمله يعتريه شعور بالحكة. تملكها يأس ورغبة عارمة في حك ذراعيها وساقيها وبطنها. أو الأفضل من ذلك، أن تنسلخ تمامًا عن هذا الجلد الذي لم تعد ترغب في البقاء داخله.

كررت سؤالها:

– "من قتل أولئك النسوة إن لم يكن فيليب؟"

قال كونراد وهو ينهض ليلتقط صور النساء المقتولات من على طاولة القهوة:

– "أعملي عقلكِ يا إيما".

أمسك بالصور في يده وفردها كالمروحة الورقية.

– "كل هؤلاء الضحايا – انظري بتمعن وستدركين الرابط بينهن".

جالت عيناها في الصور على مضض.

نعم، إنهن يشبهنني. يمتلكن شعرًا مثل الذي كان لدي.

قالت:

– "جميعهن من النوع المفضل لـ فيليب".

وافقها كونراد:

– "بالضبط يا إيما. لكن على عكسك، فهن بائعات هوى. رفيقات من الطبقة الراقية. لقد خانكِ زوجك. مع كل واحدة منهن".

لوح بمروحة الصور في يده.

– "وهذه الخيانة هي الدافع. إنها المؤشر الذي يقودنا إلى القاتل".

احتبست أنفاس إيما حتى حررت سعلة معذبة مسالكها الهوائية.

– "ماذا قلت للتو؟"

أجاب:

– "فكري في الأمر يا إيما. من كان قريبًا جدًا من فيليب لدرجة تمكنه من اكتشاف نزواته العاطفية؟ من ذا الذي كان مجروحًا للغاية، ولكنه ذكي بما يكفي لصياغة خطة لانتزاع الشيء ذاته الذي أثار رغبة فيليب من أولئك النسوة؟"

شعرهن.

احتجت إيما:

– "أنت مجنون. لا بد أنك فقدت عقلك تمامًا. هل تصدق بجدية أن كل هؤلاء النساء..."

قاطعها مكملًا:

– "...منافساتكِ في الحب!"

... أنا من قتلهن ؟

لم تكن قادرة على نطق ذلك بصوت عالٍ.

قال:

– "ضعي نفسك مكانه يا إيما. فيليب يعلم أن «مصفف الشعر» يلاحق النساء اللواتي مارس الجنس معهن. والقاتل يستفزه بإرسال طرود إلى منزلكما تحوي تذكاراته، وكأنه يحاول القول: «انظر ماذا فعلت بالنساء اللواتي تنام معهن». إذا أفصح زوجك عن هذه المعلومات وسلم الأدلة

لفريق التحقيق، فسيفتضح أمر خيانته لكِ. وهذا آخر ما يريده. لذا توجب عليه تولي الأمر بنفسه. فحص الأدلة في مختبره وأجرى أبحاثه دون أن يدرك أن «مصفف الشعر» شخص قريب منه. ورغم أن فيليب كان يعلم أن النساء لم يتعرضن للاغتصاب، إلا أنه ارتكب خطأ البحث عن رجل. ومع ذلك، فأي طفل يعرف من يستخدم السم، السلاح الذي قتل المومسات".

الجنس الأضعف. النساء.

عقدت إيما ذراعيها خلف رأسها. كانت الندبة التي تدين بها لـ بالانت تنبض وتثير الحكة، لكنها قاومت الرغبة في خدش جبهتها.

سألت:

— "إذن لماذا أراني الصور في القبو؟ وتصرف وكأنه لا يوجد شعر؟ هل كان يحاول دفعي للجنون؟"

أومأ كونراد برأسه.

— "يجب أن أقول إن هذا أكثر ما أزعجني أثناء التحضير لمحادثتنا. ولن يكون من السهل إقناع المحكمة بأن فيليب استغل حالتك العقلية الهشة لأغراضه الخاصة".

— "أي أغراض؟"

— "أعتقد أنه أراد الحصول على حق الوصاية القانونية".

— "أن يعلن عدم أهليتي؟"

— "هذه طريقة أخرى لصياغة الأمر".

احتجت إيما:

— "لكن هذا لا يعقل. فيليب هو من يملك المال، وليس أنا".

قال كونراد:

— "لهذا السبب تحديدًا. زوجك يمتلك الثروة، ولعدم وجود اتفاق ما قبل الزواج، كان سيخسر نصفها لو تطلقتما. إلا إذا استعاد بصفته وصيًا

عليكِ السيطرة الكاملة عليها بينما يتم إيداعكِ قانونيًا في مستشفى للأمراض النفسية".

الدافع. خيانته هي التي أظهرته للعلن.

ومع ذلك...

قالت:

— "حسنًا، أنت تقول إن فيليب لم يكن هو من قتل النساء. وأنه لم يغتصبهن حتى، بل اكتفى بمضاجعتهن. وأن شخصًا آخر، «مصفف الشعر»، حلق شعرهن وأرسل التذكارات لـ فيليب ليظهر له أنه يعرف بشأن خيانته لي. وتزعم أن فيليب لجأ بعد ذلك إلى التلاعب النفسي لتدميري".

أومأ كونراد:

— "هذا صحيح تقريبًا".

— "وتعتقد أن «مصفف الشعر»..."

تركت إيما كلماتها معلقة في الهواء، فالتقطها كونراد قائلًا:

— "أعتقد أن شخصًا غيورًا للغاية هو الوحيد القادر على ارتكاب أفعال كهذه. شخص يريد فيليب لنفسه ولا يطيق فكرة أن يضطر لمشاركته مع أحد".

قالت لـ كونراد:

— "لم أكن أعلم شيئًا عن خيانة فيليب. ولم أكن أعرف تلك المومسات. لذا أنا لم أقتلهن".

سأل كونراد في حيرة:

— "أنتِ؟"

ثم قال بصوت رقيق يؤنبه ضميره:

— "يا إلهي يا إيما، أنا آسف حقًا. هل ظننتِ أنني كنت أتحدث عنكِ طوال الوقت؟"

الفصل السابع والأربعون

بدأ رأس إيما يدور.

كونراد لا يظن أنني القاتلة؟ لم يكن يتحدث عني؟ ولكن... ولكن من إذن؟

قلبت في ذهنها الأسئلة التي طرحها عليها صديقها القديم للتو.

من كان مقرباً من فيليب؟ من يتمتع بذكاء كافٍ لحياكة خطة انتقام نسائية؟ ومن سيعاني أكثر من غيره من نومه مع فتيات المرافقة إن لم تكن زوجته؟

اندفعت إيما قائلة وهي تضع رأسها بين يديها في لحظة الإدراك:

— "عشيقته!"

قال كونراد، الذي استعاد ثقته بنفسه:

— "صحيح. ليست عاهرة، بل المرأة التي كانت مهمة بالنسبة له. التي كانت قريبة منه لأنه كان يراها بانتظام."

انتصب شعر ساعدي إيما.

همست:

— "سيلفيا؟"

أومأ كونراد.

ضحكت إيما بهستيريا، ونقرت على جانب رأسها، ثم دفنت وجهها بين كفيها مجدداً.

صرخت:

– "لاااا. هذا عبث. مستحيل. لقد ماتت بينما..."

– "... بينما كنتِ في القبو مع فيليب. هذا صحيح. لقد أحبته يا إيما. أحبته لدرجة أنها لم تغفر له نزواته وعلاقاته العابرة. لقد اكتشفتِ ذلك بنفسك: لم يكن هناك بيتر. الرجل الذي أرادت إنجاب أطفال منه كان اسمه فيليب."

رسخ صوت ما في أذنها، مستعداً للطغيان على كل الأصوات الأخرى، وخاصة صوت كونراد.

– "لقد أحبت فيليب وكرهت النساء اللواتي عاشرهن. عاهرات لا يستحققن الحياة."

– "ولكن ماذا عني؟ لقد تركتني أعيش."

هذا لا يبدو منطقياً.

– "لم يكن عليها قتلك يا عزيزتي. كان بإمكانه الانفصال عنك. في الغالب، كان قد وعد سيلفيا بتركك من أجلها. وبإنجاب أطفال منها. منذ تلك الليلة لم تلمسي فيليب حتى، أليس كذلك؟ آسف لاضطراري قول هذا، لكن في نظرها لم تعودي تشكلين أي منافسة. على عكس العاهرات. أرادت سيلفيا منع كل اتصال جنسي بين فيليب ونساء أخريات. وكان هذا أحد أسباب إرسال غنائمها إليه. لتظهر له: (أنا أعرف من تعبث معهن. كل واحدة من أولئك العاهرات اللواتي تنام معهن ستموت)."

دون أن تهوي إلى الأرض، شعرت إيما وكأنها تسقط.

لهذا السبب كان رد فعل فيليب غريباً حين ذكرت اسم سيلفيا في القبو. إيما سألته لماذا توجب عليه قتلها، لكنه لم يكن يعلم أصلاً أن سيلفيا كانت تحتضر.

مسد كونراد وجنتها برفق.

– "قد يقول واعظ أخلاقي إن زوجك يحمل وزر هؤلاء النساء جميعاً على ضميره. لكنه لم يقتلهن. ولم يمس سيلفيا بسوء. حين حاولت الاتصال بفيليب على هاتفه وأجبتِ أنتِ، كانت قد تناولت بالفعل جرعة زائدة من الحبوب المنومة."

سألت إيما:

– "المكالمة كانت صرخة طلب للمساعدة؟"

سحبت يدها التي حاول كونراد الإمساك بها وحدقت في النار. كانت ألسنة اللهب الغازية تلمع باللونين البنفسجي والأزرق، مذكرة إياها بكدمات جروح لن تندمل أبداً.

– "لكن لماذا جاءت لزيارتي في ذلك اليوم؟ لماذا صرخت بأنني دسست لها حبوب الصباح التالي لأمنعها من الحمل؟"

تنهد كونراد:

– "كانت مجنونة يا إيما. لا يمكنك قياس تصرفات قاتلة متسلسلة بالمعايير الطبيعية. لكن سؤالك يحمل الإجابة التي تبحثين عنها."

بانج.

ضربتها الحقيقة بقوة مقصلة.

همست إيما برعب:

– "لأنه لم يرد أن تحمل."

– "ولابد أن سيلفيا أدركت ذلك في وقت ما بعد زيارتها لكِ يا عزيزتي. علمت حينها أن فيليب لا يريد إنجاب أطفال منها. خشيت أن يتراجع عن وعده وألا يتركك أبداً، ولابد أن شكوكها تعززت حين ترك مؤتمره من أجلك."

تغبش العالم أمام عيني إيما خلف جدار من الدموع.

نشجت قائلة:

– "قد يكون كل هذا صحيحاً. لكن قصتك بها عيب هائل. قد أكون مرتابة وبالغت في رد فعلي تجاه فيليب. لكن السبب في ذلك يعود لما فعله مصفف الشعر بي في غرفتي بالفندق. وتلك لم تكن سيلفيا."

– "كيف ذلك؟"

جاء دورها الآن لتصرخ بكل كلمة متبوعة بعلامة تعجب.

– "لأنني! قد! اغتُصبت!"

كانت ترتجف.

– "شعرت بذلك. المرأة تشعر بشيء كهذا."

بدا كونراد مجدداً وكأنه تجمد في أرضية مكتبه. بهدوء شديد، ودون أن يغير تعبير وجهه، سأل:

– "هل أنتِ متأكدة تماماً يا إيما؟"

– "نعم، متأكدة مائة بالمائة."

التفتت إلى النافذة وأطلقت ضحكة زائفة.

– "أعرف أن لدي خيالاً خصباً. وأحياناً أروي قصصاً، نعم. لكن في هذه النقطة أنا متأكدة تماماً! كان رجلاً. بداخلي. ولهذا فقدت طفلي. لا أزال أستطيع الشعور..."

لم تستطع التنفس. ومضت صور أمام عينيها ومرت غشاوة عبر مجال رؤيتها وكأنها أطالت النظر في الشمس، لا في المشهد الشتوي لمنطقة "زيليندورف" خلف مكتب كونراد.

سأل كونراد بصوت بدا فضولياً أكثر منه قلقاً:

– "ما الخطب؟"

قالت إيما مشيرة إلى بحيرة "فانزي":

– "الضوء."

ألم يكن يُفترض أن يكون الظلام قد حل أكثر بكثير؟

– "منذ متى وأنا هنافي...في..."

مرة أخرى عجزت عن إكمال جملة، وهذه المرة كان السبب الرجل على الممشى. والكلب الضخم من فصيلة "ماستيف" المربوط بالمقود. الذي فتح فمه وكأنه عازم على التقاط ندف الثلج بلسانه.

تمتمت إيما وقد تملكها شعور سريالي، غير عقلاني تماماً، بأنها علقت في حلقة زمنية:

– "... في عيادتك؟"

لم تكن تنظر إلى مشهد مشابه فحسب، بل إلى المشهد ذاته تماماً الذي رأته في بداية جلستها. نهضت. تطلب الأمر بعض الجهد، لكنها هذه المرة وجدت القوة لتبقى واقفة على قدميها.

سألت وهي تتجه نحو النافذة:

– "ما الذي يحدث هنا؟"

خلفها، بدأ كونراد يتحدث إلى شخص ما، رغم أنه كان وحيداً في الغرفة.

قال بصرامة:

– "هذا يكفي الآن. أكرر، هذا يكفي."

سمعت وقع خطوات تقترب من الممر بالخارج. وفي الوقت ذاته التقط أنفها مجدداً رائحة طلاء حديث وأعمال تجديد أخرى كلما اقتربت من النافذة. وفي اللحظة التي فُتحت فيها الأبواب خلفها وهمت بلمس الزجاج بأطراف أصابعها، تلاشت البحيرة أمام عينيها، ومعها الماشي، والثلج، والكلب، والممشى، وكل شيء. حتى النافذة لم تعد موجودة.

مجرد ثقب أسود في الجدار.

سمعت صوت رجل يقول:

– "دكتورة شتاين؟"

لم يكن صوت كونراد، فتجاهلته.

أصرت وهي تبدأ في البكاء حين سمعت الطقطقة الكهروستاتيكية للتلفاز عالي الدقة الذي كان رأسها يستند إليه:

– "لكنني أعرف من أنا."

قال الرجل:

– "أرجوك لا تخافي يا سيدة شتاين."

لكن حين التفتت إليه ورأت طبيبها النفسي بمعطفه الأبيض وممرضتين تقفان بجوار كونراد، كان ذلك بالضبط ما شعرت به: خوف تملك كل خلية داخل جسدها وبدا وكأنه استوطن هناك إلى الأبد.

شعرت إيما بالدوار، وحين خارت قواها وبدأت تفقد الوعي، حاولت التشبث بشيء يسندها، لكنها فشلت.

الفصل الثامن والأربعون

في الكواليس، عيادة بارك

— "رائع. لقد كان ذلك عملًا رائعًا".

أشار الدكتور مارتن روث إلى الشاشة على الطاولة أمامهما، بعد أن خفض الصوت للتو. كانا يريان المكتب الوهمي حيث كان ممرضان يعتنيان بـ إيما. بعد أن فقدت وعيها، أفاقت بعد فترة وجيزة وهي الآن مستلقية على الأريكة وساقاها مثنيتان. ولو لم يكن كونراد على علم بالحقيقة، لصدق فعلًا أنه يراقب مكتبه بجوار بحيرة فانزيه عبر كاميرا المراقبة. كان من المذهل كيف نجح النجارون والبناؤون في استنساخه بدقة متناهية.

أما التقنيون!

حتى اللحظة الأخيرة، كان متشككًا، لكنهم أثبتوا جدارتهم في النهاية: في الحقيقة، لم يعد بالإمكان تمييز الصورة على التلفاز فائق الدقة عن الواقع.

مرارًا وتكرارًا أثناء التجربة، ضبط نفسه وهو يحدق بتأمل خارج النافذة حتى تذكر أن «الإطلالة» من مكتبه كانت مجرد فيلم فائق الدقة تمت معالجته بتقنية تشغيل جديدة تسمح بتغيير المنظور وفقًا لموقع الناظر.

– "لا يمكننا الجزم بالطبع، لكن هناك فرصة جيدة جدًا لنجاح علاج إيما شتاين".

بدا أن الدكتور روث يحاول تشجيع كونراد بابتسامة عريضة إلى جانب كلماته. ترك المحامي المنهك مديح الطبيب النفسي يمر دون أثر. لقد استمع إلى إيما لما يقرب من أربع ساعات، محاولًا طوال الوقت اتباع تعليمات الطبيب. قد لا يبدو عليه ذلك – فهو لا يستطيع تحمل إظهار أي ضعف علنًا – لكن في الحقيقة كان رأس كونراد يضج في أعقاب هذه الجلسة الماراثونية، وكان آخر ما يريده الآن هو محادثة تحليلية مع كبير الأطباء الذي بدا أصغر من عمره بكثير، لكن سمعته كانت أسطورية في الأوساط المهنية. قبل عشر سنوات، نجح الدكتور مارتن روث على ما يبدو في علاج مريض بالفصام باستخدام هلاوسه الخاصة، مما أرسى دعائم سمعته. كان يلجأ أحيانًا إلى علاجات غير تقليدية لمساعدة مرضاه.

مثل علاج اليوم.

لتحقيق الاختراق المأمول مع إيما شتاين، أمر الدكتور روث ببناء نسخة طبق الأصل من مكتب كونراد في الصالة الرياضية الصغيرة بالعيادة، حيث يقوم أخصائيو العلاج الطبيعي بتمارين إعادة التأهيل. كان هذا الجهد ضروريًا لأنهم لم يتمكنوا من الحصول على تصريح قانوني لإجراء مقابلة خارج العيادة، بينما رفضت إيما أي تواصل داخل المؤسسة.

قال كونراد وهو يسحب كرسيًا قابلًا للطي:

– "أحتاج إلى بيرة أولًا".

هنا، خلف جدران الديكور مباشرة، والتي خلقت من جانب إيما وهمًا مثاليًا لمكتبه في زيليندورف، كان المكان يبدو كموقع بناء.

أعمدة كبيرة تمنع ألواح الخشب المضغوط من الانهيار. وأسلاك الميكروفونات الخفية والكاميرات المصغرة (التي كانت جميعها تقريبًا

على أرفف الكتب) تمتد عبر أرضية المشمع في الصالة الرياضية مثل خيوط الغزل.

في الواقع، كان المكان برمته يشبه إلى حد كبير موقع تصوير سينمائي. على طاولة تخييم كانت هناك عصائر وبسكويت مملح وشطائر مغلفة: تموين «عرض كونراد وإيما». لا شك أن الدكتور روث قد أخذ راحته أثناء مراقبة مريضته من هنا.

أضاف كونراد لطلبه:

— "بيرة باردة وسيجار".

قال روث وهو يسحب جهاز لاسلكي من جيب حزامه في بنطاله الجينز الأبيض:

— "لقد استحققت كليهما. الآن، هناك حظر صارم للتدخين والكحول هنا في عيادة بارك، لكن بصفتي مديرها، أنا متأكد من أنني أستطيع عمل استثناء اليوم".

ضغط زرًا ونقل الأمر، ويفترض أنه لمساعدته مقوسة الساقين التي تحدث معها كونراد بانتظام عبر الهاتف خلال الأيام القليلة الماضية لإنهاء التفاصيل. كانت تلك المرأة تجسيدًا للملل والبطء. إذا نظمت أمر البيرة والسيجار بنفس السرعة التي رتبت بها نقل الأثاث من عيادته إلى هنا، فسيأخذ أول نفخة صباح الغد وأول رشفة الأسبوع المقبل.

— "سيكون الطلب هنا خلال خمس دقائق".

همم. من كان ليظن؟

بعد أن دون روث بضع ملاحظات على لوح كتابة، جلب لنفسه أيضًا كرسيًا قابلًا للطي وجلس مقابل كونراد، وظهره للشاشة.

قال مبتسمًا:

– "ظننت أن الأمر قد انتهى حين أسقطت إيما الكوب وأرادت تنظيف الفوضى".

وافقه كونراد:

– "نعم، كانت قاب قوسين أو أدنى من زيارة المرحاض غير الموجود".

لأسباب تتعلق بالسباكة، لم يكن هذا التفصيل في المكتب الوهمي ممكنًا. مرحاض كديكور كان ليكون مقبولًا، لكن مرحاضًا يعمل مع نظام شطف ومياه جارية؟ لم تسمح مرافق المكان بمثل هذا التركيب. لو هزت إيما الباب المزيف الذي يؤدي إلى مرحاض غير موجود، لتبدد الوهم بأكمله. في الواقع، كان هذا جزءًا من الخطة، لكشف الحقيقة لـ إيما، ليس في وقت مبكر جدًا، بل كذروة درامية وفي أقرب وقت ممكن من نهاية الجلسة.

سأل الدكتور روث، مع التشديد على كلمة «الآن»:

– "إذن كيف تشعر الآن؟"

لأن كونراد كان في البداية معارضًا بشدة لطرق علاج الطبيب النفسي.

– "لا زلت لا أشعر بالارتياح لاضطراري للكذب على إيما وجعلها تصدق عالمًا زائفًا. لكن عليّ الاعتراف بأن فكرتك غير التقليدية أتت بالنتيجة المرجوة".

حقيقة أن إيما رفضت أي زيارة في جناحها وضعت مساعديها أمام مشكلة شبه مستعصية. لم تدلِ بأي تصريح، لا شيء يمكن لفريق دفاع محترم العمل عليه. ومن ناحية أخرى، كان المدعي العام بحوزته مقطع فيديو يظهر إيما وهي تنحر عنق زوجها في قبو منزلها بعد أن كالت له اتهامات مجنونة تمامًا.

لم يحرز روث أي تقدم في علاجه أيضًا حتى خطر بباله كيف يمكنهم ضرب عصفورين بحجر واحد – جعل إيما تدلي بشهادتها والانخراط في العلاج بالمحادثة في الوقت نفسه. استنتج أن إيما شخص لا ينفتح إلا لقلة قليلة من الناس، ولا لأحد أكثر من صديقها الذي بمثابة والد لها.

لكن هذا وحده لم يكن كافيًا. لضمان شهادة صادقة، كانت بحاجة أيضًا إلى محيط مألوف.

قال لـ كونراد قبل عشرة أيام في ظهيرة يوم جمعة بارد ورطب: "إذا لم يأتِ المريض إلى الجبل، فيجب نقل الجبل"، وبحلول ذلك الوقت لم تكن إيما تحت إشرافه حتى لأسبوعين. تذكر كونراد رغبته في فحص الحالة العقلية للدكتور روث هو الآخر، حين شرح الأخير خطته بالتفصيل:

"لنفترض أن السيدة شتاين تثق بك. ستجد صعوبة بالغة في اختلاق الأكاذيب لأقرب المقربين إليها، خاصة في بيئة لطالما شعرت فيها بالأمان. لا تزال هناك أمور كثيرة لا نستطيع تفسيرها. ما إذا كانت السيدة شتاين قد تعرضت حقًا لهجوم في غرفة فندق أم أنها ألحقت تلك الإصابات بنفسها في مكان آخر. أو كيف بالضبط قتلت الرجلين. هل كان ذلك عمدًا أم إهمالًا؟ إذا قمت أنت، يا بروفيسور لوفت، بإجراء استشارة قانونية يمكننا مراقبتها، فسيمنحنا ذلك فرصة لا تقدر بثمن لتحليل شهادة إيما شتاين من منظور نفسي".

ضحك كونراد ونظر حوله بحثًا عن إحدى تلك الكاميرات التي صُور هو وإيما بها خلال الساعات القليلة الماضية.

– "تريد استنساخ مكتبي بالكامل؟ أنت تمزح معي!"

– "على الإطلاق، وإذا تكرمت بإجراء بعض البحث عني ستكتشف أنني أسلك أحيانًا مسارات غير تقليدية لـ——"

قاطعه كونراد، متكئًا بمرفقيه على مكتبه وناظرًا إلى روث:

– "انتظر لحظة، توقف! هل تقترح بجدية أن أخدع موكلتي؟ أن أخرق سرية المحامي؟"

هز روث رأسه بقوة.

– "نحن في هذا معًا. موكلتك هي مريضتي. وهذا يعني أن سرية موكلك تتداخل مع سرية مريضي. إيما شتاين متهمة بالقتل غير العمد لـ أنتون بالانت وزوجها. وفي الوقت نفسه يبدو أنها تعاني من بارانويا حادة، وربما حتى الكذب المرضي".

– "وبمساعدتي..."

– "يمكننا ضرب عصفورين بحجر واحد. نكتشف ما حدث حقًا، وربما نتوصل ليس فقط لاستراتيجية دفاع، بل أيضًا لخطة علاج. لكن هذا لن ينجح إلا بمساعدتك. إنه «شرط لا يمكن بدونه تحقيق الأمر». هذا مصطلح قانوني متخصص، أليس كذلك؟"

أكد كونراد:

– "«شرط لا غنى عنه» (Condition sine qua non)".

– "ستكون مقابلتك كمحامي مع موكلته بمثابة تحليل نفسي علاجي أيضًا. إنها وسيلة لاكتشاف الحقيقة وجعلها تتحسن في آن واحد. ولن يعلم أي طرف ثالث بأي من هذا. سنكون الوحيدين اللذين لديهما حق الوصول إلى التسجيلات. لا يوجد مصورون، فقط عدسات ثابتة".

كانت هذه المحادثة هي التي أقنعت كونراد أخيرًا، رغم أنه طلب مهلة للتفكير خلال عطلة نهاية الأسبوع. لكن في الواقع كان يعلم أنه سيعطي موافقته حين سأل الدكتور روث قبل مغادرته مباشرة:

– "تريد نقل مكتبي بالكامل؟"

قال الطبيب النفسي بهدوء، وكأنه إجراء طبيعي تمامًا تدفع تكاليفه شركة التأمين الصحي:

– "الأثاث فقط. سنبني بقية المكتب".

وهكذا تم تخدير إيما في غرفتها بوعد رؤية صديقها القديم مرة أخرى، الذي قد يتمكن من إنقاذها من عقوبة السجن. وحين استيقظت، بعد نقلها كما يبدو، تخيلت نفسها في عيادة كونراد.

لكن هل استحق كل هذا الجهد والعناء فعلًا؟ تساءل كونراد.

سمع طرقًا مكتومًا، مما فاجأه لأن باب الصالة الرياضية الأقرب إليهما كان مصنوعًا من الزجاج. ولم يكن أحد خلفه.

سأل كونراد حين تكرر الصوت، لكنه بدا هذه المرة أشبه بضرب الأقدام بالأرض:

– "ماذا كان ذلك؟"

التفت إلى الشاشة.

إيما.

لم تكن على سرير المستشفى ولا على الأريكة، بل واقفة في وسط الغرفة، تضرب بقدمها اليمنى الأرض. كانت ممرضة خرقاء تحاول الإمساك بذراعها، لكن إيما نفضتها عنها بسهولة.

أمر كونراد بصوته السلطوي المدرب في قاعات المحاكم:

– "الصوت!"

التقط كبير الأطباء جهاز التحكم عن بعد الموجود على الطاولة.

ارتفع صوت إيما.

قالت وهي تدور حول نفسها:

– "مرحبًا؟ كونراد؟"

كررتها عدة مرات. لقد أدركت بالطبع أنها مراقبة ويتم الاستماع إليها، لكن حتى الآن لم تكن لديها فكرة عن مكان الميكروفونات والكاميرات.

– "كونراد، هل تسمعني؟"

أجاب:

– "نعم".

رغم أن روث أوضح هذا الصباح أن المكتب الوهمي معزول صوتيًا بشكل جيد لدرجة أنه يمكنك رمي طبق على الأرض في الخارج دون أن يسمع أحد بالداخل أي شيء من التحطم.

سألت إيما، ودموع غزيرة تنهمر على خديها، وصوتها يخرج مجهدًا من مكبرات الصوت الصغيرة:

– "كونراد؟ أرجوك عد يا كونراد. هناك شيء يجب أن أعترف به".

الفصل التاسع والأربعون

حظيت إيما بإطلالة جميلة من غرفتها في العيادة. ربما ليست بفتنة تلك التي يطل عليها مكتبه، لكنها على الأقل لم تكن مسجلة على شريط فيديو، هكذا فكر كونراد.

لو كانت إيما تقف بجواره عند النافذة، لاستطاعت رؤية عائلة صغيرة من الأرانب البرية تتقافز عبر مرج الحديقة المكسو بالثلج، لتقفز مسافة مترين خارج شعاع فوانيس الحديقة الكروية نحو الظلام، وتعود بعد قليل لتترك آثاراً مرئية في البياض الناعم مرة أخرى.

وكان بوسعها أيضاً رؤية سيارته الـ «ساب» القديمة التي اعتاد أحياناً أن يقلها بها إلى الجامعة. لكن لترَكل هذا، كان على إيما أن تغادر فراشها، وهي في هذه اللحظة أضعف من أن تفعل. كانت السيارة المكشوفة مغطاة بطبقة سميكة من الثلج وتقف في موقف السيارات الصغير المخصص في الواقع لكبار الأطباء. كان روث قد عرض عليه مكانه.

سمع إيما تسأل من سريرها:

— "هل فتشت كل شيء؟"

كان السرير أعرض وأكثر راحة من ذاك الذي دُفعت عليه إلى المكتب المزيف قبل بضع ساعات.

أجاب كونراد:

– "نعم."

بناءً على طلبها، مشط الغرفة بأكملها بحثاً عن كاميرات وميكروفونات خفية، باحثاً بدقة متناهية رغم أن روث أكد له أنه هنا في الجناح لا يوجد شيء ولا أحد مراقب. لم يكن ليجرؤ على ارتكاب مثل هذا التطفل على خصوصية مرضاه.

قال كونراد بنبرة نادمة:

– "أنا آسف."

وكانت تلك هي الحقيقة. في كتب المستقبل الدراسية، سيبدو الأمر جيداً حين يكتب الناس عن الدكتور روث أنه عالج كاذبة مفترضة بكذبة. لكن هذا لم يغير حقيقة أن كونراد قد خدع أعز صديقاته وموكلته.

ردت إيما بوهن:

– "لا، أنا من يجب أن يعتذر."

بدت غافلة عن كل ما حولها؛ الجلد حول عينيها غائر ومتغضن، وكأنها لم تشرب شيئاً منذ زمن طويل.

– "ربما يكون من الأفضل أن نتحدث غداً. تبدين منهكة يا عزيزتي."

– "لا."

ربتت على اللحاف بجوارها.

– "تعال واجلس بقربي من فضلك."

ابتعد عن مقعد النافذة وصار بجوارها في خطوتين. كان يحب القرب منها. والآن، وقد زالت الحاجة لتصنع المسافة المهنية، لم تعد إيما موكلته، بل عادت ربيبته الصغيرة العزيزة مرة أخرى.

همست بينما كان يزحزح الطاولة الجانبية قليلاً ليتمكن من الجلوس على المرتبة.

– "أردت التحدث إليك هنا في الأعلى. في زنزانتي."

– "تقصدين في غرفتك بالعيادة."

ابتسمت وكأنه ألقى نكتة.

وافق روث فوراً على السماح لإيما بالعودة إلى غرفتها. كان مكتب المحاماة المزيف قد أدى غرضه. حين اكتشفت إيما أن التلفزيون عالي الدقة كان نافذة مزيفة، أدركت أن البشر يمكنهم فقدان القدرة على التمييز بين الخيال والواقع. لم يستطع كونراد الحكم على الفائدة النفسية لهذا الإدراك، لكنه اتفق مع رئيس العيادة على أن إيما في سرير المستشفى أفضل حالاً منها في الصالة الرياضية بالأسفل.

– "لم أرغب في إخبارك هناك في الأسفل. ليس أمام كل تلك الكاميرات. والميكروفونات."

أومأ كونراد.

أمسك بيدها. كانت جافة وخفيفة كورقة.

قالت:

– "لا ينبغي لأحد أن يسمعنا."

بدا صوتها وكأن في فمها حبة بطاطس ساخنة. كان لسانها ثقيلاً. أعطاها روث مهدئاً آخر، بدا أنه يعمل ببطء، ثم تركهما قائلاً إنه سينتظر في الممر.

قال كونراد وهو يضغط على يدها بمودة:

– "استرخي."

– "ما سأقوله لأذنيك أنت فقط."

شعر كونراد بوخزة في قلبه، كما يحدث دائماً حين يكون شخص مقرب منه في محنة وهو يجهل كيف يساعده. في ساحة معركة المواد والبنود القانونية، كانت الأسلحة المناسبة دائماً في متناول يده. لكن حين

يتعلق الأمر بالمشاكل الشخصية، كان غالباً ما يقف عاجزاً. خاصة مع إيما.

سأل:

– "ما الذي يؤرقك؟"

– "أتعلم ماذا؟ مع مرور الوقت، أصبح أقل يقيناً بأنني كنت في ذلك الفندق."

منحها أرق ابتسامة لديه.

– "أحسنتِ يا إيما. أحسنتِ لقولك هذا. وصدقيني، لن يلومك أحد. سنبذل قصارى جهدنا الآن لشفائك."

اعترضت قائلة:

– "لا شفاء في العلاج النفسي."

– "لكن توجد مساعدة."

– "لا أريد مساعدة."

– "لا؟ ماذا تريدين إذن؟"

– "أن أموت!"

الفصل الخمسون

جاءت ردة فعل كونراد مشحونة بالعاطفة والقوة.

اشتدت قبضته على يد إيما لدرجة مؤلمة، ومن شفته المرتجفة أدركت كيف يغالب نفسه ليحافظ على رباطة جأشه.

— "أنتِ تمزحين".

— "لا، أنا جادة تمامًا".

— "ولكن لماذا؟"

— "لأسباب كثيرة. بسبب البارانويا التي أعاني منها قتلتُ فيليب وبالانت. وحلتُ دون إنقاذ حياة سيلفيا".

عارضها كونراد بقوة:

— "لم يكن أي من ذلك مقصودًا. ليس خطأكِ".

هزت إيما رأسها، كانت عيناها محمرتين، لكن صافيتين. لم تعد تبكي.

قالت:

— "فيليب... بدون فيليب لا معنى لحياتي. لقد أحببته. لا يهمني كم كان حقيرًا. أنا لا شيء بدونه".

قال كونراد بصوت عالٍ بشكل مفاجئ:

– "أنتِ أكثر وأهم بكثير بدون ذلك الخائن. إذا كان هناك لوم يقع على أحد في بؤسك، فهو زوجك الخائن الأناني. يكفي أنه خانك وأهملك وهو حي. لكنه حتى بعد موته يغرقك في يأس عميق".

ثم خفف كونراد من قبضته ونبرة صوته، وبدا ذلك جهدًا واضحًا عليه، وأضاف:

– "لستِ الملومة يا إيما. كان ذلك دفاعًا عن النفس".

تنهدت قائلة:

– "حتى لو أقنعت القضاة، لا أريد الاستمرار في العيش. ليس هكذا. عليك أن تفهم ذلك يا كونراد. أنا طبيبة نفسية. أعرف أحلك الهاويات النفسية ظلمة. بالكاد استطعت تحمل النظر إليها. والآن أنا نفسي في القاع تمامًا".

– "إيما..."

– "شيش... استمع إليّ، أرجوك يا كونراد. لم أعد أعرف كيف أفكر. كنت مقتنعة تمامًا بأنني تعرضت للاغتصاب. والآن؟ أي نوع من الحياة هذه إذا لم تتمكن من التمييز بين الجنون والواقع؟ إنها ليست حياة صالحة لي. يجب أن أنهيها. لكن لا يمكنني فعل ذلك بدون مساعدتك. أنا واثقة أنك تعرف شخصًا يمكنه تأمين الدواء الذي سأكتبه لك".

– "لكنكِ..."

– "مجنونة. بالضبط".

هز كونراد رأسه قائلًا:

– "لا، ليس هذا ما عنيته".

لم تره إيما يبدو بهذا الحزن والعجز من قبل.

قالت:

– "بلى، هذا صحيح. لقد فقدت صوابي..."

– "مجرد خيال جامح يا عزيزتي. وتوتر. الكثير من التوتر".

– "الآخرون لديهم توتر أيضًا، لكنهم لا يهلوسون بأنهم اغتُصبوا في غرف فنادق خيالية".

– "لكنهم لا يملكون قوة خيالك يا إيما. انظري. في تلك الليلة كانت لديك محاضرة صعبة، وكان الزملاء عدائيين بشكل صريح واضطررت للدفاع عن نفسك. من المفهوم تمامًا أن تفقدي السيطرة في حالة نفسية متطرفة كهذه. أشك في أنك شاهدتِ تقريرًا تلفزيونيًا عن «مصفف الشعر» وحولك خيالك المحموم إلى واحدة من ضحاياه. سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكنني متأكد من أننا سنكتشف الحقيقة مع الدكتور روث".

– "لا أريد ذلك".

ضغط كونراد على يدها مرة أخرى وكأنه مضخة تحاول ضخ حيوية جديدة في إيما.

– "إيما، فكري فقط. لقد تم مساعدتك من قبل. حين كنتِ طفلة، عندما كان خيالك يشطح بعيدًا أيضًا".

آرثر.

اجتاحتها سوداوية غير متوقعة، ولم تستطع إيما منع نفسها من التفكير في صديق الطفولة الخيالي، الذي كانت خائفة منه جدًا في البداية. كانت معظم ذكرياتها ضبابية. فقط خوذة الدراجة النارية والحقنة في يد آرثر ظلتا مرافقتين لها، حتى بعد سنوات من علاجها الذي – كما يبدو الآن – لم يكن ناجحًا لتلك الدرجة في نهاية المطاف.

أغمضت إيما عينيها ولم تعد تقاوم التعب الذي استحضر المزيد من قصاصات الذاكرة كبشائر لأحلامها.

كلمات والدها: "اخرجي الآن فورًا. وإلا سأؤذيكِ".

الصوت في الخزانة: "هل قال ذلك؟"

صرخات أمها حين فقدت الطفل في الشهر الرابع.

حبة الصباح التالي.

صوتها هي تصرخ في سيلفيا: "لقد حُلقت رأسي واغتُصبت. كان هناك رجل في غرفتي..."

"نعم، مثل آرثر في خزانتك..."

فتحت إيما عينيها على وسعهما. شقت طريقها عائدة إلى السطح عبر ضباب الخدر.

سألها كونراد، الذي كان لا يزال يمسك يدها:

— "ما الخطب؟"

— "كيف عرفت اسمه؟"

كان لسانها يزن عدة كيلوغرامات؛ بالكاد تستطيع تحريكه.

— "ماذا؟"

— "آرثر. كيف عرفت سيلفيا اسمه؟"

— "هل تتحدثين عن الشبح الآن؟"

نظرت إلى وجه كونراد المتحير.

— "اسمع، لم أخبرك حتى باسمه. لقد سمعته لأول مرة اليوم حين أخبرتك عن شجاري مع سيلفيا. حين جاءت إلى منزلي واتهمتني بمنعها من الإنجاب، قالت شيئًا عن أنني أكذب حتى حين كنت طفلة. حين اختلقتُ آرثر. لكنني قابلت سيلفيا فقط بعد أن خضعت للعلاج. لم أخبر سيلفيا عن آرثر أبدًا".

هز كونراد كتفيه وتمتم:

— "لقد كانت على علاقة بـ فيليب. ربما سمعت الاسم منه".

كانت إيما ترمش بجنون.

– "اسمع. حتى فيليب لم يكن يعرف شيئًا عن الأمر. احتفظت باسم آرثر لنفسي. بعد جلسات العلاج في صغري لم أرغب أبدًا في نطق الاسم بصوت عالٍ مرة أخرى؛ كان نوعًا من التطير. ظننت أنه إذا لم أنطق اسمه فلن يعود آرثر أبدًا، هل تفهم؟"

لم أخبر سوى والديّ وطبيبي النفسي عنه. إذن كيف عرفت سيلفيا الاسم؟

كانت إيما ترتجف. لجزء من الثانية عرفت الإجابة. وهذه الإجابة أشارت الطريق نحو حقيقة مروعة ومجمّدة للدماء لدرجة أنها أرادت فقط الركض خارجة من غرفتها وهي تصرخ.

لكن الإجابة تلاشت بعد ذلك، ومعها قدرتها على مقاومة فقدان الوعي لفترة أطول.

وكل ما رافق إيما في انحدارها العميق نحو النوم كان شعورًا بالخوف، أسوأ بكثير من ذلك الذي شعرت به حين قبلت الطرد.

الفصل الحادي والخمسون

كان الدكتور روث مغتبطاً للغاية. فالتجربة التي مولها غالباً من جيبه الخاص حققت نجاحاً باهراً.

كاد يشعر بالأسف لعدم تمكنه من الاستمرار، لكن قاعة إعادة التأهيل التي كان يشغلها باتت مطلوبة بشكل عاجل، وعلى أية حال، لم يعد يُرتجى مزيد من النجاح من هذا الإعداد.

سأل كونراد الواقف بجواره، وهو يراقب بعين الصقر رجلين من عمال النقل يحملان أريكته:

— "هل انتهينا إذن؟"

بعد محادثته مع إيما، ذهب محامي الدفاع في نزهة بالحديقة لاستنشاق بعض الهواء النقي. وبدا الآن منتعشاً.

— "هل انتهت المسرحية؟"

اضطر كونراد لرفع صوته لأن المفكات اللاسلكية كانت تئز أمامه وخلفه وهي تفكك ألواح الجدران. كان الهواء مثقلاً بعبق نشارة الخشب، وهي رائحة أحبها روث منذ طفولته. فقد التحق بمدرسة ذات توجه فني قوي، وكانت النجارة جزءاً من المنهج الأساسي، وهو ما قد يفسر ميله للأساليب الإبداعية.

أجاب روث:

– "نعم، أظن أننا انتهينا. ما لم تكن السيدة شتاين قد باحت لك بشيء آخر قد يكون مهماً لعملي."

ابتسم كونراد:

– "سرية العميل."

لكنه لوح بيده نافياً بعد ذلك.

– "لا، لقول الحقيقة كانت مشتتة تماماً. أفصحت عن أفكار انتحارية، لذا عليك حقاً إبقاء عينك عليها."

حك روث خط شعره المتراجع:

– "لا تقلق، نحن مجهزون لهذا الاحتمال. أخشى أن رد الفعل هذا كان متوقعاً."

– "لماذا؟"

– "لقد هززنا عالم السيدة شتاين بعنف."

أشار روث إلى رف الكتب الذي يضم الأعمال الكاملة لـ شوبنهاور. كانت إحدى الكاميرات لا تزال مثبتة في كعب كتاب «العالم إرادة وتمثلاً».

– "وفي الوقت الحالي، هي لا ترى أي طريقة لإعادة ترتيبه."

استأذن كونراد للحظة وصاح:

– "مهلاً، مهلاً. انتبه من فضلك!"

اقترب من أحد عمال النقل الذي كان يحاول سحب سجادة الـ "O" الدائرية بعنف من تحت طاولة القهوة.

– "هذه ستذهب للتنظيف الجاف، وليس للقمامة."

سأل روث الذي تبعه:

– "هل هذه (إنسو)؟"

رمقه كونراد بنظرة إعجاب.

– "هل تعرف رمزية (الزن)؟"

ابتسم روث مشيراً إلى الحواف السوداء للسجادة البيضاء.

— "قليلاً. في فن الزن، تُرسم الإنسو، أو الدائرة، بضربة فرشاة واحدة انسيابية. فقط أولئك الذين يتمتعون برباطة جأش واتزان ذهني يمكنهم رسم إنسو متناسقة. ولهذا السبب، تعطينا طريقة رسم الدائرة فكرة جيدة للغاية عن الحالة الذهنية للرسام."

ضحك كونراد:

— "أرفع لك القبعة."

كان العامل قد خرج الآن حاملاً طاولة القهوة تحت إبطه. وحمل العمال الآخرون الأغراض للخارج أيضاً، تاركين كونراد وروث وحدهما للحظة.

— "لم أكن أعلم أن بداخلك مشروع فيلسوف."

أومأ روث، وبدا غارقاً في التفكير. أمسكت أصابعه بخيوط سجادة الإنسو مرة أخرى، ثم نهض. وللمرة الأخيرة ترك نظره يجول في المكتب المقلد، ثم سأل كونراد، بشكل عرضي تقريباً:

— "كنتما لا تفترقان عملياً، أليس كذلك؟"

— "عفواً؟"

— "كان عليك دائماً أن تبقيها هناك. أن تكون قريباً منها."

قال كونراد بانزعاج طفيف:

— "عما تتحدث بحق السماء؟"

بدلاً من الإجابة، نظر روث إلى الوبر في يده، الذي التقطه للتو من السجادة. كانت الألياف بنية داكنة ورقيقة بشكل غير معتاد بالنسبة لسجادة.

تكاد تشبه الشعر.

قال الطبيب النفسي وهو ينظر في عيني كونراد مباشرة:

– "في مختبر فيليب عثروا على الغنائم من جميع الضحايا، باستثناء إيما."

امتقع وجه محامي الدفاع وبدا وكأنه هرم في لحظة واحدة. تحولت الأرضية الصلبة لثقة كونراد بنفسه فجأة إلى باب مسحور يهوي به.

– "إلام تلمح بحق الجحيم؟"

رد روث بسؤال من عنده:

– "ألا يثير دهشتك كل هذا الوقت والمال الذي أُنفق هنا يا بروفيسور لوفت؟"

فتح الطبيب النفسي ذراعيه وكأنه يرى التجهيزات لأول مرة.

– "مكتب محاماة مؤثث بالكامل ومقلد بدقة، تلفزيون عالي الدقة، كاميرات وميكروفونات خفية. وكل هذا فقط لتحرير مريضة مرتابة من هلاوسها؟"

سأل كونراد بصوت خافت:

– "ما الذي يجري هنا؟"

جالت عيناه بقلة حيلة عبر الموقع، باحثاً عن مخرج.

لكن قبل أن يجد واحداً، أسقط روث مقصلة الحقيقة.

– "كنا نراقبك أنت، لا إيما!"

الفصل الثاني والخمسون

كانت إيما تسبح في قاع بحيرة حالكة السواد كالنفط، ويعتريها دوار البحر. ومع ذلك، كانت الأمواج التي تخل بتوازنها تحملها نغمة غريبة.

صوت يهمس تارة، ويبتسم تارة أخرى.

صوت مجنون.

صوت كونراد.

— "أحبك يا إيما".

اجتاحتها موجة غثيان عارمة، فانتزعت إيما عينيها لتفتحهما وتقيأت بجوار سريرها مباشرة.

كانت لا تزال مترنحة، ترى العالم وكأنها تنظر عبر زجاج مصنفر، لكنها عرفت من هي (امرأة مغتصبة)، وأين هي (في عيادة بارك)، وما الذي باح به كونراد لها.

كان قد قال وهو يمسك يدها، معتقدًا أنها غائبة عن الوعي تمامًا، بينما كانت في الواقع تحوم تحت سطح النوم بقليل:

— "لا تقلقي، سأعتني بكِ".

— "سأحميكِ كما فعلت دائمًا".

كانت تنجرف بعيدًا، لكن صوته كان يعيدها في كل مرة.

الآن، وبعد أن تقيأت الدواء قبل أن يسري مفعوله في جسدها، لم يعد كونراد في الغرفة.

لكن صوته كان لا يزال يتردد في رأسها. تلك الأغنية الهامسة الموحشة من الذاكرة.

– "أنا ملاكك الحارس يا إيما. كنت أراقبك طوال الأشهر الماضية، تمامًا كما فعلت لسنوات وسنوات. هل تفهمين؟ لقد قتلت العاهرات لأجلك. لأستعيد شرفك".

الآن فقط، اكتمل المعنى للجنون الكامن في كلماته. كانت لا تزال متعبة للغاية. لكن جاذبية المؤثرات العقلية لم تعد تحاول سحبها بقوة إلى مستنقع وعيها.

– "أردتكِ منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليكِ. كنتِ صغيرة جدًا، في الثالثة من عمرك، حين جئتِ إلى عيادتي مع والدك. كانت مؤثثة تقريبًا كما هي الآن. حتى السجادة كانت هناك. كنتِ تحببين اللعب فوق حرف الـ O، لكنني أراهن أنك لا تتذكرين ذلك لأنك كنت صغيرة جدًا".

لهذا السبب شعرت بالألفة هناك منذ البداية.

حاولت إيما في تلك اللحظة فتح عينيها مرة أخرى، لكنها لم تفلح.

– "لاحظتُ على الفور أن والدك لم يكن جيدًا معك. كنتِ تحاولين التقرب منه، لكنه كان دائمًا فظًا وباردًا. أما أنا، في المقابل، فلم أستطع إظهار مشاعري. كان عليّ أن أختبئ لأتمكن من رؤيتك".

في خزانتي!

– "راقبتكِ، واعتنيت بكِ، وحرستكِ وحميتكِ. كنت الأب الذي لم تحظي به يومًا".

كونراد لم يكن «مصفف الشعر» فحسب.

بل كان آرثر أيضًا!

هكذا عرفت سيلفيا اسمه. لم تسمعه من فيليب، بل من الرجل الذي تظاهر بأنه آرثر... تذكرت إيما أفكارها البطيئة جدًا، التي قاطعها همس كونراد مرارًا وتكرارًا.

كان بينهما تواصل، بالطبع. لا بد أن كونراد قد زار سيلفيا حين كانت إيما في حالة سيئة، لمناقشة كيفية مساعدتها. من صديق مقرب لآخر.

– "طوال حياتك كنت أعتني بك يا حبيبتي. مثلما حدث حين كان حبيبك السابق بينيديكت يضايقك، هل تذكرين؟ كثيرًا ما بسطت يدي الحامية فوقك، لكنك لم تكوني تدركين ذلك. ثم، حين أصبحتِ كبيرة بما يكفي، أظهرت نفسي لك. لكنني خشيت أن تدركي مشاعري الحقيقية وتقطعي الاتصال برجل يكبرك بكثير".

لكن ألم تكن مثليًا؟

– "تظاهرت فقط بالمثلية. كذبت لأبقى دائمًا قريبًا منك، لكن للأسف هذا ما أبقانا متباعدين أيضًا. أوه، يا لتلك الرغبة التي شعرت بها نحوك. طوال هذه السنوات".

حتى تلك الليلة في الفندق!

– "أردت منك مغادرة «لو زين» والعودة إلى المنزل يا حبيبتي. العودة لزوجك الذي كان في السرير مع عاهرة. لكي تضبطيه متلبسًا بالجرم المشهود. لكنك بقيتِ. رغم أنني أخفتك بالكتابة على المرآة، لم تغادري. لذا قصصت شعرك كي يزهد فيليب فيكِ. لكي يتوقف عن النوم معك كما كان يفعل دائمًا حين تعودين للمنزل".

في هذه اللحظة، خُيِّل لـ إيما أنها تتذكر كونراد وهو ينظف حلقه، تمامًا كما فعل في تلك الليلة في الفندق.

– "أنا لم أغتصبك. الأمر فقط أنك حين كنتِ مستلقية أمامي، بسلام ووداعة..."

اضطرت إيما للتقيؤ مرة أخرى. أزاحت الأغطية وسقطت بجوار السرير حين حاولت الوقوف.

صرخت في وجه صوت الحقيقة الذي استوطن رأسها:

– "لا!"

سمعت كونراد يقول:

– "أعرف، كانت غلطة. لكنني لم أستطع الانتظار أكثر يا إيما. بعد كل سنوات الامتناع تلك، كان الأمر طبيعيًا تمامًا، كما ترين. وكان جميلًا، ورقيقًا للغاية. فعل محبة".

شعرت إيما بتقلص عنيف في أحشائها. هوت على ركبتيها وتقيأت مجددًا.

وحين لم يعد يخرج شيء من معدتها، اختفى الصوت في رأسها أيضًا، وكأنها طردت كونراد من جسدها مع آخر قطرة من العصارة الصفراوية.

وهي تلهث، تحاملت على نفسها لتصل إلى حافة النافذة ونظرت إلى الخارج. كادت تتوقع رؤية كونراد في الحديقة يلوح لها، لكن لم يكن هناك سوى مشهد ثلجي. آثار أقدام أرنب في الثلج. ومصباح ينشر ضوءًا خافتًا.

والسيارة.

كانت سيارة "الساب" القديمة تقف مغطاة بالثلج في موقف سيارات العيادة حيث لا يُسمح إلا لكبار الأطباء بالركن.

نظرت إيما إلى الباب، ومسحت بعض اللعاب عن فمها بـكُمّ قميص نومها، واتخذت قرارًا.

الفصل الثالث والخمسون

ترنح محامي الدفاع، الذي كان مفعماً بالنشاط فيما مضى، عبر النموذج المقلد لمكتبه كملاكم قضي عليه بالضربة القاضية. لم ينبس ببنت شفة للدكتور روث بعد. ولم يكن قادراً على النظر في عيني الطبيب النفسي.

وقف كونراد هناك، يرتجف. وجهه قبالة النافذة الزائفة، التي أُزيل منها التلفاز بالفعل، ولم يتبقَ سوى فجوة من الخشب الحبيبي لتذكره بما تم تركيبه هناك.

استدار كونراد وحاول الاستناد إلى حافة مكتبه، لكنه انزلق وجاهد ليسقط متهالكاً على كرسيه.

قال روث:

– "لقد نسجتَ شعر إيما داخل سجادة (الإنسو)."

دون لوم. ودون أدنى نبرة استعراضية في صوته. فكطبيب نفسي، صادف انحرافات في السلوك البشري أكثر إثارة للقلق من ذلك بكثير.

تلعثم كونراد وهو يستعيد صوته:

– "هذا... هذا... هناك تفسير لذلك."

أجاب روث:

– "أنا واثق من ذلك. كل شيء سيُفسر. بما في ذلك مسألة رقم الغرفة. هل كانت 1903 أم 1905؟"

– "ماذا؟"

– "أي من الغرفتين المتصلتين هي التي استبدلتَ الرقم على بابها بـ 1904؟"

استطاع روث رؤية قطرات العرق على جبين كونراد. تحول وجهه إلى لون الرماد واكتسى جلده بلمعة شمعية.

تابع روث:

– "نعم، أعرف. لا أحد يحب أن تُكشف ألاعيبه. رغم أنها كانت حيلة ممتازة أن تحجز كلتا الغرفتين عبر بوابة حجز فنادق أجنبية لعائلة مكونة من أربعة أفراد. في فندق (لو زين)، كما في معظم فنادق برلين، عليك فقط إبراز بطاقتك الائتمانية عند تسجيل الدخول، لذا كنت بحاجة فقط لشخص ما ليستلم المفتاح نيابة عنك."

قطب روث جبينه.

– "هنا تكمن النقطة التي لا نعرف يقيناً كيف قمت بها. نفترض أن هذه الأم وأطفالها الثلاثة موجودون بالفعل – ربما موكلة سابقة لديك، دعوتها للمجيء إلى ألمانيا. لكنها غادرت أبكر قليلاً، مما يعني أنه في اليوم الذي كانت إيما تسجل فيه دخولها، كان المجال مفتوحاً أمامك لتنفيذ خططك. كان لديك كل الوقت لتعليق صورة آي ويوي، مباشرة فوق باب التوصيل غير المؤطر حتى لا تلاحظ إيما وجود مدخل للغرفة المجاورة. انتظرتَ هناك حتى خلدت للنوم. وعلى عكس الماضي، لم تضطر للاختباء في الخزانة."

ابتسم روث ابتسامة شاحبة.

– "بالمناسبة، يعجبني اسم آرثر. أنا معجب بـ آرثر شوبنهاور أيضاً."

انتفض كونراد حين فُتح باب المكتب المؤقت بصرير عالٍ. ودخل ضابط شرطة أسود الشعر بملامح يونانية واثق الخطوة.

قال الشرطي:

– "بروفيسور كونراد لوفت، أنت رهن الاعتقال."

وقف جورجو كابسالوس على بعد مترين من المكتب، ويده على مسدسه الميري عند خاصرته.

– "لا أظن أن عليّ إخبارك بحقك في التزام الصمت."

رفع كونراد بصره وحدق في الشرطي الطويل عريض المنكبين وكأنه كائن فضائي.

نق بصوت مبحوح:

– "لماذا؟"

خُيل لـ روث، الذي بقي بجوار الأريكة، أنه يلمح ابتسامة على شفتي جورجو، لكن ربما كان الضوء المشتت لمصباح المكتب هو ما أعطاه هذا الانطباع.

لم يكن شريك زوج إيما السابق سادياً. ورغم أن جورجو تأثر بعمق بموت فيليب شتاين، لأنه لام نفسه لعدم ربط الخيوط ببعضها في وقت أبكر، لم يعتقد روث أن جورجو مدفوع بالانتقام. ومع ذلك، كان من المفهوم شعوره برضا غامر الآن وهو يتمكن من اعتقال مصفف الشعر.

– "كيف كشفتم أمري؟"

هز جورجو رأسه وتحسس الأصفاد في حزامه.

– "سيكون لدينا متسع من الوقت لمناقشة كل ذلك في القسم حين نأخذ اعترافك."

أومأ كونراد، مقراً بالهزيمة.

قال:

– "غير معقول."

تاركا عينيه تتجولان بذهول في المكتب المزيف حيث ظن أنه يساعد إيما، بينما كان هو نفسه تحت المراقبة طوال الوقت.

تمتم المحامي:

— "لقد خدعتموني."

نظر باتجاه المخرج. لم يعد أي من عمال النقل إلى الصالة الرياضية؛ كانوا يطيعون الأوامر التي أصدرها جورجو.

— "لم يكن الهدف جعل إيما تشعر بالأمان هنا، بل أنا، هنا، في بيئتي المألوفة."

حتى في لحظة هزيمته الكبرى، كان عقل كونراد يعمل بدقة متناهية.

— "ما كنتم لتحصلوا أبداً على مذكرة لتفتيش مكتبي الحقيقي. دبرتم الأمر ببراعة. أحترم ذلك."

كان كونراد يستند بضعف على المكتب، وكان ينبغي لـ روث أن يدرك الأمر حينها. ولكن بالأحرى حين زفر المحامي بقوة وترك ذراعيه تسقطان أسفل سطح المكتب.

كان كونراد منكسراً، متأثراً بشدة لدرجة الانهيار بعد أن سقط عنه القناع، وربما لن يتعافى أبداً. لكن تحوله حدث بسرعة مريبة، خاصة لشخص تدرب طوال حياته على التحكم في جسده وعقله.

لقد ارتكبنا خطأً، فكر روث، ثم سمع هذه الكلمات تتردد، لكن بتأخير زمني طفيف وبصوت مختلف: كانت قادمة من فم كونراد.

قال كونراد:

— "لكنكم ارتكبتم خطأً."

وفي طرفة عين، كان المسدس الذي سحبه محامي الدفاع من حجرة سرية أسفل سطح المكتب قد أصبح في وضعيته. كان كونراد يصوب مباشرة بين عيني الدكتور روث.

الفصل الرابع والخمسون

قال كونراد:

– "مكتبي. مخبئي السري. بوليصة التأمين على حياتي. في الواقع، كانت مخصصة للموكلين الغاضبين الذين خسرت قضاياهم. وإذا نظرت للأمر من هذه الزاوية، فالوضع ملائم تمامًا".

ضحك المحامي بأسى وأحكم قبضته على المسدس.

– "سأطلق النار".

أدرك مارتن روث أنه جاد تمامًا في تهديده القاتل.

تابع كونراد:

– "سأضغط على الزناد، وحينها لن تحتاجوا إلى عمال نقل أثاث، بل إلى منظفي مسرح جريمة متخصصين في أشلاء الأدمغة المتناثرة".

قال روث وهو يقترب رافعًا يديه:

– "حسنًا، حسناً".

كان هذا هو مجال خبرته؛ الأفراد المضطربون نفسيًا في حالات الانفعال القصوى.

سأله:

– "ماذا تريد؟"

قال كونراد بهدوء مذهل، مصوبًا سلاحه الآن نحو صدر جورجو:

– "أريد إجابات".

لم يفضح توتره سوى شريان ينبض في عنقه.

– "كيف ارتبتم في أمري؟"

تأكد جورجو بنظرة سريعة إلى روث من إمكانية قول الحقيقة، ثم قال:

– "لم يكن لدينا حمض نووي، ولا أدلة، لا شيء. كنا نتخبط في الظلام في قضية «مصفف الشعر». ولكن من الملف النفسي الذي أعده فيليب، علمنا أنه لا بد أن يكون «رجلًا مسنًا، يميل للمحافظة، ذو مستوى تعليمي عالٍ، وحس واضح بالنظام»".

أومأ كونراد وأشار بيده الحرة لـ جورجو كي يتابع.

– "أعرف إيما منذ سنوات. لم أستطع تخيلها كمقلدة مضطربة تحاول فقط لفت انتباه زوجها. ناهيك عن أن تتحول للعنف بلا سبب".

وافقه كونراد:

– "مستبعد جدًا. هذا يشبه فيليب أكثر".

أومأ جورجو:

– "لكنني لم أظن شريكي قادرًا على العنف الجسدي ضد النساء أيضًا".

قال كونراد:

– "أما العنف النفسي، فمسألة أخرى..."

تردد جورجو قليلًا، متأكدًا مرة أخرى من إمكانية مواصلة الحديث. إما أنه فسر نظرة روث بشكل صحيح، أو أنه كشرطي مدرب على قول الحقيقة للأشخاص الذين يوشكون على ارتكاب عمل عنيف.

– "بدأ فيليب يتصرف بريبة، مخبرًا إياي مرارًا وتكرارًا بشكوكه حول حالة زوجته العقلية. وحين فتشنا فندق «لو زين» معًا، بدا وكأنه يبحث عن

دليل يثبت جنونها لا العكس. وكان مصرًا على ألا تعرف إيما بأمر الباب المتصل، رغم أن ذلك كان ليكون بلسمًا لروحها المعذبة. ولم يخبرها أننا وجدنا بقايا صمغ على الجدار، يفترض أنها من الصورة التي غطيتَ بها الباب".

هز جورجو كتفيه.

— "من هناك، كانت الخطوة المنطقية هي التحقق من حياة إيما الخاصة. ويا للمفاجأة: الملف ينطبق عليك، وكأن فيليب كان ينظر إليك مباشرة حين صاغه".

أمسك كونراد بعنقه. ومرة أخرى صوب عينيه وفوهة مسدسه نحو روث.

— "ماذا عنك؟ أنت العقل المدبر وراء كل هذا، أليس كذلك؟"

— "حسنًا، أفضل القول إن الصدفة ساعدتني في طريقي. حضرتُ أيضًا المؤتمر حيث تحدثت السيدة شتاين عن «تجربة روزنهان». لا أظنك تذكر، لكننا اصطدمنا ببعضنا في غرفة المعاطف. لاحقًا، حين استدعتني الشرطة تذكرت لقاءنا. أفترض أنك لم تكن هناك بدافع اهتمام طبي، بل لاستبدال بطاقات الدخول في وثائق إيما؟"

أومأ كونراد وقال:

— "لم يكن هذا سؤالي. أردت أن أعرف ما إذا كانت استراتيجية هذا الفخ فكرتك؟"

تردد روث. ورغم أن كونراد سيكتشف حتمًا إذا كذب عليه، إلا أن كبير الأطباء لم يكن ليستطيع أن يكون صادقًا تمامًا دون إهانة المحامي.

بعد أن طلبت منه الشرطة المساعدة كخبير مرموق، أمضى الأسابيع القليلة الماضية في دراسة نفسية محامي الدفاع. درس جميع فيديوهات ندوات كونراد وأفلام ظهوره العلني على الإنترنت. حلل مظهره الخارجي

المتحذلق تقريبًا، وسلوكه المدروس بدقة والموجه نحو تحقيق أقصى قدر من النجاح. وسرعان ما خمن أن نقطة ضعف كونراد الكبرى ستمثل أيضًا أفضل فرصة للمحققين: نرجسيته.

قال روث:

– "للنيل منك، كان علينا وضعك في موقف تشعر فيه بالقوة. كان عليك أن تصدق أنك تمسك بكل الخيوط وأنك البطل في مسرحية، تمامًا كما في المحكمة. كنت واثقًا أنك ستوافق على فكرتي باستنساخ مكتبك، نظرًا للجهد الذي بذلته في غرفة الفندق كي لا تأخذ الشرطة السيدة شتاين على محمل الجد".

رمش كونراد قائلًا:

– "إذن لم يكن الأمر يتعلق بـ إيما أبدًا؟"

كانت عيناه رطبتين، لكن لم يبدُ عليه أنه يرثي نفسه. حتى في هذا الموقف المتطرف، بدا في الواقع قلقًا بصدق على سلامة إيما.

أوضح روث:

– "بلى، بالطبع كنت مهتمًا بالدكتورة شتاين أيضًا. ببناء مكتبك هنا، استطعنا ضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل. بعد تلك الأحداث المريعة، كانت إيما ترفض كل أشكال التواصل. الديكور المزيف جعلها تنفتح أخيرًا. وأدانك كقاتل".

تحولت ملامح كونراد إلى القسوة. وللحظة بدا وكأنه عاد محاميًا يستجوب شاهد الخصم.

– "كيف عرفت؟ كيف عرفت أنني سأحضر السجادة معي؟"

هز روث رأسه بلطف.

– "لم أعرف. لأكون صادقًا، حتى اللحظة التي حاولت فيها منع إيما من تنظيف البقعة، لم يخطر ببالي أن هذه قد تكون قطعة من الأدلة. ولكن

حين رأينا اللقطة المقربة، لاحظت توسع حدقتيك. وبعد ثانية قفزت بالفعل، بدافع غريزي تقريبًا. لم ترد لـ إيما أن تلمس السجادة تحت أي ظرف. سألنا أنفسنا أنا والسيد كابسالوس: لماذا؟ ألقينا نظرة فاحصة واكتشفنا الشعرة التي لا بد أن إيما اقتلعتها حين نظفت السجادة".

طرقع كونراد مفاصل يده على الطاولة إعجابًا، كما يفعل الطلاب للتصفيق للأستاذ.

انزلقت يد جورجو نحو جراب سلاحه، وهو ما لم يغب عن ملاحظة كونراد.

قال باقتضاب:

— "هذه ليست فكرة جيدة".

ابيضت مفاصل يده وهو يشدد قبضته أكثر على المسدس، الذي كان مصوبًا الآن نحو قلب الشرطي.

في تلك اللحظة سُمع صرير خلف روث. ومثل جورجو، التفت نحو باب «المكتب»، الذي كان يؤدي هنا إلى غرف تغيير الملابس لا إلى ممر شركة المحاماة. انفتح الباب.

ببطء شديد، وكأن الشخص الذي يدفعه من الجانب الآخر يصارع ريحًا عاتية تهب في الاتجاه المعاكس.

أو كأنه خاوٍ من القوة.

صرخ كونراد بصوت عالٍ كأنه تحذير، ولكن بعد فوات الأوان:

— "إيما!"

كانت واقفة بالفعل عند المدخل بشعرها القصير، وخفها الأبيض، وقميص نوم العيادة المربوط من الخلف.

كان ينوي سؤالها على الأرجح:

— "ما... الذي تفعلينه هنا؟"

لكن الكلمات ضاعت في الجلبة التي تلت انطلاق الرصاصة.

نظر كونراد بذهول إلى المسدس في يده، ثم تساءل عما حدث. ترك ذراعه تسقط، وفي تلك اللحظة طرحه جورجو أرضًا. كان الشرطي قد قفز عبر الطاولة ومسدسه مشهر.

لم يكن روث يتابع العراك غير المتكافئ حيث ترك المحامي نفسه يُدفع إلى الأرض وتُلوى ذراعاه خلف ظهره دون مقاومة.

كل ما رآه هو إيما.

تترنح نحوه.

تساقط الدم على الأرضية الباركيه المرصوفة حديثًا. سيل جارف، انصب على الأرض كشلال أحمر لزج. فوق المقعد الجلدي، وإلى حيث يفترض أن تكون طاولة القهوة، وحيث ترقد الآن فقط سجادة «إنسو»، التي انهارت فوقها أخيرًا.

الفصل الخامس والخمسون

بعد أربعة أسابيع

- "رقم ثلاثة."

قالت المرأة غائرة الوجنتين ذات قصة الشعر الرجالية، المسؤولة عن استقبال الزوار عند نقطة التفتيش الأمنية. كانت طويلة، ممتلئة، بأسنان تصطبغ بآثار النيكوتين، ويدين يمكنها بهما الإمساك بكرة سلة. لكنها كانت ودودة، وهو أمر يقارب المعجزة حين تضطر للعمل في الجناح شديد الحراسة بسجن للأمراض النفسية.

- "لديكِ خمس دقائق."

أشارت ضابطة السجن إلى المقعد الذي يحمل الرقم المحدد خلف الزجاج الفاصل بين العالم الحر والنزلاء.

كان كونراد جالساً هناك بالفعل.

أبيض كالطباشير، هزيل. حلقوا لحيته، لكن ذلك جعله يبدو أكبر سناً. برؤيته، قد يفكر الكثيرون في الموت وكيف يترك ندوبه على بعض الناس وهم لا يزالون أحياء.

كانت غرفة الزوار تغمرها رائحة خافتة من التعفن، لكن هذا كان في ذهنها فقط بالطبع، وهم شمي، لأن صدر كونراد كان يعلو ويهبط، ومنخراه يرتعشان تقريباً بنفس شدة اليد المليئة ببقع الشيخوخة التي تمسك

بالسماعة. لكن ليس بثبات المسدس في العيادة. لم يكن من المستغرب أن يسمي العاملون هنا النزلاء أحياناً بـ «الزومبي».

الموتى الأحياء. هدأوا بالأدوية، وحُبسوا للأبد.

حتى هنا في منطقة الزوار، حيث يجلس الأقارب قبالة الحالات شديدة الخطورة مفصولين بجدار زجاجي، يشعر أي شخص طبيعي بقلق يماثل تخيل عنكبوت الرتيلاء يزحف على لسانه.

رفعت إيما السماعة وجلست.

قال الرجل الذي حلق رؤوس أربع نساء، وقتل ثلاثاً منهن، ومنحها أكثر ليالي حياتها رعباً:

— "شكراً لكِ. مجيئكِ لزيارتي يعني لي الكثير."

قالت إيما بجمود:

— "هذا استثناء. جئت هذه المرة فقط ولن آتي مجدداً."

أومأ كونراد، وكأنه كان يتوقع ذلك.

— "دعيني أحزر، الدكتور روث أرسلكِ. يعتقد أن إغلاق هذا الفصل سيساعد في علاجك، أليس كذلك؟"

لم تستطع إيما منع نفسها من الشعور بالإعجاب بصديقها الذي كان يوماً الأقرب إليها. في فترة وجيزة، نخر السجن صحته، وحضوره الطاغي، وسحره الشبابي، لكنه لم ينل من ذكائه.

قالت بصدق:

— "إنه ينتظر في الخارج."

مع سامسون، الذي عاد يتبع كل خطوة تخطوها. وجورجو، الذي ربما لن تتخلص منه أبداً بطريقة ما.

نقلت إيما السماعة إلى الأذن الأخرى وفركت كوعها الأيسر. أزيلت الضمادة مؤخراً؛ ولا تزال حواف الجرح من ندوب العملية ظاهرة.

لأن الغرف الفردية في الجناح الأمني بعيادة "بارك" تُقفل ليلاً فقط، تمكنت من مغادرة غرفتها في ذلك اليوم. لكن في حالتها تلك، استغرق قطع الأمتار القليلة للوصول إلى الصالة الرياضية أكثر من عشر دقائق من الجهد المضني.

بسبب الرصاصة التي انطلقت بالخطأ من مسدس كونراد حين ظهرت إيما بشكل غير متوقع في المكتب المزيف، ستتذكره طوال حياتها كلما ثنت ذراعها. ولكن حتى لو لم يهشم معصمها، كان من المستبعد أن تتمكن من نسيانه أبداً.

قال بالصوت الذي سمعته آخر مرة وهي نصف نائمة:

— "أنا آسف جداً. لم أرد إيذاءك قط."

في عيادة "بارك". كانت الذكرى التي أثارها صوته قوية لدرجة أن إيما تذوقت طعم حمض المعدة والقيء نفسه في فمها كما حدث في غرفتها بالمستشفى حين تقيأت. قال الدكتور روث إن الدواء سبب لها اضطراباً في المعدة، لكنها كانت تعلم الحقيقة.

كان صوت كونراد هو ما منعها من فقدان الوعي تماماً. واعترافه هو الذي قلب معدتها وأعادها في النهاية إلى اليقظة التامة.

سمعت كونراد يسأل:

— "ما الأمر حقاً؟"

قطبت إيما جبينها.

— "عفواً؟"

— "ما الذي جاء بكِ إلى هنا حقاً؟ أنتِ فتاة عنيدة يا إيما، وهذا شيء لطالما أعجبت به فيكِ. قوتك، حتى حين كنتِ طفلة. لم تكوني لتسمحي له بأن يأمركِ بالمجيء إلى هنا ما لم يكن هناك شيء يشغل بالك."

أخذت إيما نفساً عميقاً وشعرت بالاحترام لـ كونراد مرة أخرى. لم يفقد موهبته في قراءتها ككتاب مفتوح.

— "بعد كل ما حدث، الأمر غير مهم حقاً. لكن السؤال... يطاردني."

رفع كونراد حاجبيه.

— "أي سؤال؟"

— "فيليب. لماذا تركته يعيش؟"

نقرت بتوتر على إبهامها. كانت أظافرها مقلمة بعناية ومطلية بطلاء شفاف مرة أخرى. رشت إيما بعض العطر وحلقت ساقيها. علامات خارجية للتعافي النفسي.

لكن في الداخل، بدت نوبة برد قادمة تلوح في الأفق. شعرت وكأن عضلات وجهها تتقلص وأذنيها تؤلمانها، ربما لأنها لم ترغب في سماع إجابة كونراد.

— "أعني، قتلت كل أولئك النساء، لكن ليس الرجل الذي كرهته أكثر من غيره. كان هو الزاني في النهاية. ألم يكن من الأبسط التخلص منه؟"

هز كونراد رأسه بحزن.

— "عزيزتي، ألا تفهمين؟ أردت حمايتك من أي ألم، لا أن أسببه لكِ أبداً. إيما، يجب أن تصدقيني حين أقول إنني أحببتكِ دائماً. ومهما فعلت، لم يكن نابعاً من أنانية قط. حتى حين حرصت على أن تظلي طفلة وحيدة."

الآن أصبح رأس كونراد داخل خوذة دراجة نارية، وبدلاً من الهاتف في يده كانت هناك حقنة بإبرة طويلة، تلمع كالفضة في ضوء القمر.

سمعت آرثر يقول:

— "تعالي يا إيما، اذهبي إلى السرير الآن واهدئي. سأعود حالاً."

رمشت إيما وتلاشت الرؤية من ذاكرتها.

سألت كونراد خلف الزجاج:

– "ماذا كان في الحقنة؟"

اعترف بصراحة:

– "شيء لتحفيز الإجهاض. حقنته في كوب الماء الذي وضعته والدتك بجوار سريرها. أرجوك لا تكرهيني لذلك. أعني، كيف كان لي أن أسمح لها بجلب طفل آخر إلى العالم ليعاني ربما من نفس الإساءة النفسية التي مارسها والدك عليكِ؟ رجل يريد إيذاء ابنته لمجرد أنها خائفة؟"

– "أنت مريض."

ثم صدمتها الحقيقة:

– "إنه أنت! أنت من استبدل حبوب سيلفيا أيضاً!"

– "لمنع فيليب من إيذائك مرة أخرى بمنحها طفلاً."

تشنجت أصابع إيما حول السماعة.

– "أخبرتها عن آرثر لتقوض مصداقيتي أكثر. ولاحقاً أخبرتها أنه فيليب لتدفعها لقتل نفسها."

– "أردت فقط أن تبتعد سيلفيا عنه. لم أستطع حقاً توقع انتحارها."

– "لكنك تتحمل وزر موتها رغم ذلك. أنت مجنون تماماً، هل تعلم ذلك؟"

– "نعم."

قال كونراد.

– "لكنني لم أكن أنانياً قط، أتسمعين؟ الشيء الوحيد المهم لي كان أن تكوني بخير. حتى لو عنى ذلك اضطرارك للبقاء مع فيليب، ذلك العشوائي التافه."

لثانية بدا وكأنه سيبصق على الزجاج الفاصل بينهما.

– "الوغد تركك وحدك حين كنتِ في محنة. اضطررت للتسلل إلى منزلك ومراقبتك. حتى أنني أخذت الطرد من مكتبك وأخفيته في كوخ

الحديقة لبضع ساعات ليرى فيليب الحالة التي كنتِ فيها. وأنه لا يستطيع تركك وحدك طوال عطلة نهاية الأسبوع! ليس وأنتِ في هذه الحالة! لكن الوغد ذهب على أية حال. بارد القلب، بلا ضمير."

— "اختبأت؟"

كم مرة راقبتني سراً طوال تلك السنين؟

عرفت إيما أن هذه فكرة مخيفة أخرى، تماماً كفكرة نسج شعرها في سجادة «الإنسو» الخاصة بـ كونراد. فكرة قد تتلاشى مع السنين إذا حالفها الحظ، لكنها لن تفقد رعبها تماماً أبداً.

— "في الكوخ. في القبو. حين كنتما تتحدثان كنت أنا في المطبخ، يفصلني عنكِ باب رقيق فقط."

قالت إيما:

— "كما خلف باب التوصيل في فندق (لو زين)."

اغرورقت عينا كونراد بالدموع.

— "أوه، يا حلوتي، لابد أنكِ تحتقرينني حقاً الآن."

كانت شفته السفلى ترتجف وبدأ لعابه يسيل، لكنه لم يحاول مسحه.

— "أردته أن يتوقف عن إيذائك. أرسلت له الشعر فقط ليعرف عواقب خيانته لكِ. لكن بدلاً من ذلك استخدمه الوغد لتعذيبك أكثر. أنا آسف جداً."

سألت إيما:

— "على ماذا؟"

كانت قد عزمت على أن تكون غاضبة منه. في طريقها إلى هنا، رسمت مسار المحادثة وخاتمتها في رأسها. تخيلت نفسها تقفز وتضرب السماعة باللوح الزجاجي مرة تلو الأخرى حتى يتحطم وتتمكن من شق حنجرة كونراد بإحدى الشظايا.

لكن الآن وهو يجلس هناك كطفل صغير سُلبت لعبته المفضلة، لم تشعر سوى بفراغ كبير مشوب بالشفقة.

سألت:

– "لست آسفاً لقتل كل أولئك النساء؟ ولا حتى لمطاردتي طوال حياتي؟"

هز رأسه باكياً.

– "ولست آسفاً لتخديري واغتصابي، قبل سحب جسدي خارج الفندق؟ محولاً إياي إلى حطام مرتاب طعن رجالاً أبرياء حتى الموت؟"

نشج قائلاً:

– "لا. أنا آسف فقط لأنني لم أعترف بحبي لكِ في وقت أبكر. ربما كان لتكون لدينا فرصة."

أغمضت إيما عينيها، ومسحت جفنيها بظهر يدها وأعادت السماعة إلى مكانها.

بالطبع، فكرت. إنه مريض. يجب أن أفهم ذلك أفضل من أي شخص آخر.

فتحت عينيها ومنحت كونراد نظرة أخيرة.

ورغم أنها لم تتعلم قراءة الشفاه قط، ولم تحاول حتى، استطاعت أن تقرأ من شفتي كونراد ما كان يقوله لها من خلف لوح الزجاج:

«بدافع الحب يا إيما. فعلت كل ذلك بدافع الحب فقط.»

ـ تمت ـ

الطرد

سيباستيان فيتزيك

"رواية "الطرد" هي واحدة من أكثر الروايات إثارة، يجب عدم تفويتها".
- كارين سلاتر

إيما الطبيبة النفسية الشابة هي الناجية الوحيدة من القاتل المعروف في الصحف باسم "مصفف الشعر"؛ بسب التذكارات التي يأخذها من ضحاياه، أو هكذا تعتقد... بينما الشرطة وزوجها غير مقتنعين بشكل كامل، فهي لم ترَ معذبها بشكل واضح، لكنها الآن تراه في كل رجل تقابله، وتخشي أن يعود "مصفف الشعر" ليطاردها مرة أخرى ليكمل فعلته الشنيعة، تتخلى عن وظيفتها وتنعزل في منزلها بحي هادئ ومجهول وآمن؛ حيث لا يمكن لأحد أن يؤذيها.
إلى أن يطلب منها ساعي البريد ذات يوم أن تتسلم طردًا لجارها؛ رجل لم تتعرف على اسمه ولم تره من قبل، على الرغم من أنها تعيش في شارعها منذ سنوات..
كل ما فعلتِه هو تسلم طرد لجارك، ليس لديكِ أي فكرة عما أدخلتِه إلى حياتكِ.



ترجمات مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks

ترجمة / قناة wadistreambooks
@t.me/wadistreambooks